مُختاراتٌ من عَزيز نَسِين

هذا البيت لا تدخله الجرائد

(وقصص أخرى)

ترجمة: رحاب الصفصافي أحمد
أ. د / الصفصافي أحمد القطوري

لوجو
الهيئة المربع

سلسلة
آفاق عالمية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• هذا البيت لا تدخله الجرائد
• ترجمة:
رحاب الصفصافي أحمد
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2008 م
328ص. 5ر13 × 5ر19 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية: سوزان عبدالعال
• رقم الإيداع: ٢٠٤٩٢/ ٢٠٠٩
• الترقيم الدولى: 978-977-479-630-9
• المراسلات :
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى : 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت : 27947891 (داخلى : 180)

• الطباعة والتنفيذ :
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : 23904096

83

سلسلة شهرية تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية فى الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

هذا البيت لا تدخله الجرائد

كلمة لابد منها

عزيز نسين (١٩١٥- ١٩٩٥) واحد من أكبر كتاب السخرية الضاحكة على مستوى العالم.. هذه الحقيقة أكَّدها عدد الجوائز العالمية التى حصل عليها حضورياً.. أو مُنِحت له رغم عدم حضوره الجسدى إلى هذه المهرجانات أو المسابقات التى عُقِدَت حول الفكاهة المزاحية..

عاش عزيز نسين فلسفة وفكاهة ولطائف ومُزْحِيَّات نصر الدين خواجه.. أى "جحا" بكل ما فيها من عمق وأصالةً وتلميح يُغْنِى عن التصريح.. هذا من ناحية، ومن ناحية آخرى؛ فلقد عاش انهيار أُمَّة وسلطنة وخلافة، وإرهاصات نشوء جمهورية وتشكيل دولة وتنظيم حزب أوحد. عاش قلاقل تركيا الحديثة بعد إعلان الجمهورية فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٣م = ١٣٤٢هـ وما تبع ذلك من انقلابات أو ثورات

اجتماعية حاولت أن تقتلع الشعب التركى من جذوره الحضارية الشرقية والزج به أو الولوج به إلى مضمار الحضارة الغربية المادية.. عاصر عزيز نسين ما نتج عن ذلك من تناقضات بحيث أصبحت تركيا كلها تعيش نفس الحالة التى تُطلق على مدينة استانبول.. أى المتناقضات العالمية = " Cosmopolitan" الشئ ونقيضه فى نفس الوقت؛ الشرق والغرب.. التكيَّة والجامع والخمارة، دور العبادة.. وأحياء الدعارة... بيوت الأخشاب وناطحات السحاب.. "اليشمك" و"البرقع" و"الحجاب" و"التُلْبان" إلى جانب الشورت والمينى....

أَمَدَّ الله فى عمر عزيز نسين بحيث عاصر مرحلة الثورة التركية والتغيُّرات الاجتماعية وسيطرة الحاكم الواحد والحزب الواحد والـ "مللى شيف" من ١٩٢٣ - ١٩٤٥م = ١٣٤٢ - ١٣٦٥هـ والانتقال إلى التعددية الحزبية ١٩٤٥ - ١٩٦٠م = ١٣٦٥ - ١٣٨٠هـ والحكومات الائتلافية عقب الانقلابات أو الثورات العسكرية. ٢٧ مايو سنة ١٩٦٠م، ١٢ سبتمبر سنة ١٩٨٠م = ١٤٠١هـ

عاش تصارع الأفكار؛ الشيوعية.. الاشتراكية.. الرأسمالية.. الثورة الصناعية.. الهيمنة الأمريكية بانتشار الدولار والدبابة والقاعدة.. رأى الدبابات تجوس وتدوس شوارع بودابست وأوصلو ووارسو... ناصر ثورات الجياع وطموحات الاستقلال... صارع الفاشية والنازية واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان أينما كان..

سَخَر من أنظمة الحكم.. وخداع رجال السياسة وتملق رجال

الدين وجُبْن المثقفين.. سخر من الأوضاع الاجتماعية التى تُحِيط به.. وسخر حتى من نفسه.

عاش مطارداً.. من السلطة.. ورجال الأمن.. والبوليس السياسى والمدنى.. ومن أصحاب الأعمال وسيطرة العنصر الأجنبى على التجارة.. طارده الجوع والفقر والظلم والحرمان من السفر لسنوات طويلة من حياته..

عمل عزيز فى العديد من الحرف والأعمال حتى استقر به الحال لأن يكون من أوائل الكتاب الذين عاشوا من نتاج فكرهم وما يخطه يراعه.. كتب للصحف والمجلات والدوريات وللإذاعة ثم التلفاز.. حتى أصبح أغزر الكتاب الأتراك إنتاجاً وأكثرهم توزيعاً وأشهرهم بين القراء من شتى الاتجاهات الفكرية. قرأ له الشيوعى والاشتراكى.. المسلم.. والعَلْمانى.. قرأ له العامل وصاحب العمل.. اختلفوا حول معتقداته ولكنهم اتفقوا حول إبداعه وفكاهيته.. حول سخريته المُفْجِعَة حتى أطلق عليه البعض "نصر الدين خواجه" "جحا" القرن العشرين.. تَسَمَّى بأكثر من مائتى اسم.. وأُطلق عليه؛ الساخر الباكى.. المضحك المبكى".

تم مَسْرَحة معظم أعماله غير المسرحيَّة، مُثِّلت على المسارح والمقاهى وصالات الفنادق. طافت بأعماله المسرحية العديد من الفرق المسرحية حتى تعرف عليه الفلاح والعامل والمثقف فى الأناضول والبلقان وإيطاليا والمانيا وكل بلدان المعسكر الذى كان اشتراكيا.. وتُرجمت أعماله إلى أكثر من أربعين لغة من لغات العالم ومازالت

دائرة ترجماته تتسع.

رأس اتحاد الكتاب الأتراك وصندوق رعاية المؤلفين لأكثر من عشرين سنة، وأصبح عضواً بارزاً فى "اتحاد الكُتَّاب الأسيويين الأفريقيين" وزار مصر فى أكتوبر عام ١٩٦٤م بدعوة من اتحاد الكتاب المصريين عندما كان يرأسه الأديب يوسف السباعى.

التقيت به خلال هذه الزيارة سنة ١٩٦٤م = ١٣٨٤هـ وقد كنت معيداً فى قسم اللغات الشرقية فرع اللغة التركية وآدابها وتجولت معه فى ربوع القاهرة ومنتدياتها.. وجامعاتها أنا والصديق الأستاذ الدكتور/ أكمل الدين إحسان اوغلى التركى الأصل والذى كان معيداً هو الآخر بكلية العلوم آنذاك وقد تحدث هو أيضاً عن كل مشاهداته ولقاءاته فى القاهرة وبغداد فى كتابه الذى أصدره حول هذه الرحلة وهو مطبوع منذ عام ١٩٧٧م أهدانى بعضاً من كتبه ومازالت لَدَىَّ موقعاً عليها بخط يده البديع.. وقد كان يكتب أيضاً بالخط العربى العثمانى، وحافظاً للقرآن.. يفهم ما يدور من حديث باللغة العربية لكثرة المفردات العربية المستخدمة فى اللغة التركية.

كما التقيت به فى مدينة استانبول بعد أن سافرت إليها فى يناير سنة ١٩٦٧م لإعداد أطروحتى للدكتوراه.. وكانت هذه اللقاءات من الموضوعات التى تم التحقيق معى فيها خلال فترة التوقيف السياسى وفى السجن الحربى بمدينة استانبول خلال فترة الحاكم العسكرى ومنع التجوال عام ١٩٧٣م = ١٩٣٩هـ ولمَّا ثبت عدم تورطى فى أى أعمال مضادة لتركيا، بل كانت كلها تدور فى نطاق الإطار المصرى

لمواطن مصرى يعيش محنة هزيمة سنة ١٩٦٧م = ١٣٨٧هـ تم الاكتفاء بإبعادى عن تركيا وعدم إتاحة الفرصة أمامى لمناقشة الرسالة فى جامعة استانبول خلال شهر يوليو / حزيران سنة ١٩٧٣م.

إن أشد ما أحزننى من النتائج التى ترتبت على ذلك هو تجريد مكتبتى هنالك من كل الترجمات العربية والصور والفيشات والخواطر والملاحظات التى كنت أدونها باللغة العربية خلال مدة إقامتى فى استانبول والتى تجاوزت الستة أعوام...

ولكن – حتى وإن بعد الأمد – فها أنذا أعود إلى أعمال عزيز نسين وأختار منها بعض المختارات أنا وابنتى رحاب الصفصافى أحمد التى أعَدَّت رسالتها للماجستير فى جامعة عين شمس وعُيِّنت بها مدرساً مساعداً فى كلية الآداب جامعة حلوان عن عزيز نسين وأنماط السخرية عنده.

ونتمنى على الله أن يُمَكننا من أن نُقَدم بعضاً آخر من "مُزْحِيَّات عزيز نسين" فعنده.. "إن اسْتَطَعْت أن تَبْتَسم.. أو تَضْحَك فأنت قادر على الإنْتَاج وصُنْع السَّلام.. فالذى يَضْحَك لا يَقْتُل...." وهَذَا لَيْس على الله بِكَثِير... وَعَلَيْه حُسْن القَصد والتَيْسِير.

رحاب الصفصافى أحمد

الصفصافى أحمد القطورى

١- مجنون على الشرفة
Damda Deli Var

جميع أهالى الحى على قدم وساق من هول ما يسمعون :

– مجنون على السطح .. !

امتلأ الشارع بأكمله بهؤلاء الذين جاءوا لمشاهدة المجنون ..

فى البداية توافد رجال الشرطة بعرباتهم من المخفر ثم توافد رجال الشرطة بسياراتهم من المديرية ، ومن بعدها سيارات المطافئ ومن وسط الزحام انطلق صوت أم المجنون وهى تستعطفه وترجوه :

– يا بنى – يا حبيبى – أنزل تحت – هيا يا ولدى أمين

– كان المجنون يردد :

– إذا لم تنصبونى رئيسا للحى (مختارا) فسألقى بنفسى إلى أسفل. أخذ رجال الإطفاء فى الاستعداد لإنقاذه إذا ما ألقى بنفسه إلى الأسفل، فشدوا حول المبنى كله أقمشة الخيام، وأمسك بها من

جميع الأطراف تسعة من رجال المطافى الذين أخذوا فى اللف والدوران فى الاتجاه الذى يتجه إليه المجنون وهم يتصببون عرقا

وكان الضابط يحاول إقناع المجنون بالنزول بصوت يمزج فيه الرجاء بالتخويف قائلا

– أرجوك أنزل يا أخى

– اجعلونى رئيسا وأنا أنزل وإلا فسألقى بنفسى

ولم ينفع معه الرجاء أو الاستعطاف أو التخويف

– يا أخى – أقول لك أنزل تحت ... !

– انظروا ماذا يقول ! بدلا من تنزلنى إلى أسفل فاصعد أنت إلى أعلى ..

انبرى واحد من وسط الزحام قائلا :

– لنقل عينَّاك رئيسا

واحد آخر قال :

– محال يا أخى – هل يصح أن يكون المجنون رئيسا ؟

– الله الله أصحيح اننا سنعينه رئيسا

قال عجوز يتكئ على عصاه :

– لا يجوز سواء أكان بالجد أو بالهزل لا يصلح هذا حتى لو نصبتموه ..

– ربما ينزل

– لن ينزل فأنا أعرفهم – إذا ما صعدوا مرة إلى الأعلى فلن ينزلوا قط ..

– المهم الآن أن ينزل وبعدها ليكن ما يكون

– لن ينزل

– فصاح واحد من بين المتزاحمين قائلا:

– لقد جعلناك رئيسا للحى هيا انزل .. !

– فبدأ المجنون فى التراقص وهو يلف ويدور فوق حافة الطابق الأعلى ثم قال :

– لن أنزل ! ما لم يجعلونى عضوا فى مجلس المدينة فسألقى بنفسى ..

– قال العجوز لمن حوله :

– أرأيتم ؟ ألم أقل لكم ذلك ... ؟

– لننفذ ما يطلب ..

– مهما فعلتم فلن ينزل – فإن الانسان إذا ما جُن مرة وصعد إلى القمة فلن ينزل أبدا

قال الضابط :

– جعلناك – لقد جعلناك عضوا فى مجلس المدينة فهيا يا أخى لا تجعل رفاقك ينتظرونك .. !

– لن أنزل ! اجعلونى رئيسا للبلدية وأنا أنزل

قال العجوز :

– أرأيتم .. كان يجب الحسم فى وقتها – الآن لن ينزل قط ..

قال رئيس المطافئ الذى كان غارقا فى عرقه :

– ماذا سيحدث لو عيَّناه رئيسا للبلدية. فلنجعله ثم وضع كلتا

يديه على فمه ليجعلهما كالبوق وصاح قائلا :

– أنزل يا أخى – فلقد عيناك رئيسا للبلدية ..فهيا أنزل لمارسة عملك ..

– بدأ المجنون يرقص وهو يقول :

– لن أنزل – ما عملى أنا بين هؤلاء الذين جعلوا مجنونا رئيسا للبلدية .. ؟ لن أنزل

– إذن ماذا تريد ؟

– لو جعلتمونى وزيرا .. أنزل !

بعد جدال قصير فيما بين المحتشدين .

– ليكن ما تريد لقد جعلناك وزيرا فهيا إنزل إلى الأسفل – كما ترى الجميع فى انتظارك

بدأ المجنون يحك لهم أنفه بيده وهو يقول

– لن أنزل ! .. هل أنزل أنا بين من جعلوا مجنونا وزيرا لهم .. !

– هيا يا أخى لقد اخترناك وزيرا، والوزراء الأخرون ينتظرونك – هيا أنزل ..

– هل الأمر فوضى – أو يغما – أنزل حتى تزجوا بى فى مستشفى المجانين ! .. لن أنزل .

قال الرجل العجوز :

ما تفعلونه هراء – هباء – فلا تحاولوا ... لن ينزل ! فأنا أعرف هؤلاء المجانين جيدا .. أنت أيضا لو رفعوك إلى كرسى الوزارة أتود أن تنزل !

كان المجنون يصيح بصوت جهور:

– ما لم تجعلونى رئيسا للوزراء فسألقى بنفسى

صاح الجميع قائلين :

– جعلناك – جعلناك رئيسا للوزراء

قال الرجل العجوز :

– لن ينزل !

بدأ المجنون فى الرقص ثانية ثم قال :

– اجعلونى ملكا – عندئذ أنزل – مالم تجعلونى ملكا فسألقى بنفسى حتفا...

وكان ما قاله العجوز وما توقعه يحدث، فبدأوا يستشيرونه :

– ماذا ترى هل نجعله ملكا ؟

قال العجوز :

– لقد سبق السيف العزل .. وأنتم مضطرون لتنفيذ كل ما يطلب

– وعلى أى حال فقد جعلتموه رئيسا للوزراء ..

فصاحوا إليه قائلين :

– لقد عيناك ملكا يا أخى .. هيا .. كفى أنزل إلينا فعاود المجنون الواقف فوق حافة الرقص وهو يقول :

– لن أنزل

– ماذا تريد غير ذلك – ها نحن قد جعلناك ملكا

– لا لن أنزل إجعلونى امبراطورا وأنا أنزل .. وإلا سألقى بنفسى حتفا ..

قال العجوز :

– يعملها ويلقى بنفسه ..

فصاحوا قائلين :

– جعلناك امبراطورا .. فهيا تعالى

فقال المجنون :

– أى عمل لى أنا الإمبراطور بين أناس من أمثالكم ؟

– ماذا تريد إذن ؟ أخبرنا بما تريد ونحن ننفذه .. هيا يا أخانا أنزل نحن فى أنتظارك ..

سأل المجنون وهو فوق الحافة :

– هل أنا الإمبراطور .. فسأفعل ما أريد .. أنزل وقتما أشاء – وها أنذا أقول لكم لن أنزل الآن..

اشتاط الضابط غيظا وقال :

– فليذهب إلى الجحيم – وليلقى بنفسه إلى حتفه ..! ماذا سيحدث يعنى .. سينقص مجنون من العالم ..! ولكنه عاود التفكير .. وفكر فى أن ذلك ربما يسبب له مشاكل مع رؤساءه . وفى نفس اللحظة اتجه رئيس المطافئ إلى العجوز وسأله

– ماذا سنفعل الآن ؟ ألن ينزل هذا المجنون قط ..؟

– ينزل ..

– كيف ؟

– اتركوه لى وأنا أنزله .. !

– ساد السكون والوجوم والجميع فى قلق لمعرفة الكيفية التى

سينزل بها العجوز هذا المجنون .. صاح العجوز إلى المجنون الواقف على حافة السور :

– يا جلالة الامبراطور .. ! ألا تودون التفضل بالصعود إلى الدور السادس ؟

أجاب المجنون بمنتهى الجدية :

– لا بأس تسلل إلى الفتحة الموجودة واتجه نحو السلالم ونزل حتى الدور السادس وبدأ يطل على الحشد من النافذة

فسأله العجوز قائلا :

– يا صاحب العظمة .. ! ألا تودون الصعود إلى الدور الخامس ؟

قال المجنون :

– بكل سرور

سيطرت الدهشة على كل الحاضرين

وجه العجوز حديثه إلى المجنون الذى يطل على الجماهير من نافذة الدور الرابع قائلا:

– مولاى حضرة الامبراطور .. ! ألا تتفضلون بالصعود إلى الدور الثالث ..؟

فأجاب المجنون قائلا:

– لابد

وها هو المجنون أمام نافذة الدور الثالث ولكنه لم يعد يرقص أو يتراقص كما كان يفعل وهو على السقف بل تقمص جدية الملوك ..

فخاطبه العجوز قائلا :

– مولاى صاحب الجلالة ألا يريد أن يتفضل بالصعود إلى الدور الثانى ؟

– أريد ..

وجه إليه الحديث وقد نزل إلى الدور الثانى :

– ألا يود صاحب الحشمة والعظمة الأمبراطور الصعود إلى الدور الأول ؟

أصبح المجنون فى الشارع ووسط الزحام فاتجه فورا إلى العجوز، ووضع يده على كتفه وقال : – يا ولد – كم هو واضح كونك مجنون أنت أيضا فالمجنون يفهم المجنون من حاله ..

ثم وجه حديثه إلى قائد الشرطة قائلا :

– هل تعلمت الآن كيف يعامل المجنون ؟ هيا قم بواجبك .. اربطنى وأبعث بى إلى المصحة العقلية ...

وبينما الشرطة وغيرها مهتمون بأمر المجنون، التف جمع غفير من الشغوفين والتواقين حول العجوز لمعرفة كيفية إنزاله للمجنون وسألوه قائلين :

– يا عماه كيف فعلت ذلك بالله عليك ؟

تنهد العجوز تنهيده عميقه وقال :

– إيييه – ليس الأمر سهلا كما تتصورون لقد عركتنا السياسة .. فنحن فى معركتنا منذ أربعين سنة .. ثم أخذ نفسا عميقا وتنهد تنهيده وقال

أه .. أه لو أن ساقى تطاوعانى الآن لصعدت أنا أيضا إلى القمة .. إلى السقف ولما استطاع أى إنسان أن يعيدنى إلى أسفل.

٢- الكَيْفِيَّة التى يَجِبُ أنْ يكُون عَلَيْها رَئِيسُ البَلَدية

كانت ستجرى انتخابات رئاسة البلدية فى المركز.. وكان مرشحا الحزبين المتنافسين قد تركا المرشحين الآخرين فى الظل. وقد انتهت الدعاية الانتخابية التى تجرى فى المقاهى والدكاكين والمنازل، ولم يتبق سوى الخطب التى ستُلقى فى الساحة الرئيسة. بشير أفندى أحد المتنافسين؛ كان صاحب مهام فى حياته العسكرية. تركها.. ثم قام بتمثيل المركز وهذه المنطقة منذ ما يزيد عن ثلاثين سنة بعد أن عمل مدَّة وكيلاً لمحامٍ. ومنافسه هو البقَّال قاظم أفندى الذى يُمثل الحزب الآخر.. قاظم أفندى تولى العمدية لسنوات طويلة.. يفك الخط قراءة.. ولكنه لا يكتب قط. كان يُجْرِى حسابات الدكان بإشارات قد استحدثها هو لنفسه.

أمام قصر الحكم، أقاموا مِنَصَّة أحضروا مناضدها من المدرسة

الابتدائية الموجودة فى القصبة. لم ينسوا أن يضعوا كوباً ودورقاً من المياه على المَنَصَّة.

ولما كانت الأجواء بين الأحزاب على ما يرام، فإن الخصمين اللدودين– الوكيل السابق بشير أفندى، والعمدة القديم والبقَّال الحالى قاظم أفندى– إقتربا من المنصَّة وقد تأبط بعضهما البعض. كان أهل القرى والمركز قد ملأوا الساحة ولما كان الوكيل بشير أفندى هو أعلم أهل المركز، فقد كان على ثقة تامة من أنه هو الذى سيعتلى المنصة أولاً. ولكنه؛ قال:

– تفضل يا قاظم أفندى.. تحدث أنت أولاً..

فرد قاظم أفندى قائلاً:

– استغفر الله.. أنا .. ! مَنْ أنا.. تفضل أنت أولاً..

تدلل وكيل الدعوى بشير أفندى الذى تولى رئاسة البلدية ثلاث دورات متتالية.. أخيراً.. اتجه نحو المنصة واعتلاها.. ولما كان معتاداً على محاكم المركز لسنوات طويلة؛ فقد بدأ الحديث متقمصاً أداء وكيل الدعوى "وكيل النيابة"..

– أيها المواطنون.. ! لقد تلطفتم علىَّ باختيارى وانتخابى رئيساً للبلدية لثلاث دورات... وأنا بدورى حاولت أن أكون لائقاً بهذه المسئولية بمساعدتكم. ها نحن نتجه لانتخابات.. ولا أقول لابد أن تنتخبونى.. فعندى الكثير من الأعمال.. ومُتْعَبُ أيضاً.. ولكن تحت إصرار بلدياتى تقدَّمت للعضوية.. إذا أردتم فانتخبونى.. أو اختاروا غيرى.. (ينظر بطرف عينه إلى قاظم أفندى). والآن.. أنا سوف

أعرض عليكم.. ما توصل إليه عقلى.. وما يدور فى لسانى.. وسوف أُحاول أن أشرح لكم الكيفية التى يجب أن يكون عليها رئيس البلدية.. يجب أن يكون رئيس البلدية مُجَرِّب.. ناضج.. رأى وتمرس بالحياة.. (كان كل المرشحين ما عدا قاظم أفندى وبشير أفندى شباباً). إن عمل رئيس البلدية عمل مُرْهق.. مُتْعِب.. ولهذا يجب ألاَّ يكون كهلاً.. أصلعاً.. تساقطت أسنانه إلى جانب شعره... هذا العمل أيضاً لا يناسب صاحب الأحفاد.. والعيال.. (المنافس قاظم أفندى يكبر بشير أفندى بأربعة عشر عاماً.. متساقط الشعر.. أسنانه طقم تركيب). يجب ألاَّ يتجاوز رئيس البلدية الخمسين من العمر. (هو فى الخمسين تماماً).. لو انتخبتم شخصاً لا يعرف القانون أو اللوائح أو الأنظمة.. فلن يستطيع أن يُسَيِّر أموركم ومصالحكم.. (ليس فى المركز كله مَنْ هو عارف بالقانون واللوائح مثله).. أنا لا أقول انتخبونى... ولكن حذارى أن تنتخبوا مَنْ لا يعرف الكتابة.. ويتهجى.. لا تنتخبوا شخصاً هكذا... فرئيس البلدية يدخل كل الدوائر الحكومية.. ويلتقى بالكبار.. لو انتخبتم مَنْ لا يعرف كيف يربط رباط العنق أو يرتدى بنطلوناً مَكْوِيَّاً فإنَّه يُقلِّل من حيثية وشرف كل المركز.. (ليس فى المركز كله مَنْ يعتنى برباط العنق وكىِّ البنطلونات مثله).. لو انتخبتم مَنْ لا يلبس قبعة فُوتْر مثل قبعتى هذه" يخلع قبعته من على رأسه ويشير بها" فلا نساوى فلساً.. "ليس فى المركز كله مَنْ يحافظ على ارتداء هذا النوع من القبعات غيره".. أنا لا أقول يجب أن تنتخبونى.. ولكن الرجل الذى

ستنتخبونه رئيساً للبلدية يجب أن يكون كما شرحت.

نزل بشير أفندى من على المنصة. بدأ المحتشدون فى الساحة يرددون؛

– مع حق.. يتكلمُ صدقاً..

– مع حق من الأرض إلى السماء..

وسط هذه الهمهمات.. صعد قاظم أفندى إلى المنصَّة وبدأ الحديث.

– بشير أفندى قال لكم ما فيه الكفاية "يُشير إلى منافسه بشير أفندى". مَنْ ستنتخبونه رئيساً للبلدية يجب أن تكون أنيابه ذهبية. (أنياب بشير أفندى مغطاة بالذهب).. (ثم يشير بيده نحو بشير أفندى ويتابع؛

– يجب أن تكون عينى رئيس البلدية زرقاء "يبدأ القرويون فى إطلاق الضحكات". و"يشير قاظم أفندى نحو بشير أفندى ويقول"..

– يجب أن يكون على خده الأيسر شامة ظاهرة.. "يحمر وجه بشير أفندى من الغضب"..

– ورئيس البلدية يجب أن تكون عصاه فى يده هكذا.. وأن تكون نظارته على عينيه..

"تزداد ضحكات وقهقهات المحتشدين"

– يجب أن يكون اسم رئيس البلدية... بشير أفندى.. نزل قاظم أفندى من فوق المنصَّة. وبينما الجمع الغفير لا يتمالكون أنفسهم من الضحك. كان بشير أفندى يلوك شعيرات شاربه من الغضب.

كانت الدعاية الانتخابية ستمتد إلى اليوم التالى. انقسم القرويون إلى فريقين. وكان الأغلبية فى صف بشير أفندى. ترك بشير أفندى رقة رجل السياسة، وبدأ فى نشر الغسيل القذر للمنافس. وأصبحت الألسن تلوك قاظم البقال، ويتردد فيما بين المحتشدين أى صنف من الناس هو... فى اليوم التالى تضاعفت أعداد المحتشدين.. بشير أفندى بنفس حدة اليوم السابق ينجه نحو المنصة رويداً.. رويداً. يصعد إلى المنصة ويتابع.

– مواطنى.. ! أعزائى.. إننى مضطر إلى أن أفرغ ما فى جعبتى... فهل هناك بينكم مَنْ لا يعرف ماذا فعل هذا الرجل خلال فترة عُمُدِيَّته .. ؟ ... فلو أتى أحد علية القوم إلى المركز .. أو إلى القصبة.. أين يذهب.. ؟ .. فورا إلى بيت العمدة قاظم.. أليس كذلك... ؟ لماذا .. ؟ .. إنكم جميعاً تعرفون السبب... وبخاصة السنة الماضية.. ما أن وصل ثلاثة أشخاص إلى منزله.. أليس هو الذى أقام ولائم الرقص للغَزِيَّة أمينة اللهلوبة فى بستانه طوال يومين وليلتين.. ؟

المحتشدون؛ يتهامسون؛

– صدق والله ..

– صح يا أخى..

– مواطنى.. ! هل تعلمون ماذا فعل بجلود الأضاحى التى جَمَّعها فى عيد الأضحى بحجة أنها زكاة.. ؟ .. إن هذا الرجل الذى يُوَد أن يكون رئيساً للبلدية.. هل بينكم من لا يعرف أنه يجمع أربع زيجات

بالزواج العرفى.. ؟

تتعالى الأصوات من بين القرويين؛

– حرام.. حرام عليه... !!

– أيها المواطنون... ! هذا الرجل قبل أن يكون عمدة ماذا كان يملك غير دكان البقالة.. لم يكن حيلته أى شئ غيره.. خلال عشر سنوات تملك نصف القصبة.. وكيف حصل على ذلك.. كلكم تعرفون كيف... !

ارتفعت الأصوات من بين المحتشدين؛

– كان عمدة شاطر.. مخِلَّصاتى..

– مواطنى... مازال فى جعبتى الكثير الذى يمكن قوله... ولكننى سأصمت.. والآن.. لكم ما تريدون.. إن شئتم انتخبوه.. وإن شئتم انتخبونى...

اهتزت الساحة من التصفيق.. وحان الدور على قاظم أفندى... كان قاظم أفندى يضحك من تحت ضرسيه.. تمهل فى الصعود إلى المنصَّة.. تكلم على مهل؛ ولكنه يتحدث إلى صحبة فى مقهى؛

– كل ما قاله بشير أفندى حقاً.. وصدقاً.. كان بشير أفندى طوال ثلاثين سنة وكيلاً للدعوى.. ولا يملك فدانين.. أو زوج من الثيران... هو رجل شريف جدا.. ! مُفْلِس.. لدرجة أنه لو زاره ضيف لما وجد مكاناً يجلس فيه أو ينام عنده.. أما أنا.. فكما قال هو.. قبل العمودية لم أكن أملك ولا فلس.. والآن لدى ما يزيد عن مائتين وخمسين فداناً من أجود الأرض الزراعية. والحمد لله.. النقود

كثيرة... هو يملك البنطلون المكوى.. والقُبَّعة الفوتر، وعنده نظارة.. ورباط عنق.. وأنا لا أعرف الكتابة أو الخط... وغير ذلك أنتم تعرفونه..

انتهت الخطبة.. تفرق الجمع.. وستُجرى الانتخابات بعد يومين اجتمع أصدقاء العمدة قاظم أفندى فى دكانه حتى ملأوه.

– ماذا فعلت يا قاظم أفندى ؟ هل يصح كلام مثل ما قلت.. ؟ أنت جعلت بشير أفندى هذا كالملائكة... هل هو مفلس ؟ إنه يشتريك أنت ..

يُطلق قاظم أفندى ضحكاته.. ثم يقول:

– لننتظر.. وسنرى ماذا يصير فى الانتخابات.. ؟

– يا أخى.. نحن نعرف أنك أرسلت جلود الأضاحى إلى شركة الطيران القومية.. لماذا لم تقل أنه يفترى.. ؟

– انتظروا حتى الانتخابات.. ولنرى.. ماذا يصير.. ؟

– يا أخى.. أين هى ثيرانك وعجولك التى تتجاوز المائتين رأساً... كل ما تملكه هم الثلاثين فداناً التى ورثتها عن والدك وزوج واحد من الثيران... نحن نعْرِف أن الذى رقَّص الغَزِيَّة أمينة اللهلوبة هو.. وليس أنت..

لم يكن قاظم أفندى يُقابل كل ذلك إلاَّ بقوله وهو يبتسم؛

– انتظروا.. لنر الانتخابات..

أُجريت الانتخابات.. ولم يحصل وكيل الدعوى بشير أفندى حتى على ربع الأصوات التى حصل عليها العمدة قاظم أفندى. وكان

أهالى القصبة من القرويين المتجهين إلى صناديق الانتخابات يقولون لبعضهم البعض؛

– نحن يلزمنا طريق... يلزمنا ماء.. يلزمنا حيوان طالوقة... يلزمنا قروض من البنك.. يلزمنا بذور... هذا الرجل المدعو بشير طوال هذه السنين لم يُصْلح أمور نفسه.. فأى خير يأتى من وراءه للقصبة... غير شاطر.. غير مسلكاتى.. لا يعرف حتى كيف يرقص غَزِيَّة رقاصة.. لا يعرف كيف يستقبل الكبراء.. لا يأتى من يده أى عمل.. أعطوا صوتكم لقاظم أفندى..

وبعد هذه الانتخابات، فإن المرشحين لرئاسة البلدية اعتادوا على القاء خُطب كهذه فى الدعاية الانتخابية؛

أيها المواطنون.. إن لدى خمسمائة عجل.. وأربعة أزواج من الثيران... لدى أربع من النسوة.. وخمسمائة فدَّان من الأرض الزراعية.. وأُرقِّص راقصة من الغوازى مرة كل أسبوع.. وقد جمعت كل ذلك فى ظرف ستة أشهر بسبب الفهلوة وتفتيح المخ.

٣- السلطان الذى انتخبته الغربان

كان مما كان فى سابق العصر والأوان فى بلد من البلدان بائس من بنى الإنسان، لا يجد ما يسد به البطن الجوعان، ولا يستر الجسد العريان. ولكنه لم يكن خبيث الطوية.. كانت كل رغبته أن يسرى الخير إلى الآخرين.. عنده الرغبة الطيبة ولكن لم يكن يعرف كيف يصنع الخير. كان دائما يقول:

– آه آه .. لو كان فى طاقتى ومقدورى أن أضع الخير للناس كافة.

وكانوا يسألونه:

– وكيف ستصنع الخير ؟

– الخير وحسب.. سأصنع الخير.. ولتسنح لى الفرصة مرة وأنا أعرف كيف أصنعه.

وبينما هو بقمة الجبل ذات يوم يغمغم قائلا: " إلهى وفقنى إلى خير بنى البشر" إذ يقترب منه أحد أبناء السبيل ويسمع حديثه هذا ويقول له:

– مرحبا يا بنى.

ولما أدار الرجل المحب للخير رأسه رأى شيخا ذا لحية بيضاء تتدلى حتى صرته:

– مرحبا يا أبت.

– مالك تحدث نفسك وتدعو ربك ؟

فأخذ الرجل.. يقص عليه بكل طاقته رغبته العارمة فى إسداء الخير لبنى البشر..

قال ذو اللحية البيضاء ناصحا:

– لقد رغب أناس كثيرون مثلك فى صنع الخير لبنى البشر. ولو كنت تعرف كيف يصنع الخير لما كنت رغبت فيه هكذا.. إن إسداء الخير للناس أصعب من فعل الشر ولم يحسن صنع الخير منذ خلقت الدنيا سوى نفر قليل.

لكن الرجل لم يسمع إليه وقال:

– أنا لا أشبه الآخرين ولو أتيح لى ذلك لرفعت الشرور جميعا عن وجه الأرض.. ولم يبق جائع ولا صاد ولا عار أو ذو حاجة، ستنتهى النزاعات والضغائن وستجرى الأمور فى نصابها.

قال ذو اللحية البيضاء:

– عندك الرغبة الملحة، لكنك لا تعرف كيف تحقق ما ترغب فيه..

ولقد ظهر من قبلك كثيرون لم يعرفوا كيف يصنعون ما يريدون..

قال الآخر:

– وهل هناك على وجه الأرض شئ أسهل من صنع الخير ؟

قال ذو اللحية البيضاء:

– إذن ما دامت تستبد بك الرغبة فى صنع الخير، فلا تمكث.. وطف وجس خلال البلاد حتى تكون ديارا ويحل زمان تصل إلى المكان الذى تصبو إليه.

لم يسمع الرحب المحب للخير من حديث ذى اللحية إلا كلماته الأخيرة وطفق يسير ويسير، يضرب فى الفيافى والقفار ويجوس خلال البلاد والديار وتمر به الأيام والأعوام، وهو يحدث الناس حيث حل عن رغبته التى يشتعل بها قلبه ويتلظى، وبينما هو فى تجواله هذا سار يوما وليلة بتمامهما. رأى مدينة على مرمى البصر وتباشير الفجر تلوح فى الأفق.. كانت المدينة محاطة بأسوار القلعة. بحث عن باب المدينة.. واتجه إلى داخلها. وما أن دخلها حتى أصابته الدهشة وكيف لا يدهش والميدان غاص بالناس.

إذا قلت أنا: أنهم مائتا ألف فقل أنت: ثلاثمائة ألف.. حشد من البشر لا أول لهم ولا آخر. انخرط فى تلك الجموع.. كان الجميع يتكلمون. أصغى إليهم فإذا بهم يقولون:

– أيها المواطنون.. إننى أرغب فى خيركم. قولوا للغربان تجعلنى سلطانا عليكم.. فلتجعلنى الغربان سلطانا ولترونى كيف أسدى الخير إليكم.. ستجرى الأنهار شرابا حلوا وستغدو أحجار الأرصفة

ذهبا إبريزا، وسأستمطر السماء رحيقا غذبا.. سيعم الخير وستشملكم الهناءة.. ستملون أكل البقلاوة والفطائركل يوم من أيام الله.. ستنالون راحة بالغة حتى تقض هذه الراحة راحتكم.. أيها الأخوة المواطنون قولوا للغربان تجعلنى سلطانا..

أسقط في يد الرجل الذى كان يسمع هذا الحديث على كل الأفواه.. وشخص ببصره إلى جواره فإذا به يجد الرجل ذا اللحية المتدلية إلى صرته واقفا بجواره.

قال: مرحبا يا أبت.

قال ذو اللحية: مرحبا يا بنى.

سأل الرجل ذا اللحية البيضاء:

– مالى أراهم جميعا يقولون نفس الكلام.. ويتصايحون ؟

قال ذو اللحية البيضاء:

– كل واحد يظن أنه هو وحده الذى سيصنع الخير، ولكنه لا يعرف كيف يصنع الخير لذلك..

– وهل يتصايح هؤلاء الناس هكذا دائما ؟

– لا بل من الانتخابات إلى الانتخابات. وهنا تجرى الانتخابات مرة فى كل عام.. وفى فترة الانتخابات يريد كل واحد أن ينتخب هو..

– لماذا ..

– لأن كل واحد يظن أنه هو الذى يستطيع صنع الخير دون الآخرين، والكل يرغب فى صنع الخير. ولا يوجد من يريد فعل الشر أبداً ..

– وماذا ينتخبون هنا ؟..

– ينتخبون سلطانا.. هذه البلاد لا تشبه غيرها. فالسلطنة هنا لا تورث من الأب إلى ابنه كما فى البلاد الأخرى.. ففى كل عام يُنتخب من بين الشعب سلطان جديد وإذا صنع الخير للشعب كما وعد فإنه يبقى سلطانا.. وإذا لم يفعل فإنه ينُتخب فى العام التالى سلطان آخر ولم يبق حتى الآن فى السلطنة أحد أكثر من عام واحد.

– إذن ولم يتصايحون أيتها الغربان.. أيتها الغربان ؟..

– لأن الغربان هى التى تنتخب السلطان فى هذه البلاد، لذا فهم يصيحون بها.

ثم أعتم الجو.. وغطت صفحة السماء سحابة من الغربان. واحتجبت الشمس من خلفها.

وبينما كانت الغربان تحلق فوق الناس صائحة "كاك" "كاك" .. كانوا هم يصيحون بها متوسلين:

– أيتها الغربان الشقيقة.. انتخبينى أنا أيتها الصديقة.

ظلت الغربان فى صياحها وطيرانها، ثم انفرد من بينها غراب كبير هابطا وأخذ يحلق فوق رأس الرجل الذى جاب الفيافى والقفار ليصنع الخير.. ثم صاح الغراب صيحة "كاك" وغاط على رأس الرجل المحب للخير، ثم عاد محلقا فى الفضاء.

بدأ الناس يخاطبونه:

– لقد أصبحت ثلث سلطان. أصبحت ثلث سلطان ! ...

احتار الرجل فيما صار به من حال فسأل ذا اللحية:

– ماذا يجرى ؟

قال ذو اللحية:

– انتخاب السلطان هنا يتم هكذا، إذا غاط الغراب على رأس أحدهم ثلاث مرات فإنه يصبح سلطانا على البلاد. وها أنت قد أصبحت ثلث سلطان. وأدعو أن يختارك الغراب ثانية.

ولم يكد يقل هذا حتى حام الغراب وغاط ثانية على رأس الرجل.

فصاح الحشد به:

– لقد أصبحت ثلثى سلطان.. أصبحت ثلثى سلطان ! ..

– ولكى لا يكمل الغراب فعلته للمرة الثالثة على رأس نفس الرجل حسر الجميع رؤوسهم وأخذوا يتوسلون للغربان:

– أيتها الغربان الشقيقة.. هنا أيتها للغربان الشقيقة هنا.

لم يسمع الغراب إليهم. واختار للمرة الثالثة رأس نفس الرجل. وعلى أثر هذا صاحوا به. لقد أصبحت سلطانا. ثم حملوه على أكتافهم إلى القصر.

ولما أصبح الرجل سلطانا، لم ينس للغربان فضلها فى جعله سلطانا. أصدر فرمانا بأن تنزع النواطير من كل الحقول والبساتين.. وحاكم وعاقب كل من رمى الغربان بالحجارة.

ولم يكتف بهذا بل أمر أن يقدم كل بيت حفنة من الحب إلى الغربان كل يوم. بدأ الشعب فى التذمر لكن السلطان لم يكن يقيم وزنا لغير الغربان. وهكذا مر العام الأول وجاء زمان الانتخابات.

اجتمع أهل البلاد فى ساحة المدينة. وبدأ كل واحد يتوسل إلى الغربان أن تنتخبه. وكان كل منهم يقول: إنه يريد أن يصنع الخير للناس كافة. جاءت سحابات الغربان. واعتم الجو. وطنَّ الجو بصياح الغربان "كاك .. كاك .." فى كل عام كان غراب واحد يختار السلطان، وفى هذا العام حومت فوق رأس السلطان القديم عشرة أغربة شكرا لجميله عليها وغاطت عليه ثلاث مرات.. ولما صار نفس الرجل سلطانا لم ينس للغربان صنيعها فأمر الناس أن يربى كل واحد عشرين غرابا فى بيته.. وأقام لها أوكارا تحميها من وطأة الرياح والبرد.. وأخذت الغربان فى النمو والتضخم حتى صار الغراب فى حجم الديك الرومى.

وما لبث أن جاء زمان الانتخابات، واستبد التذمر بالشعب الذى كره السلطان، ولكن ماذا يجرى ذلك فإن مائة من الغربان فى حجم الديكة الرومية اختارت رأس السلطان القديم هدفا لها ثلاث مرات.

أصدر الرجل الذى أصبح سلطانا للمرة الثالثة فرمانا:

ألا تكون هناك قملة واحدة على الغربان. وأن تنظف الغربان بنزع قملها. وأن تطلى أقدامها وتدهن أدبارها.

أصبح الغربان بالرعاية والتغذية المستمرة فى حجم الخراف، وكثر عددها حتى ضاقت بها المدينة.

ثم حان أوان انتخابات أخرى، وفى هذه المرة جاء فى الغربان خمسمائة ليعربوا عن شكرهم العميق نحوه واختاروا رأسه ثلاث مرات.

وعلى ذلك اعتنى السلطان بها عناية كبيرة واضطر الناس أن

يتركوا بيوتهم التى ضاقت بالغربان وأن يلجأوا إلى الجبال والبرارى.. وتضخمت الغربان حتى صارت كالبقر.

ثم أقيمت انتخابات أخرى، وتطايرت الغربان التى فى ضخامة البقر فى الجو. وصمت الآذان من ضجيجها.. ولكى تفى الغربان بدينها للسلطان جاءت جميعها هذه المرة لتترك شكرها على رأسه.

ولما اقترب الناس من السلطان المنتخب من جديد لكى يحملوه إلى القصر إذا بهم يجدون تلاً من سلح (*) الغربان .. والسلطان من تحته مختنق منسحق.

بدأ الناس من جديد فى فرح يتصايحون.

– أيتها الغربان الشقيقة انتخبينى أيتها الصديقة.

أيتها الغربان الشقيقة انتخبينى أيتها الصديقة. ،،

* سلح الطير هو غائطه

٤- شُكلت هيئة حزب

Bir Parti orgütü Kuruldu

كان حزب " K.L"يسعى بكل قوته للانتشار وتوسيع نفوذه فى الأماكن التى أسس بها شُعَبِه وتأسيس أفرع جديدة فى الأناضول كان مواطنو قصبة "ج" أناس فطنين ومتنورين كانوا يريدون تواجد كل الأحزاب فى مراكزهم المتعطشة للديموقراطية منذ سنوات وكان فى قصبتهم عدا حزب "ك.ل" الحاكم فروع وشعب لكل الأحزاب . عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة فى مركز "ج" هذا يفوق سائر المراكز الأخرى فهم يقرأون كل الصحف وكانت جميع الصحف تكتب باستمرار عن حزب "ك.ل" الأحزاب فى مركز "ج" لا تعادى بعضها البعض فجميع الأحزاب سواء من فى السلطة أو فى المعارضة أصدقاء لبعضهم البعض.

ذات مساء قام حمزة أفندى رئيس شعبة الحزب الحاكم "ك.ل" فى

مركز "ج" بالاختلاء مع محمود أغا رئيس شعبة حزب المعارضة فى المركز فى ركن من أركان المقهى الذى يجلسون عليها وسأله قائلا:

– كيف ترى الدنيا يا سيد محمود ..؟

– إن هذا الحزب الذى ظهر حديثا استقطب دعايا كبيرة وينطلق بشكل مدهش

– أنا أيضا كنت سأقول لك نفس الشئ ..ماذا تقول لو ناقشنا هذا الموضوع فيما بيننا غدا..؟

– أقول يكون حسنا جدا .. أنت وصل الخبر إلى رجب أغا واسماعيل أغا وأنا أقول لبكير أغا لكى نلتقى غدا بعد صلاة العصر فى دكانى ونناقش هذا الموضوع فيما بيننا

فى اليوم التالى تقابلوا فى دكان ألف نوع" للخردوات والزجاجيات والتحف لصاحبه محمود أغا والموجود فى مكان السوق ..انبرى حمزة أفندى رئيس شعبة الحزب الحاكم قائلا :

– أيها الأصدقاء اليوم هكذا وكيف يكون الأمر غدا هذا غير معلوم .. ربما يسقط حزبنا .. وربما يصعد حزب رجب أغا ثم يسقط حزب رجب أغا ويصعد حزب إسماعيل أغا .. المشكلة الأساسية ليست حزبى أنا أو حزبك أنت المهم هو أمور المنطقة فعندما كان حزب بكير أغا فى السلطة رصفنا الطريق من المركز إلى المحطة، انشأوا المدارس وجعلناهم يقيمون شرابخانه ... وعندما انتقل حزبنا إلى السلطة جلبنا المياه وأوصلنا التيار الكهربى الأمور غير واضحة غدا فربما يصعد حزب آخر طارحا "ك.ل" جانبا وهاهو "شينجيك

ك.ل" يصعد والصحف تكتب أنه ينطلق ويقولون " تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن " وربما ترى فى الغد أن هؤلاء صاروا فى السلطة ويغضبون لأننا لم نفتتح لهم شعبا فى مركزنا وفى رأيى هناك أعمال كثيرة فى مركزنا لم تنفذ بعد وهناك الكثير الذى يمكن عمله وعلينا أن نؤسس شعبة فى مركزنا لهذا الحزب فماذا ..؟

عندما وجه حمزة أفندى رئيس شعبة الحزب الحاكم هذا الكلام إلى اسماعيل أغا .. قال :

– صحيح لو افتتحنا شعبة فلن تضر، تحسبا لأى أمر فيه فائدة وليس فيه ضرر فهل الزيادة تضر.. ؟

فقال حمزه أفندى :

– حسنا .. شئ طيب ولكن يجب أن لا نغضب أنصارنا ..

فقال رجب أغا :

– يا عزيزى عم حمزة... إن فتح شعبة لحزب لا تعنى أن كل الأمة قد انطلقت إليه أليس كذلك...

– يا... طيب جدا ولكن يجب ألا يشعروا أننا نحن الذين افتتحنا الشعبة .. يا عمى بكير وهل سمع أو أحسن الآخرون إلى الآن حتى أن ...

– كلما زاد عدد الأحزاب فى البلد .. ففى هذا خير كثير المهم أن يتداولوا السلطة فيما بينهم وأن يغضبوا بعضهم بعضا حتى تتحقق الأعمال

قال حمزة أفندى رئيس شعبة الحزب الحاكم :

– لابد البتة... إن حزبنا عمل للقضية كل ما يمكن أن يعمله ... شيد المدرسة، المياه، ووقف عند هذا الحد أنا سوف أعطى صوتى هذه المرة لحزب آخر ويجب عليه أن يقوم بأعمال جديدة يحرضوا دائما

قال محمود أغا :

– هذا الحزب الجديد يسير ينطلق كما لو كان سينتقل إلى السلطة

– أيها السادة يجب أن لا نتخاذل ولنفتتح له أيضا شعبة وكلما أسرعنا وتقدمنا فى النهاية يمكن أن نعدد لهم ما قمنا به ...

– كل حسن .. ولكن هل بيننا من هو غير حزبى حتى الآن

– لا ..

– هذا هو الأمر السئ .. يجب أن نحتفظ برجل احتياطى لكل حزب جديد يتشكل

– كاتب السجل حسين أفندى .. غير حزبى فليشكل هو الحزب فقال إسماعيل أغا لو كنا حقا نريد أن نخدم هذه الديمقراطية فيجب أن يستقيل البعض منا من الأحزاب وأن ننتقل إلى الحزب الآخر وفى هذه الحالة لو وصلوا إلى السلطة فلن يقولوا شيئا ونحن نقول لهم "لقد تركنا حزبنا القديم من أجلكم ودخلنا هذا الحزب" وما نقوله سيفعلونه

قال لحمزة أفندى :

– " جميل" جدا صحيح جداً.

– لنستقيل ثلاثيا أو خماسيا من كل حزب وقولوا أيضا لكاتب السجل حسين أفندى أن يكتب رسائل لكل الصحف فى استانبول قائلا "إن الأحزاب تحل" ... بدأت الاستقالات... كل المستقيلين ينضمون إلى حزب شنجك K.L الجديد

فقال اسماعيل أغا :

– " جميل".. من الذين سيستقيلون ..؟

– اسماعيل أغا .. الحق يعلو ولا يعلو عليه .. نعمل قرعة ..

احضرت قوائم المقيدين فى الحزب ضربوا القرعة وتقرر أسماء المستقلين وكان رئيس الشعبة المحلية للحزب الحاكم من بين الذين استقالوا ... "وهكذا تأسس حزب " ك.ل" الجديد فى مركز "ج"

٥- علية القوم

Ileri Gelen Adamlar

مركز "ك" يقع على الحدود فى إحدى المقاطعات الشرقية، شتاءه يستمر ما بين ستة أو سبعة أشهر ثلجى .. عاصفى... شتاءه قارص تغطيه العواصف الجليدية .

فكرت الهيئة المركزية للحزب الحاكم، وقررت أن ترسل تعميما إلى كل شعب الحزب حتى العزب والكفور والنجوع القريب منها والبعيد..

وما إن قرأ رئيس الحزب فى مركز "ك" المرسل من اللجنة المركزية حتى ارتطمت يداه ورجلاه فى بعضهما البعض وزادت ضربات قلبه وكأن علية القوم فى الحزب وقادته سيفتحون عليه الباب ويدخلون فورا.

على الفور اجتمعت الهيئة المحلية للحزب فى مركز "ك" وما إن حاول رئيس الحزب أن يتمالك نفسه حتى توجه إلى عضو الهيئة

الإدارية حسنى أفندى صاحب فندق "مودرن بالاس" عمدة حى طاش قائلا:

– سيد حسنى– "كان دائما فى الخطاب الرسمى يخاطب أصدقاءه بلقب سيد– " لنقرأ هذا الخطاب ..

– قرأ صاحب الفندق حسنى أفندى التعميم .. وما كان من حيدر بك رئيس البلدية إلا أن قال:

– يأتون .. إنهم قادمون

– أنا أيضا فهمت هكذا .. المفهوم من هذا الخطاب أنهم قادمون ..! كانت الهيئة المركزية تسأل عن بعض الأمور وتطلب الرد عليها سريعا

وتم الرد على المطلوب مادة مادة

١– المقيدون فى حزبنا خمسة الآف عضو وجميعهم إذا اقتضى الأمر مستعدون للتضحية بأرواحهم من أجل حزبنا ... ومع هذا فإن المنتظمون فى دفع الرسوم الحزبية بشكل منتظم لا يتجاوز خمسين عضوا ...

٢– إن أوامركم الصادرة على الرأس والعين معا .. ولسوف يتم إعداد حفل استقبال معظم وذلك بإخراج تلاميذ المدارس الابتدائية بزيهم الجديد كل يوم إلى محطة القطار، ولقد تم التنبيه على كل العمدة والمشايخ أن يبعثوا بكل من هو قادر على السير فى قراهم إلى المحطة. كما تم التنبيه على المراكز المجاورة كنوع من المساعدة الإنسانية التى سترد لهم عند الضرورة أن يبعثوا من عندهم ما بين

ثلاثة أو خمسة آلاف شخص للمشاركة فى الاستقبال وإننا سنساعدهم إذا ما حان عليهم الدور.

٣– إن حزبنا قد افتتح فى مركزنا ناديا لفريقين من فرق كرة القدم .. وإن الشباب قد عقد العزم على إقامة مبارة كبيرة على شرفكم عند تشريفكم لمركزنا ولذا فإنهم يتابعون تمرينهم اليومى .. بالإضافة إلى ذلك فإن فريقين التمثيل يجتمعون فى ساحة الشباب للتدريب على تقديم مسرحيات تربوية وأعمال كوميدية ذات طابع أخلاقى على أعلى مستوى .. وسوف يقدمون هذه الأعمال فى حضوركم وبين جنباتكم ... الخ ...."

سلم الرد إلى هيئة البريد .. وفجأة هجم الشتاء بقسوته ودفن مركز "ك" تحت الثلوج فى منتصف ديسمبر وعندما سلم الرد إلى البريد بما طلبته اللجنة المركزية كانت الطرق ليست مغلقة ولكن ما إن ابتعد القطار الذى يحمل البريد عن مركز "ك" بثلاثة حتى توقف ولم يبتعد عن هذه المحطة فالطريق مغطى بالجليد ومغلق وبقيت الرسائل والحوالات فى عربة البريد، كانت قد وصلت من كافة تشكيلات الحزب إلى الإدارة المركزية فى أنقرة .. إلا مركز "ك" ولذلك فقد كتب إلى رئيس الحزب خطابا أخر أشد لهجة بسبب عدم اهتمامه هذا .. وعند تسليم الخطاب أيضا إلى البريد كانت كل الطرق مغلقة تماما .. وبقى الخطاب فى الطريق ... كان أعضاء حزب مركز "ك" يتسابقون ويتنافسون فيما بينهم .. الكل يريد أن ينال... وكان كل من رئيس الحزب ورئيس البلدية يقدمان أنفسهما

على أن اللجنة المركزية سوف ترشحه لعضوية المجلس القادم وسيكون وكيلا عن الأمة .

اجتهد وجد مدير المدرسة الابتدائية طوال أسبوع كامل حتى تمكن من إعداد خطاب استقبال لرئيس الحزب .. وفى مقابل ذلك . فقد كانوا يجتمعون ليليا ويحتسون الخمر على حساب الرئيس .. والآن .. كان رئيس الحزب فى كل مساء وعلى مائدة العرقى "الشراب" هذه يحفظ هذه الخطبة التى دبجها مدير المدرسة ... وكان المدير يتدخل من حين لآخر مقاطعا الرئيس وهو يقول:

– ارفع صوتك هنا أكثر .. هنا .. اصمت قليلا .. وقلب ناظريك فيمن حولك .. ابتسم قليلا .. ثم ابدأ من جديد

كان رئيس البلدية بدوره مشغولا بالوليمة واستعداداتها .. وقد سمع أن حسنى أفندى مدير فندق "مودورن بالاس" سوف يرتدى بدلة ليلاً "سموكن" لهذا الاستقبال .. وبهذا سيعلوا الجميع ويبزهم .. وكان يحادث نفسه .. إذا كان هناك رجل يعرف كيف يرتدى السموكن.. وهو مرتدى سموكن .. لا يمكن أن يتركوه ويعملوا أو يرشحوا ذلك الذى لا يعرف ليكون عضوا للمجلس .. لا يمكن أن يبعثوا به إلى أنقرة .. كان حسنى أفندى عندما توجه إلى أنقرة كعضو عن الحزب فى السنوات الأولى من عمر الجمهورية قد اشترى هذه البدلة السموكن المستعملة من هناك .. والآن أخرجتها زوجته من صندوق الملابس ... ونفضت عنها النفتالين وتم كيها ولكنها لم تعد تناسب حسنى أفندى فقد صغرت البدلة قليلا وحسنى

أفندى هو الآخر كبر حجمه إلى حد ما .. وخصر السروال لا يتوائم..

ولما كان مركز الحزب لم يتلق ردا من شعبة قصبة "ك" حتى الآن فقد تملكته الحيرة وبعث بخطاب أشد لهجة بالبريد أيضا ولم يتلق عليه ردا أيضا وهنا بدأت الوساوس فقد كانت بعض التشكيلات المحلية فى الولايات الأخرى تنتقل إلى أحزاب أخرى .. حذارى أن تكون شعبة قصبة "ك" قد لعبت نفس اللعبة .. ولمجاراة الجو وتلطيفه فقد طلبت اللجنة المركزية من اللجنة المحلية فى قصبة "ك" أن تبعث بوفد منها إلى الإدارة المركزية فقد جرت العادة أن تطلب الوفود والهيئات من المقاطعات التى ستنفصل عن الحزب .. ويتم استقبال هذه الوفود والهيئات من قبل علية الحزب وقادته وتقام لهم الولائم .. وما أن تطبع الصور الملتقطة لهم جميعا فى الصحف حتى تكون الروابط قد تقوت فيما بينهم ولم يأت الرد أيضا من قصبة "ك" على الدعوة أو الاستدعاء لأن كل الرسائل والخطابات تحبس فى الطريق ولا تصل إليهم.

استطاعت القصبة أن تجمع بالكاد قائممقاليق لاعبا لفريقى كرة القدم ومازال ينقصها ثلاثة لاعبين لكل فريق ..انضم موظف المحطة ومدرسان إلى فريق وانضم من قلم المحاسبة الخاصة ثلاثة موظفين.. وموظف الصحة دخل كمراقب، وأكمل الباقى من الطلبة .. وما إن أنتشر الخبر بأنه قد سمح للموظفين للاشتراك فى لعبة كرة القدم ، حتى زاد الإقبال وزاد عدد الراغبين فى الاشتراك فى كرة

القدم لدرجة أن صلاح الدين أفندى الكاتب فى القئمقاية والذى يبلغ من العمر الخمسين سنة طلب أن يكون حارسا للمرمى ...

تم إقامة مسرح للشباب فى الدور الأسفل الخاوى من الفندق ... كان الاهتمام بالمسرح كبيرا ولكن لم يتمكنوا من إيجاد ممثلة..

– آه ... لو كان الوقت صيفا ..

خلال الصيف تفد فرق الأكروبات والمطربات وفرق الرباب إلى القصبة .. كان يمكنهم أن يستأجروا فنانتين منهن

فكروا فى أن يرتدى أحد الذكور زى امرأة ، ولكن لم يرض أحد بذلك .. وجد مدير المدرسة مسرحية كل أبطالها ذكور .. وكانت تجرى عليها البروفات يوميا

ذات يوم قال الصائغ رضا بيك أحد المنتمين لحزب قصبة (مركز) "ك":

– يا أخى .. الطرق مغلقة . وهذه الاستعدادت كلها بلا فائدة .. إن القطار لا يعمل حتى..

فرد رئيس التعميم الذى قد وصل منذ شهرين إلى الجواهرجى رضا قائلا :

– اقرأ هذا .. إنهم يكتبون بأنهم سيأتون قريبا .. ولو كانوا سيأتون فهل سيأتون بالقطار..؟ ستجد ذات صباح أن المركز قد احيط بالسيارات ... قل الآن يا سيد رضا ماذا نفعل حينذاك..؟

– يا هووو . . الطرق مغلقة ..

– الطرق مغلقة على ... وعليك أم علية القوم فما داموا سيأتون

فهل يهمهم إغلاق الطرق أو فتحها ... ؟ إنهم يدفعون بالآف الجرافات والجرارات أمام سيارتهم الكاديلاك .. الجرافات تمسح الثلوج تقيم لهم الطرق ... ويأتون ..

كان تلاميذ المدارس الابتدائية والاعدادية يتقدمهم مدرسوهم يتوجهون إلى المحطة كل يوم .. يستعدون لاستقبال علية القوم .. لم تكن توجد زهور حتى العشب الأخضر لم يكن يوجد هنا فى الشتاء .. فقامت مدرسة الحياكة فى المعهد (لم يكن هناك غيرها) بعمل بوكيه تقليد من ورق الكربون.. وكانت غولسان ابنة القائمقام ذات الحادية عشر من عمرها تتوجه به كل يوم هى الأخرى إلى المحطة وكانت غولسان تتلقى تدريبا يوميا عن كيفية تقديم الزهور إلى علية القوم الذين سوف ينزلون سواء من القطار أو من السيارات

وما إن حل منتصف مارس حتى مل الناس من هذه الاستعادادت وتراخت المساعى والهمم .. ولما كان رئيس الحزب يبدو وكأنه قد فقد الأمل . فقد كان يود أن يعرف هل سيأتون من مركز الإدارة المركزية للحزب أم لا ومن المعيب أن يسأل المقامات العليا مباشرة "هناك حارس شاويش بين جنود الرئاسة " فسوف يسأله بطريقة ملتوية .. ولما كانت خطوط الهاتف بين المدن لا تعمل .. فلسوف يتحدث فى تليفون الداخلية ..

فذهب إلى نقطة الدرك .. كان تليفون النقطة يدويا .. ولا يمكن أن يصل مباشرة إلى العاصمة أنقرة .. فقال جاووش الدرك :

– نحن نحادث – وهناك لاسلكى .. وهم من هناك يسألون ..

باللاسلكى.. وهم بدورهم يسألون ... وهم يسألون أنقرة لأن لهم اتصال بأنقرة ..

إن القطار الذى لم يعمل منذ شهر ونصف الشهر سوف يصل فى اليوم التالى إلى القصبة لأول مرة .. والأخبار تؤكد بعضها البعض معنى ذلك أن علية القوم سوف يأتون بالقطار . فبدأ أصحاب الأدوار فى المسرحية فى إعادة حفظ أدوارهم .. وقام فريقى كرة القدم بتمرينهم الأخير .. وخلال التمرين حاول موظف الصحة أن يقذف بالكرة فأصبح معاقا لأنه أطلق قدمه فى الهواء ..

كان المستقبلون قد تجمعوا منذ الصباح الباكر فى المحطة وكان وسط المستقبلين طاقم موسيقى بارع فى عزف نشيد استقلال أزمير ونشيد استقلال الجزائر .. كان الفريق عبارة عن طبال وعازف كمان وحامل مزمار وعبطى القبطى عازف الكلارنت .. اصطف فى مقدمة التلاميذ .. ومن بعدهم فريقى كرة القدم بزيهم ثم جاء من بعدهم فنانو مسرح الشباب .. وقد نشروا بطول المحطة لوحة من القماش مكتوب عليها أهلا وسهلا"

وفى الخلف احتشد الخلق .. وكان الضيوف الحزبيون الذين وفدوا من المراكز الأخرى للمساعدة قد احتلوا أماكنهم ..ما أن نظر الرئيس إلى بوكيه الورد الذى سيقدم إلى علية القوم حتى تملكه الغضب .. فقد اتسخت الزهور الورقية من كثرة إحضارها إلى المحطة وغطتها القذارة .. تبللت .. وتمزقت .. كان الغضب منصبا على حسنى صاحب الفندق .. الذى تصدر المستقبلين بسبب ارتداءه

البلدة سموكن والذى حاز أهمية قصوى فجأة ما إن ارتدى السموكن حتى أنه لم يجرؤ أى أحد على أن يجعله يقف فى الخلف .. إن بدلة رئيس البلدية جديدة ولكنها لا تشبه السموكن .. ولما لم يستطع ارتداء ربطة عنق أسود ارتدى ربطة عنق ملونة..

كان رئيس الحزب قد نسى الخطبة التى سوف يلقيها وذلك بسبب الإثارة والعجلة.. وكان من حين لآخر يتوجه إلى المرحاض ، ويخرج الورقة ويعيد حفظ الخطبة التى سيلقيها .. ازدانت جميع النواحى بالأعلام والرايات الورقية .. وما إن سمع صفير القطار حتى وصلت الإثارة إلى ذروتها .. دخل القطار المحطة .. زاد الزحام .. هدير ..أعقبه تصفيق حاد وارتفعت هتافات التحية وبدأت فرقة الطبالة والزمارة نشيد استقلال أزمير ..

كان هناك نازلون كثر من القطار ولكن أيهم علية القوم .. فهذا غير واضح .. كان رئيس البلدية يقبل يد أكثرهم بدانة من نزلوا من القطار محييا .. وكان صاحب فندق مودرن بالاس يشد على يدى اَخر توسم فيه الأناقة

وكلما كان ينحنى كانت أثر خياطة السموكن تتمزق لضيقه أما قطاع الشباب فقد أمسكوا بأحد الرجال ورفعوه فوق أكتافهم .. وبدأت الحشود الغفيرة تهتف :

– يعيش .. يا يـ يـ .. يعيش

استمر هذا الاحتفال وهذا الهرج والمرج ربع ساعة .. ثم خيم الصمت على الجميع .. بدأ الهمس والتهامس بين الشعب

– لم يأتوا ...

– أنا رأيت بعينى ... رئيس الحزب يقبل يديه

– كان هذا مسافر ..

– لا يمكن والله .. لقد كان له كرش .. ما شاء الله .. وهل سيكون هناك مسافر هكذا ...؟

خلال تلك الأثناء كان موظف البريد يتجه نحو رئيس الشعبة المحلية للحزب وفى يده مجموعة من الأظرف .. كانت الرسائل موجهة إلى الحزب ومرسلة أيضا من اللجنة المركزية .. تناول الحزب المحلى الأظرف وهو فى قمة الإثارة .. فلم يسبق له أن تسلم مثل هذا العدد من الخطابات والرسائل من مركز الحزب فى العاصمة .. وفتح بأنامله المرتعشة أعلى الأظرف ... وكان المحيطون به ينظرون إليه فى شغف واستعجال ... ولما كانت قراءته ليست قوية بالشكل الملائم ... فقال :

– يا بنى على دمير .. إن عينَّى لا تميزان كما يجب .. اقرأ هذا بسرعة ... قرأ على دمير الخطاب القادم من اللجنة المركزية بصوت مرتفع :

" إلى رئاسة حزب مركز "ك":

إنه بسبب عدم الاهتمام الذى ظهر من هيئتكم الإدارية تجاه أعمال الحزب .. وحركات الفساد داخل تشكيلات الحزب والتحركات الهدامة ومحاولات تفشى النفاق بين الأحزاب .. وكل ما ثبت بالأدلة القاطعة من إخلال بنظام الحزب ومبادئه .. فإننا نعلمكم بقرار

إخراجكم من الحزب بقرار جماعى من هيئة الحزب .."

فترنح رئيس الحزب .. وأصفر لون الأعضاء ... وساد صمت طويل ... قطعة صوت رئيس البلدية حين قال:

– لقد أعددت وليمة لخمسين شخصية ... فماذا يحدث .. ؟

قال كابتن فريق كرة القدم

– واسفاه .. خسارة كل هذا الارتعاد الذى عانيناه بالشورت والفانلة فقط وسط هذا البرد القارص فى الشتاء .

قال على دمير :

– المسرحية .. حتى التزيين كان معدا ..

فار الدم فى رأس رئيس الحزب .. وفكت عقدة لسانه بهذه الحدة وسأل :

– أيها الاصدقاء .. نحن قمنا بهذا القدر من الاستعداد..

– نعم بذلنا جهدا ...

– خسارة كل هذه الاستعدادات ..

– لدى اقتراح لننتقل جميعاً من الآن وبشكل جماعى إلى حزب "القدرة القومى" فماذا ترون ؟ فنحن لزام علينا ألا نُضيّع ما أعددناه وعلينا أن ندعو قياداته للحضور.

– فلندعُهم.

– أقرار هذا ؟

– نعم القرار

وبينما هم جميعاً يتجهون إلى مبنى الحزب لتغيير لوحة الدعوة

والتوقيع على القرار هرع على دمير مراسل إحدى صحف استانبول إلى مكتب البريد وأبرق إلى صحف استانبول بما يلى :

" إن نحو خمسمائة عضو من الهيئة الإدارية لحزب فى مركز "ك" لما رأوا أنه لا أمل فى إصلاح الحزب ، ولم يعجبهم توجهاته المضرة ... فإنهم قد استقالوا بشكل جماعى ... وانتقلوا إلى حزب القدرة القومية".

٦- مصارعة السيارات

Otomobil Doouou

هنا وهناك فى بلاد الله فما زال الذين يعرفون أصل وفصل شاقير يعقوب بك على قيد الحياة، فقد كان يعقوب بيك كما يدعى هو نفسه ليس من زمن بعيد ربما قبل الآن بعشرين سنة كان يخرج من قريته صيفا، وعلى كفليه جلوار مرقع، ويأتى حافى القدميين إلى هذه الأراضى لكى يعمل وإن كان هو نفسه يقتل الذين يعرفون ذلك.

عدوه اللدود هو رضا بيك، لأن رضا بيك منذ ميلاده وترعره وهو من أبناء هذه المنطقة المحليين، ولا يتحمل ثراء يعقوب بك أو يهضمه ولذلك فإنه من حين لآخر كان يقول ويردد :

– انظروا الآن إلى هذا الخنزير البرى، جاء من الجبال وسيطرد الذين كانوا أصحاب البساتين، نحن نعرف أصله وفصله وكيف جاء حافيا ماشيا لكى يعمل باليومية فى حقول القطن، نحن نتذكر تلك

الأيام التى كان يقف فيها على أبوابنا متسولا العمل لكى يكسب مجيديه (دينارا) واحدة. جاء عارى حافى القدميين ولم يكتف بأنه عاش وتوطن فى هذه الأراضى، بل يحاول الآن أن يتنافس ويضع نفسه فى منافسه مع الشرفاء.

– كان يعقوب بك إذا ما بنى فندقا فإن رضا بيك على الفور يقوم ببناء فندق وسينما، إن رضا بيك لا يود أن يكون أقل منه، فكان يضيف كازينو وبار، كان إذا ما أنشئ الأول مشغلا للحرير يقوم الثانى بإنشاء ورشة للنسيج .

عندما اشترى رضا بيك أول سيارة كاديلاك فى المركز كله قام جاقير يعقوب بيك بشراء سيارتين كاديلاك معا وعندما قام رضا بيك بشراء سيارة لكل واحد من أبناءه، قام جاقير بيك بشراء ليس لأولاده فقط بل لأصهاره أيضا سيارة لكل منهم.

كان كل من يمر أمام بيت كل منهما يجد السيارات وقد تراصت بمختلف الألوان والموديلات.

– ذات مره اشترى يعقوب بيك سيارة بويك آخر موديل، و كثيرا ما كان يردد:

– إنه لو قدم لى كل سياراته الكاديلاك فلا أوافق على استبدالها بفردة كاوتش واحدة من البويك، و لكثرة ما ردد مثل هذا الكلام فقد وصل إلى مسامع رضا بك فما كان من رضا بك أن قال:

– و الله لو رأيت البويك الخاصة به هذه لسحقتها، و ما ابقيت فيها قطعة فوق قطعة، وأوصل رضا بيك بدوره هذا الكلام إلى

مسامع غريمه يعقوب بيك، فما كان من يعقوب بيك إلا أن قال :

– لو كان رجلا لما تحدث من خلف ظهرى ,ها هى الساحة وها هو ميدان الرجولة وها هى السيارات، إن كان رجلا فلنجعلها تتصارع .

عندما سمع رضا بيك هذا الكلام رد قائلا :

– من يرجع فى كلامه يكون إمرأة، بل وفاحشة لنجعلها تتصارع، فإن سيارتى الكاديلاك ستفرم سيارته البويك وتأتى برمادها .

شا ع الخبر وتناولت الأفواه أن جاقير يعقوب بيك ورضا بيك سيقيمان مصارعة لسياراتهما، وانقسمت المنطقة إلى فريقين، فريق يشجع الكاديلاك، وآخر يؤيد البويك، وكان رجال كل سيد من هذين السيدين يتظاهرون وكأنهم يتمنون أن تكسب سيارة سيدهم المصارعة ، ولكن كانوا فى داخلهم وفى أعماق نفوسهم يدعون أن يكسب الطرف الأخر .

زاد المتنافسون والباحثون عن سبل كسب الحلبة فمثلا :

– قام رضا بيك بترويج إشاعة أنه قد طلب سائقا ماهرا من أزمير من أجل سيارته

وصل السائق الازميرلى الذى حصل على رخصته لمهارته فى قيادة السيارات لسنوات طويلة دون أن تصطدم منه أو تنقلب السيارة ولو لمرة واحدة، ولم يكن يعيبه إلا شئ واحد . إلا وهو إذا ما أفرط فى تعاطى الحشيش وجلس أمام دريكسيون السيارة، فلم

يكن يملك نفسه من النوم، وهذا العيب جاء فى مصلحة رضا بيك وقد كان القائد الازميرلى كثيرا ما يتفاخر قائلا :

– إننى أقود السيارة حتى وأنا نائم .

كان رضا بيك دائما ما يقول للسائق :

– ستضربه وتمر، ستثقبها وتمر، ستسحقها وتمر، اجعل سيارة عديم الشرف هذا غبارا وترابا لا تبقى على قطعة فيها وسأعطيك ما تريد إن المسألة مسألة شرف . هل فهمت ؟ شرفى!

قال السائق الأزميرلى :

– ولكن، على أطراف هذه المسألة موت محقق، ولكن المسألة مسألة شرف، وشرفك أنت فبإذن الله لن أبقى على قطعة واحدة فيها.

أما جاقير يعقوب بيك فقد وجد سائقا من أبناء منطقته وقد سبق أن لطمه رضا بيك ذات يوم على صدغه ولهذا فإن السائق مشحون بالحقد عليه وكان السائق نفسه يقول ليعقوب بيك :

– يعقوب بيك اترك هذا الأمر لى، فبإذن الله سأجعل سيارته تتطاير كالدخان .

وفى الموعد المحدد، يوم الأحد اكتظ الميدان وكانت حلبة المصارعة قد أحيطت من قبل بالحديد والأسلاك وما أن رأى المجتمعون الكاديلاك الخاصة برضا بيك حتى تعالى التصفيق وسط الأصوات التى تردد ماشاء الله ماشاء الله.

كانت الكاديلاك قد زينت بالزهور وأشرطة الحرير المختلفة الألوان

وكأنها معده لزفاف عروس، وصلت السيارة مزدانة بأشرطة العرس المذهبة إلى المكان المخصص لها .

كان يعقوب بك فى رأس الساحة وفى الناحية الأخرى كان رضا بك فى رأس الساحة من حلبة المصارعة .

ولما كانوا قد أحضروا سائق جاقير يعقوب بيك بالقوة من الخمارة، لذلك جاءت سيارته متأخرة وما أن أطلقت البويك سرينتها حتى هتف أنصار يعقوب بيك مرددين:

– يعيش يعقوب بيك يعيش، وصلت البويك كالعاصفة وقد تطاير خلفها الدخان والغبار، مرقت من بين الحضور الذين اندفعوا إلى الجوانب خشية أن تسحقهم السيارة وأخذت البويك مكانها.

كانت المسافة بين السياراتين مئه و عشرين مترا وتم الاتفاق على أنه ما أن يطلق الحكم الواقف فى المنتصف بالضبط طلقة فى الهواء من مسدسه، فى هذه اللحظة سيضغط السائقان على البنزين.

كان يعقوب بيك قد زخرف مقدمة سيارته بالحناء وكأنها كبش الأضحية كما أمر بتعليق قرنى كبش مذهبين على مقدمة السيارة كما علق على خلفية السيارة لوحة " ماشاء الله" كما علق على جانبى فوانيس الإشارة خرزتى حسد وحدوة حصان، وعلى الجانب الآخر علق رأس ثوم وفردة حذاء (شبشب) طفل قديمة.

أرسل رضا بيك قبل أن تبدأ المصارعة خبرا مفاده :

– أنا قد وضعت شرفى ومكانتى فى هذا الصراع، فهل يضع جاقير يعقوب شرفه هو الآخر ؟

نظر جاقير يعقوب بيك إلى سيارته البويك، ثم التفت إلى عدوه اللدود رضا بيك الذى يواجهه على الطرف الاخر من الساحة ثم قال :– ها هو شرفى فى الميدان، شرفى ! .. وعلى الذى تسحق سيارته وتتفتت ألا يبقى فى هذه البلاد.

وها هما الثريان اللذان يتنازعان ولا يتقاسمان الأراضى الشاسعة قد وضعا شرفيهما مع السيارات التى ستتصارع. وكان مما يزيد فى ثقة جاقير يعقوب بيك أن الشيخ المجدور. قد صنع حجابا للبويك، والكل يعلم أن من يعلق هذا الحجاب حتى ولو دخل الحرب فإن الرصاص أو البارود لا تؤثر فى جسده ليس البويك بل وحتى الدبابة الالمانية لا تؤثر فيها.

قام يعقوب قدرى للمرة الأخيرة بالنظر إلى سيارته البويك فلمح الحجاب الذى أعده الشيخ المجدور فى مكانه، كان جاقير يعقوب من الواضح أنه يظن أن الجميع بلهاء ، فإذا كان الشيخ المجدور يعلم أن جاقير يعقوب ينحدر من سلالة شيخ، فإن رضا بيك أحد أشراف هذه البلاد يعرف أيضا من هو الشيخ المجدور أيمكن أن لا يعرفه ؟

فداخل ردياتير الكاديلاك كان هناك حجاب آخر قد استقر فى مكانه.

رفع الحكم المسدس الذى سيُعطى إشارة البدء، وأعلن أن كلا السائقين مستعدان، انطلقت الرصاصة وسمع على كلا الجانبين ضوضاء، وانتهى الأمر كله فى ظرف دقيقة واحدة، فقد انطلقت السيارتان وكأنهما ديكا مصارعة، وقفزت كل منهما فوق الأخرى

وفى صدمة واحدة، ارتفع صوت موتور كلاً من السيارتين .

انطلقت صرخات من الجموع المحتشدة والبعض قد وضع رأسه بين يديه، كان الكل يظن أن شيئا ما سيحدث إذا ما انطلقت السيارتان بآخر سرعتهما وإذا ما اصطدما ببعضهما البعض، ولكن لا البويك ولا الكاديلاك كانت قد هربت من العراك ,بل كلتا السيارتين قد تداخلتا فى بعضهما البعض وقد تطايرت أشلائهما وتبعثرت أجزاء الموتورين على جانبى الساحة فما كان من جاقير يعقوب إلا أن قال:

– واحسرتاه على شرفى !

ولكن هاهو شرفه أيضا قد ...

ركب كل منهما سيارته وانطلقا فى اتجاهين متضادين، لم يحدث أى شئ للسائقين وتفرق الحضور الذين كانوا يشاهدون المواتير التى مازالت تندفع منها النيران بسبب البنزين رويدا رويدا .

كان سائقا السيدين العدوين اللدودين يبتسمان لبعضهما البعض وقال السائق القادم من ازمير إلى الأخر :

– هكذا انتهى الأمر يا صديقى ... انتهى الأمر دون أن تنزل قطرة دم واحدة من أى منا .

فرد عليه الآخر قائلا :

– وأنا أيضا بعثت بماتور البويك الجديد إلى استانبول أمس، فرد الأزميرلى قائلا :

– وأنا أيضا، ثم أطلق ضحكة مدوية وهو يشير إلى القطع

المتناثرة على الأرض وهو يقول انظر إلى شرف الرجال، لقد تمزق قطعا قطعا .

لف الازميرلى ورقتين من السيجارة ثم أخذ نفسا عميقا وقدم إلى رفيقه الذى سحب نفسا طويلا هو الآخر وقال :

– لقد ضيعنا ٢٠ ألف وذلك عندما كان يدفع بقدمه القطع المتناثرة على ألارض، وجد الحجاب الذى أعده الشيخ المجدور، فما كان من السائق الازميرلى إلا أن أخرج هو الآخر الحجاب المعد للسيارة الكاديلاك ، كان الحجاب مثبت على قطعة من القماش على شكل مثلث ,مزق القماش فخرج من داخله قطعة قماش آخرى مدهونه بشمع العسل، وما أن فتح قطعة القُماش حتى ظهرت قصاصة منزوعة من ورق الجرائد ، نظر إليها السائق الازميرلى وقال :– آه يا عديم الشرف، ورقة من جريدة ويقول لهم حجابا.

وبدأ يقرأ المكتوب فى قصاصة الجرائد :

" مجموع ديون الدولة ٩٨٢ مليون، الدين المسحوب فى مقابل الذهب المرهون ٣٥٦ مليون، فى مقابل ١١٣ طن، وعجز الميزان التجارى ٣٢٢ مليون واستيراد باعتمادات أجنبية ٨٠٠ مليون اتفاقيات على تسهيلات إئتمانية ٧٣٣ مليون – الدين الخارجى ٣ مليار وخمسين مليون تقريبا" .

أما قصاصة الجرائد التى خرجت من حجاب سائق أدنه فقد كان مكتوب بها :

"لقد وصلت أزمة حافلات البلدية إلى منتهاها ولعدم وجود عملة صعبة فإن البلدية لا تستطيع شراء أى أتوبيس" .

٧- الإشتراكية قادمة .. فاحذروا

قال: إننى استغرب بقاءك دون عمل فى هذه المدينة العملاقة التى يعيش فيها أكثر من أربعة ملايين نسمة.

قلت: تقصد إننى واحد من الملايين الأربعة التى ذكرت.. طيب ماذا أفعل ؟ أننى أبحث عن عمل بشكل متواصل ولا أجده !..

– بالبحث وحده لا يجد الإنسان عملاً.

– وكيف يجده إذن ؟.

– ستخلق العمل لنفسك.

– (عال... عال) إذا كانت الدولة نفسها لا تخلق العمل – كيف لإنسان مثلى أن يخلقه.

– لقد خلقوا العمل لأنفسهم فأصبحوا المسيطرين على زمام الأمور.

– أنا لا أستطيع أن أصبح حكومة ....

صديق قديم اسمه صباح الدين... التقيت به وسط الزحام فى ساحة (أمين أدنو) تأبط ذراعى وأخذنى إلى مقهى مكشوف أمام الجامع الجديد ونحن نشرب القهوة سألته: وأنت ماذا تفعل ؟

قال: العمل الذى أقوم به لا يعرفه أحد. أجد عملاً لنفسى حسب مزاجى وهواى.

– ولكن يا صديقى هذا العمل بحاجة إلى رأسمال كبير... لقد ولّى الزمان الذى يعمل فيه الإنسان كثيراً ويدرّ عليه بالقليل من المال.

– إذا شغّلت عقلك جيداً فإنك تبدأ بأقل من عشر ليرات... لم أتعطل فى حياتى إلا عامين فقط، لقد عانيت الكثير وأخذت دروساً كثيرة، من يومها لا أذكر أننى بقيت يوماً واحداً بلا عمل. سكتنا دقيقة، وكالإنسان الذى يقع من السقف سألنى: كيف علاقتك بالإشتراكية.

– ما الإشتراكية التى تقصد يا .... أليس لك عمل آخر.

– قلت ذلك والعرق يتصبب منى.

– يعنى هل تعرف الاشتراكية ؟.

– اسكت بحق الله... إن سمعنا أحدهم (نبتلى بمصيبة) أنا لا أفهم مثل هذا المزاح.

– نعم.. نعم لقد فهمت من الطبيعى جداً أن تبقى دون عمل وأنت تفكر بهذا الشكل يا صديقى، هل تعلم أن الحديث الوحيد فى تركيا الآن هو حديث الاشتراكية، فى المقاهى والبيوت والصالات، والغنى

والفقير، الرجال والنساء، كلهم يتحدثون عن الاشتراكية، لقد أصبحت الاشتراكية و(التويست) موضة عندنا أيضاً، قبل خمسة عشر عاماً أخذت نصيبى من هذه الاشتراكية . فى أحد الأيام، كنت ماراً فى الشارع الذى أمرّ به كل يوم، رأيت مجموعة من البشر متمددين أمام باب أحد المشافى الحكومية إنهم يشبهون الأموات أكثر من الأحياء، كأنهم ينتظرون الموت المفاجئ من أحد الأوبئة، اقتربت من أحد الرجال المتمددين وقد افترش لحافه الوسخ المرقّع، عيناه غائرتان ووجهه أصفر كالقيح سألته:

– ماذا تنتظرون هنا ؟.

ولكى أسمع جوابه، قرفصت قرب الرجل وفهمت منه أنهم مرضى ولعدم وجود مكان داخل المشفى أو أى مكان آخر يذهبون إليه فهم ينامون فى العراء.

ذهبت إلى أحد الأفران القريبة واشتريت عشر خبزات وبعض العنب والبندورة ووزعتها عليهم، ووضعت فى يد كل منهم ليرة تركتهم والألم يحز فى نفسى، ركبت الحافلة وعندما نزلت فى الموقف الأخير متابعاً طريقى، وإذا بأحدهم يدق على كتفى الأيسر.

– تعال معى لبعض الوقت.

– لماذا هل هناك شئ.

– هيا تعال يا ....

لا أريد أن أطيل الحديث عليكم – كان الرجل / من المخابرات/ أخذنى إلى طاحونة، وهناك سألنى: لماذا وزعت المال لهؤلاء الناس ؟.

– لأنهم جياع، أشفقت عليهم وأعطيتهم !.

– هل أنت حكومة. يا ..... حتى تشفق عليهم ؟! ثم من أين أتيت بالمال الذى وزعته.

إن العمل الذى قمتُ به لا يفعله إلا المجنون أو الاشتراكى، وبما أننى لست مجنوناً.. أعطيت مالاً دون مقابل ها .. ها يعنى أنا اشتراكى.. وضعونى فى الدولاب حتى أشبعونى ضرباً، أقول لهم لست اشتراكياً... لست... لست. يقولون أثبت العكس وكيف سأثبت لهم ؟.

ولكى أثبت لهم ذلك طلبوا منى كفيلين (شخصين موثوقين) المهم بعد عشرة أيام من توقيفى توصلت إلى وسيلة أثبت لهم من خلالها أننى لست اشتراكياً... ومنذ ذلك اليوم عندما أسمع كلمة اشتراكى فى أى مكان، أهرب من المكان بسرعة.

قال زميلى: هل تعمل معنا ؟.

– وما هو العمل ؟.

– ولماذا تسأل المهم أن تعمل... أن تحصل على المال... لى صديق أعمل معه فأنا وصديقى لا نقدر على ذلك العمل لوحدنا وشريكى سيأتى بعد قليل ثم جاء الرجل الذى أسماه شريكه. عرّفنى إليه قائلاً:

– صديقنا هذا سيعمل معنا – إن كنت تراه مناسباً –.

غربلنى الرجل بنظراته من الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى ومرات عدة حيث قال: مناسب إلى حد ما، هيئته معقولة وله

كرش أيضاً. قال صباح الدين: قامته الطويلة منذ القدم. لكن كتفيه أصبحا أكثر عرضاً، وكبر كرشه مع مرور الأيام.

نظرت إلى وجهيهما بدقة. هل يسخران منى ؟! لم أجد أثراً للسخرية ظاهراً عليهما. قلتُ. هل تقولان لى ما نوع العمل الذى سأقوم به ؟.

قال صباح الدين: إنه سهل جداً. ستأتى معنا – ليس إلا... جرب بعض المرات، إذا أعجبك العمل بإمكانك أن تستمر.

– ما علاقة الطول والعرض بعملكم هذا ؟.

– له علاقة كبيرة... أنا شخصياً قصير القامة، وزميلى ضعيف البنية والمكان الذى سنذهب إليه يحتاج إلى قامة طويلة وهيئة عريضة وشخصية جميلة. فنحن لا نعطى ثقتنا بسهولة للآخرين ولكن أنت ما شاء الله بهذا الطول والعرض والهيئة لا يشك بك أكثر الناس ظناً فمنذ وقت طويل ونحن نبحث عن شبيه لك.

– كنت مفلساً لدرجة أننى لم أفكر فى نوع العمل غير أننى سألت:

– كم سيكون راتبى الشهرى.

– ليس راتباً شهرياً ففى الأيام التى نعمل فيها نتقاسم آلافاً عدة، فهمت أنه عمل تجارى..

بعد ذلك سألنى الرجل القادم:

– هل لديك معلومات عن الاشتراكية ؟.

– بحق الله اتركوا هذه الاشتراكية. إننى أخاف من ذكرها

وأعتقد أنه ليس عيباً أن يخاف المرء من شئ.

– آ آ آ ... إنه عظيم جداً، لقد أصبنا الهدف.

– أتمنى ألا يكون عملكم هذا يغضب الحكومة فى شئ.

– لا ... لا أبداً، ولماذا نغضب الحكومة. يا عزيز كى تربح المال – فى بلدنا – يجب أن تنظر إلى أنف الحكومة تماماً وتمشى.

– أرجو أن توضحا لى نوع العمل الذى تعملان به.

قال الرجل الذى لا أعرف اسمه: إن الأغنياء جميعهم يخافون من الاشتراكية.

قال له: وهل لهذا الأمر غنى أو فقير، يخافون من الاشتراكية.

– صحيح من أجل هذا نقوم بالعمل... إنهم يرتعدون من الخوف والهلع تماماً كما تخاف الحيوانات من الزلزال فمن المعروف أنها تحس بالزلزال قبل وقوعه بوقت قصير ولهذا تراها تضطرب وتختلط مع بعضها، الخيول تصهل، والحمير تنهق، والكلاب تنبح، وأغنياؤنا يتحسسون من هذه الكلمة.

قال صباح الدين: إن مصيبة الاشتراكية كالزلزال والطوفان، إنها آفة والله يحفظنا منها، طبعاً إنها ليست آفة طبيعية إنها آفة اجتماعية.

أخرج الرجل من جيبه دفتراً صغيراً وراح يقرأ بعض الأسماء... انتقى أسماء ستة أشخاص... كلهم من رجال الأعمال المشهورين ثم قال متسائلاً:

– إلى أى منهم سنذهب هذا اليوم ؟

أوضح صباح الدين أن أحدهم موجود فى أوروبا والآخر فى أنقرة بقيت أربعة أسماء... توصل الاثنان إلى قرار للذهاب إلى أحدهم، خرجنا من المقهى وتوجهنا إلى مكتب البريد، اتصل الرجل بأحدهم وكان يتكلم باحترام بالغ حيث طلب منه موعداً لأمر مهم جداً واتفقا على اللقاء بعد يومين ثم طلب رقم رجل أعمال آخر واستطاع أن يتحدث مع سكرتيره، سجل السكرتير اسمه على أن يتحدث مع معلمه فيما بعد والرجل الثالث الذى اتصل به أعطاه موعداً بعد ساعة وفى نفس الموعد كنا فى مكتبه، كان المكتب واسعاً جداً كأنه خان كبير.

كان الرجلان قد أوصيانى بما يجب على أن أفعله بأن أبدو أمام الرجل شخصية قوية وأتحدث معه بثقة ودون خوف. إذ يجب أن أجلس على (الكنبة) بالطول والعرض وأضع رجلاً فوق رجل وأهز قدمى بوجه رجل الأعمال يميناً وشمالاً. كنت قلقاً لما سيجرى فى الداخل من مناقشات.

لابد أنه يدبر مقلباً ما، لكننى لم أكن أعرف دورى تماماً.

استقبلنا السكرتير وأخبر رجل الأعمال بقدومنا، دخلنا مكتبه ثمّة رجلان على وشك الخروج، صافحنا الرجل ودعانا للجلوس ثم توجه نحو الرجلين الواقفين وقال لهما: طبعاً طبعاً سندعمكم فى كل المجالات لأنكم تحبون وطنكم بقلوبكم وإمكانياتكم ضد هذه الميكروبات التى تقود الوطن إلى الهلاك.

قدم الشخصان شكرهما لرجل الأعمال وهما يتراجعان ثم خرجا.

جلس رجل الأعمال خلف مكتبه وأسند مرفقيه على زجاج المكتب ويبدو أنه وجدنى لائقاً فتوجه بحديث إلى.

– تفضلوا يا سيدى...

نظرت فى وجه صباح الدين فإذا هو يلحس شفتيه... قال رجل الأعمال: إنى أسمعك يا سيدى.

لا أعرف عمّا سأتحدث وماذا سأقول وفى نفس الوقت الذى جمعت فيه بعضى لأبدأ الكلام وإذا بصباح الدين يقف على قدميه ماداً يده اليمنى إلى الأمام، بدأ الحديث كأنه ممثل قديم وناجح يقدم عرضاً مسرحياً.

– سيدى المحترم.

– أفندم...

– سيدى المحترم.

– افندم.

– سيدى المحترم... كما ترون مصيبة كبيرة على وشك أن تلف بلدنا يوماً بعد يوم.. إنها أمور خطيرة تأتينا من الخارج.

أكمل الرجل كلام صباح الدين قائلاً: تقود البلد إلى هاوية فإنْ لم نأخذ الاحتياطات والتدابير اللازمة... أكمل صباح الدين: نهايتنا ستكون وخيمة إذا لم نتداركها قبل فوات الأوان وكل ما سنفعله لن يعود بفائدة. فأعداء المال والثروة يزدادون يوماً بعد يوم بهجومهم المبرر على القطاع الخاص وبرصدهم للأموال الخاصة يزرعون الحقد والكراهية ضد الأغنياء وهكذا يضخمون الإحساس بالعداوة.

– ويحلّون وحدتنا الوطنية (الجملة التى تظل دون إتمام يكملها الآخر).

– إن نيتهم.

– ضرب الشعب وجعله فى طرفين متناقضين.

– ونيتهم بعد ذلك الوصول إلى مآربهم. وإذا لم نجد الاحتياطات والتدابير اللازمة فإن نهايتنا ستكون وخيمة، مع الأسف يجب أن نعترف بهذه الحقيقة. عند هذه الكلمة وقف زميلنا الثانى بعصبية قائلاً: نعم نحن مجبرون على الاعتراف، لأن رجال أعمالنا وأصحابنا ذوى رؤوس الأموال الكبيرة فى غفلة من أمرهم.. كما تعلمون يا سيدى المحترم.

– هؤلاء الاشتراكيون ينالون الدعم من أعداء هذا الوطن، ولتكونوا على ثقة يا سيدى المحترم... إن مقدار الدعم الذى وصلهم من الخارج مليونان وثلاثمائة واثنان وأربعون ألفاً وسبعمئة واثنان وتسعون دولاراً، مقابل ذلك.

– ماذا نفعل نحن ؟ أبداً نحن نقف فى وجوههم بحبنا الكبير لوطننا وقوة إيماننا دون خوف لماذا ؟ لأننا ندافع عن مبدأ، لأن الدفاع عن مبدأ مهمتنا نحن ولكن.

– يا سيدى يا من تحب الخير، إن أغنياءنا يجب أن يشاركوا فى هذا الصراع.

– يجب ألاّ يتركونا لوحدنا.

– بدأ رجل الأعمال بالحديث، وبدأ مشهد آخر.

– دون أدنى شك، أنتما محقان كثيراً، يجب أن ندعمكم، وهذه

مهمتنا وإلاّ..

– فإن البلد ستكون عرضة للخراب... أعداء النظام هؤلاء.

– لقد دفعوا المركب للغرق بالدعم الذى ينالونه من الخارج وأصبح لهم جرائد ومجلات يصدرونها، هل قرأتم ما كتبته إحدى مجلاتهم فى عددها الأخير يا سيدى "وداعاً للسرقات بعد الآن فلن يستطيع أحد أن يأكل حق هذا الشعب الفقير".

كتبت هذا... ماذا تعنى بذلك ؟ بوضوح.

– إنهم يقصدون رجال أعمالنا المشهورين، إنهم يكتبون ودون خجل عنهم، عن هؤلاء الذين يفتحون مجالات عمل جديدة، ويساعدون على تقدم البلد.

يكتبون عنهم دون خوف أو وجل "النصابون الذين يعيشون على أكتاف الشعب".

طبعاً هذا الكلام واضح، وإلى مَنْ موجّه.

– نعم واضح... موجه لنا.

يجب أن نقاتلهم، الفكر بالفكر يا سيدى ولكن هم يأخذون الملايين ونحن ...

ماذا سنعمل كى نصدر مجلة ؟.

لتعتمدوا أولاً...

أما أنا تركت نفسى بالطول والعرض على الكنبة واضعاً ساقى على الأخرى محركاً قدمى المقابلة للمكتب... أخذت سيجارة من العلبة الموجودة على الطاولة.

جلس رجل الأعمال خلف مكتبه وضغط زراً، وقال للرجل القادم أحضر لنا القهوة.

جلس صديقى، أما رجل الأعمال فكان يتكلم بجدّية وهو يدق بأصابعه على زجاج الطاولة.

– ما هى طبيعة الصراع التى تفكرون القيام به.

– سنحاورهم عن طريق الفكر.

مللت من هذه الجلسة الخرساء، فمن الضرورى أن أتكلم قليلاً قلت: إن الاشتراكيين يقومون بدعايات واسعة ومن أصول الدعاية أنهم يطرقون كل الأبواب، ويفعلون كل شئ، يجب أن نقوم بالدعاية المعاكسة.

قال صباح الدين: سنصدر مجلة تدافع عن مبدأ الرأسمالية وأردفتُ: إن الاشتراكيين بهجومهم على رجال أعمالنا الأعزاء يسقطونهم فى عيون الشعب، يقضون على كل شئ عزيز لنا فى هذا الوطن هزّ زميلنا الضعيف رأسه، كأنه يقول لى: أحسنت حيث قال:

– إنهم أعداء التاريخ، يخربون فى ممتلكاتنا الوطنية الغالية.

– قلت: وأخلاقنا.. نعم إنهم يتلفون أخلاقنا الوطنية يا سيدى قال رجل الأعمال: السادة الذين كانوا هنا حضروا للغاية نفسها يريدون دعماً مادياً لإصدار مجلة وواجب علينا دعمهم... طبعاً.

قال صباح الدين: إن إصدار مجلة فى هذه الأيام ليس سهلاً يا سيدى، ونحن الثلاثة وضعنا نفسنا وأموالنا لهذه القضية، قضية الوطن يا سيدى.

قال رجل الأعمال: أنا أفهم... يجب أن يزداد عدد الذين يقفون أمام هذا الخطر، ليظهروا للشعب الطريق الصحيح، الشعب... الشعب.... الشعب فوق كل الأمور والاعتبارات.

– لإصدار مجلة... لا يفى أقل من خمسين ألف ليرة.

نحن بأمَسّ الحاجة إلى عون رجال أعمالنا الكرماء، لأنه، إذا لم تعطَ لنا هذه المساعدات الصغيرة الآن، فلن تفيدنا غداً بأى شئ، قلت: يجب أن تستيقظ من هذه الغيبوبة.

قال زميلنا الضعيف: ليُخلّدْ كل محب لهذا الوطن، أحد أغنيائنا تكرّم علينا بخمسة آلاف ليرة.

رجل الأعمال: أنا أساعدكم مساعدة صغيرة الحال، ثم أمر مدير حساباته – هاتفياً – بإعطائنا ستة آلاف ليرة.

عندما قمنا لنشكر الرجل وننصرف، دخل المكتب رجل بعصبية شديدة: لمن تُقرع هذه الأجراس يا سيدى ؟.

قال رجل الأعمال مستغرباً: أية أجراس ؟.

صرخ الرجل أجراس الهلاك... أجراس الهلاك... هذه الأجراس تقرع من أجلكم يا سيدى، ومع الأسف لا أحد يسمع.

لقد زاد الاشتراكيين أعمالهم وتحركاتهم، لماذا ؟ لأن الذين يحبون الوطن فى غفلة من أمرهم.

أوصلنا رجل الأعمال إلى الباب مودّعاً، ثم عاد إلى الرجل الذى تركه فى المكتب، أما نحن ركبنا التاكسى وعدنا إلى المقهى المكشوف فى حى الجامع الجديد وهنا تقاسمنا الأموال.

قال صباح الدين للرجل الضعيف: لنلعب دورين من النرد قبل الذهاب إلى (باى أغلو) وبدأنا بلعب النرد، وعندها فقط عرفت اسم شريكنا الثالث الرجل الضعيف نيازى.

قال نيازى: إلى أين سنذهب الليلة ؟.

أجاب صباح الدين: هناك عرض رائع لثلاثة شبّان فى (كرفان سرايا) كان بودّى أن أحركهم، إلا أن نيازى قذف النرد قائلاً: (أنت أيها العضم يا قليل التربية... أيكى بير ...

لأننى ذقت حلاوة المال قلت: إن الوطن يئن تحت الخطر، فجلوسنا ليس صحيحاً يا رفاق.

قال صباح الدين: لقد عملنا ما فيه الكفاية هذا اليوم – لأنفسنا علينا حق – بعد يومين لنا موعد آخر.

لمست المال الموجود فى جيب سترتى من الخارج، كنت لا أصدق ذلك، حلم جميل جداً، كنت مدهوشاً كيف يحدث أن يربح الإنسان هذا المبلغ الوفير بعمل صغير كهذا.

فى تلك الليلة بقينا معاً، نلهو ونمرح فى أماكن المرح واللهو، غير أنى لم أدفع قرشاً واحداً من جيبى، افترقنا – على أمل – أن نلتقى بعد يومين فى ذلك المقهى. لم أعد أذكر كيف وصلت إلى البيت بسبب السكر الشديد، بعد يومين ذهبت مبكراً إلى المقهى الكائن خلف الجامع الجديد، زملائى لم يحضروا بعد، بعد نصف ساعة حضر صباح الدين.

قلت له إن عقلى لا يستوعب هذا العمل.

– أى عمل تقصد ؟.

قلت: إن هؤلاء الرجال أذكياء جداً، وإلاّ لما أصبحوا أغنياء هكذا.

– طبيعى جداً.

– إذن كيف أعطانا الرجل هذه الآلاف الستة قبل أن نقول شيئاً.

– إنهم خائفون جداً... بمجرد أن تذكر كلمة الاشتراكية أمامهم يصابون بالهلع، وكل من يقول لهم سأقاوم الاشتراكية يرشّون عليه المال رشاً، ولسنا وحدنا فى هذا العمل هناك أكثر من عشر مجموعات تعمل وتعيش على طريقتنا هذه، لكن مجموعتنا هى الأقدم فى هذا المجال. نحن أوجدناها مع شريكنا نيازى. إنه شاب ذكى جداً ومثقف كبير يتقن كافة العلوم، لقد جمع من الأغنياء أكثر من ثلاثين ألف ليرة وذهب إلى أوروبا ليقوم بأبحاث نظرية وعلمية وقد عاد منذ فترة قصيرة.

– وما هى هذه الأبحاث ؟.

– ذهب يفتش ويبحث عن جذور الاشتراكية، كيف جاءت ؟ كيف انتشرت ؟ حيث ألقى عدة محاضرات عنها بعد عودته.

وهو الآن يقوم بتأليف كتاب سينشره قريباً، إلا أنه لم يستطع جمع المال اللازم لذلك، ولهذا السبب أغنياؤنا خائفون من انتشار الاشتراكية.

– مِن ماذا.

– كيف من ماذا ؟... هؤلاء الاشتراكيون يقولون: لا مكان للاستغلال، لا مكان للاستعمار، ويقولون أيضاً: لا حياة لأحد على

كتف الغير... ماذا يقولون أيضاً يا سيدى ؟... يقولون العدالة الاجتماعية... إنهم يزدادون يوماً بعد يوم.

– متى سنصدر تلك المجلة ؟.

– أية مجلة ؟.

– ألمْ نأخذ المال من أجل ذلك.

عندها ضحك صباح الدين وقال: أمجنون أنت ؟ ليس هناك شئ من هذا القبيل.

– وإذا ادعى أولئك الذى يدعون لنا – إنه نصب واحتيال ؟.

– لا يا روحى – لا أحد يريد أن يدّعى – يعرفون كل شئ ومع ذلك فهم يدفعون... لا أحد يعلم ماذا سيحصل... وماذا يعنى لو دفعوا ألوفاً فى كل شهر لهذه الغاية، ألم تقل أنهم أذكياء طبيعى جداً أن يكونوا أذكياء.

جاء نيازى وركبنا التاكسى وذهبنا إلى رجل الأعمال الذى يملك نصف أسهم المصرف الذى دخلناه.

بمراسيم طويلة وصعبة استطعنا الوصول إلى رجل الأعمال.

أخرج نيازى من محفظته عدداً من الجرائد والمجلات، وقرأ لرجل الأعمال بعض المقاطع منها، وأعطاه البقية.

قال رجل الأعمال: أنا أيضاً أتابع هذه الجرائد والمجلات وأشكر لكم اهتمامكم وملاحظاتكم الدقيقة.

– ولكن يا سيدى خطر الاشتراكية بدأ يطرق أبوابنا – ولتكونوا على بيّنة – إننا مقصرون جداً فى مقاومتها.

وبسرعة أردفتُ: يجب قطع رأس الأفعى وهى صغيرة.

قال رجل الأعمال: ونحن أيضاً لم نجلس دون عمل.. إننا نعمل بجد ولنا منشورات حول هذا الموضوع.

قال نيازى: نعرف ذلك يا سيدى... لكن هذا لا يكفى فهم يتغلغلون داخل الشعب ويحركونه، وننتظر الدولة لتقوم بكل شئ. إن قوات الأمن لا تستطيع السيطرة عليهم – لأن عملهم فى غاية الدقة والنظام.

قال رجل الأعمال: هل تطلبون دعماً لمجلتكم، أم ستصدرون مجلة جديدة.

بادر صباح الدين بالكلام، نريد أن ننشر كتباً ونقيم جبهة عريضة ضدهم سنكشف هؤلاء الاشتراكيين أمام الشعب وسنريهم وجوههم الحقيقية، لأنهم يريدون إفقار الأغنياء وجعل الفقراء أشد فقراً وبؤساً، إن منشوراتكم عملية جدّية أما نحن سننشر كتباً من أجل الشعب.

– إنما تفعلون الخير... يجب أن يعرف الشعب أنهم أعداء الحرية نعم هذا الشعب يجب أن يتأكد بأن الغنى لن يأتيه إلا من الحرية، وبها يصل إلى أهدافه.

– قلت: أنتم محقون جداً... محقون... يحطمون آمال هذا الشعب فى أن يكون غنياً.

قال رجل الأعمال: يكون العمل مثمراً عندما تتنوع أشكال المقاومة، فى الأسبوع الماضى جاءنى شبان وطلبوا العون لإنشاء

جمعية مناهضة للاشتراكية.

– ولكن يا سيدى.. ومع الأسف الجديد لا أحد يقدم لنا العون، إن رجال أعمالنا لا يريدون مشاهدة الخطر المحدق أمام عيونهم بأى شكل من الأشكال.

بعد كل هذه المناقشات الحارة الطويلة أخذنا ثلاثة آلاف ليرة فقط أثناء خروجنا من المكتب تمتم نيازى:

– يا مخلوق يا حقير أنت يا ... بهذه الحالة سيقطع الاشتراكيون أنفاسكم تكلم صباح الدين: فى الماضى كانوا يعطون أكثر، أما الآن فقد كثر الطالبون للمال.

– يا أخى يعنى ماذا سيفعلون ؟..

اشتغلنا ما يقارب الشهر هكذا... كما أوضحت لكم، كل يوم أو يومين كنّا نذهب إلى أحد رجال الأعمال ونقول: إما سنصدر مجلة أو سننشئ جمعية أو سنفتح مركزاً ونأخذ بضعة آلاف من الليرات. فى أحد الأيام ذهبنا إلى أحد الأغنياء الكبار، لنطلب مالاً بحجة مقاومة الاشتراكية.

تكلم الثرى: الجميع يأتون ويقولون سنقاوم الفكر بالفكر – ما هذا الفكر الذى يتكلمون عنه ؟ لقد أصبحوا كالثيران الهائمة أين الفكر منهم ؟ إذ كانوا لا يقرّون بالدين والله والعقيدة، فما معنى مجابهتهم الفكرية هذه ؟ أعداء الحرية هؤلاء.

قلت: أنت محقّ يا سيدى أنا معكم فى هذا الرأى أيضاً، ما معنى مجابهتهم بالفكر، هؤلاء الذين يتربصون على ثروات الوطن، إنهم

عديمو الأخلاق فقال رجل الأعمال – الذى أعجبه كلامى – إن المال الذى نملكه كاد أن ينفذ وكل ذلك (من تحت رأس أعداء المال هؤلاء) لقد أنشأنا جمعية تضم الشبان والأصدقاء لمجابهتهم، لكن الجمعية لا تكفى، مثلاً – كنت على وشك أن أفتتح مصنعاً كبيراً – باب رزق يعنى – لكنى لشدة خوفى من هؤلاء الاشتراكيين أرجأت هذا الموضوع يا ترى لمن يعود ضرر هذه العملية ؟.

– للوطن يا سيدى.

– طبيعى جداً... لا لن أقوم بهذا المشروع كيلا يأخذوه منّى فى نهاية الأمر.

يجب أن نقف أمامهم بطريقة أخرى، لقد جعلوا من هذا البلد الجميل والنظيف بؤرة للفساد والتعفن بعد أن فرقوا الشعب، أينما تذهب لا تسمع سوى الاشتراكية.

يا ناس هل كانت الاشتراكية موجودة ؟. عندما كان آباؤنا الأوائل يركبون الخيول ويتبارزون فى القارات الثلاث.

– لقد قلتم الحق يا سيدى.

– لقد أفهمونا فى الجمعية بأن الاشتراكية موضة من القرن الثامن عشر والموضة لا تصلنا إلا متأخرة، هذا ما يجب أن يفهمه الشعب.

– نعم يا سيدى... لهم أذرع طويلة فى كل مكان.

– صحيح إنهم يدخلون من كل الثقوب... هل تصدقون أن زوج ابنتى الوحيدة اشتراكى، لم أعلم بذلك إلا فى المدة الأخيرة، سأفرقهما. لا أريد فى عائلتى بشر لا ناموس لهم ولا أخلاق، إن

كرامتى أصبحت لا تساوى شيئاً.

بقينا نستمع إلى ذلك الرجل الثرثار – أكثر من ساعتين – من أجل ألفى ليرة.

فى أحد الأيام قام نيازى: إلى هنا وبس سنترك هذا العمل ؟.

– لماذا ؟.

– ألم تسمع ما يقولون ؟ إنهم يتغيرون يوماً بعد يوم وفى الوقت نفسه يضيّقون من فتحات أكياسهم.

كان نيازى محقاً فى كلامه، فالرجال الذين كنّا نذهب إليهم لطلب العون والمساعدة كانوا يقولون مثل هذا الكلام: الاشتراكية ليست خطرة لهذه الدرجة، أنا أيضاً اشتراكى ولكن بنسبة ثلاثين بالمئة، لكل شئ نهاية يا سيدى. إن شبابنا قد زاد ثقلهم علينا.

قال نيازى للرجل: أنا أيضاً اشتراكى إلى حد ما، وكما تفضلتم إن للاشتراكية حدود أيضاً، الواحد منّا يستطيع أن يكون اشتراكياً بنسبة عشرين أو ثلاثين حتى أربعين بالمئة لكل شئ حدود.

كنا نمرّ على الرجال الذين مررنا عليهم فى السابق، وقد أصبحوا اشتراكيين إلى حد ما – وكلما ازدادت نسبة اشتراكيتهم قلّتْ مساعدتهم وصغرت، آخر رجل أعمال ذهبنا إليه قال: أنا اشتراكى بنسبة ستين بالمئة. بعدها قال لنا نيازى:

– رفاق لقد وصلنا إلى نهاية عملنا.

فوصول نسبة الاشتراكية عند هؤلاء إلى ستين بالمئة يعنى أن عملنا قد انتهى.

سألته لماذا ؟.

– لأن رجال الأعمال هكذا.... يريدون شراء كل المستندات ليكونوا أصحاب الشركة، وكما ترون نسبة اشتراكيتهم تزداد يوماً بعد يوم، قريباً عندما تصبح مئة بالمئة عندها سنحترق لا حظوا معى لعدم قدرتهم على مقاومة الاشتراكية، أصبحوا اشتراكيين كى يضربوها من تحت.

فى تلك الفترة كنتُ قد جمعت مبلغاً لا بأس به بدأت أحس بحلاوة جمع هذه الأموال بهذه الطريقة السهلة، لهذا قلت وأنا أذكر بطالتى ورداءة عيشى..

– إذن ماذا سنفعل ؟.

قال صباح الدين: سنفكر بعمل جديد، سنوات طويلة مرّت ونحن نعيش هكذا، عشنا عامين كاملين (من وراء) جمعية لبناء المساجد وقبلها من جمعية للعناية بالأطفال اليتامى وجمعية لإحياء المقابر التاريخية وبعد ذلك من جمعية العناية بالعجزة... أعمال كثيرة قمنا بها حسب مزاج نيازى وهواه لأنه يحب المغامرة والمخاطرة.

قلت: ماذا لو ننشئ شركة تجارية.

قال نيازى: لا نستطيع القيام بهذا العمل.

قال صباح الدين: إنها بحاجة إلى رأسمال كبير.

خلال هذه الفترة القصيرة جمعت أكثر من ثلاثين ألف ليرة وقتها كان معى خمس وثلاثون ألف ليرةٍ (لأن الذى يأتى مع الريح يذهب مع الريح) كنت قد افتتحت مكتباً للاستيراد والتصدير بعد أن

سجلت اسمى فى غرفة التجارة، فعلت ذلك وحدى دون أن أشاركهم.

وقبل أن أخطو خطوتى الأولى، وفى الأسبوع الأول لشرائى المكتب جاء نيازى وصباح الدين وشاهدا المكتب حيث قالا: ليكون هذا المكتب خير وسعادة.

قال نيازى: لقد فتحت هذا المكتب فى وقت غير مناسب يا صديقى، قلت: لماذا ؟

– وتقول لماذا ؟! ألا ترى أن الاشتراكية بدأت تأكل الأخضر واليابس.

وتدفع أمامها كل شئ، هؤلاء الرجال أعداء الرأسمال فكلما ازددتَ ثراءً سيزاد عدد أعدائك.

فكرت طويلاً لأن ما قاله صحيح، أحسست بخوف شديد قلت: ألا يحق للإنسان أن يرتاح فى هذا البلد ؟ لقد وضعوا نصب أعينهم مرابح الآخرين.

قال صباح الدين: مع الأسف كما قلت يا صديقى سابقاً.. إنك ستعمل جاهداً – شئت أم أبيت – على تضخيم رأسمالك وعندها – هذا صحيح يا أخى – إن هذه الاشتراكية بلاء علينا – نعم إنها بلاء ... ولهذا نحاول إيقافها عند حدّها – وبما أنك افتتحت هذا المكتب ... نستطيع أن نصدر مجلة فيه، الإدارة تكون هنا، لأننا إذا لم نجابه الاشتراكية أكملت حديثه: سيكون الأمر خطيراً.

ربما سمعت عن مجلة اسمها (استيقظ) كنا قد أصدرناها لعدد واحد فقط وذابت الخمسة والثلاثون ألف ليرة خلال عشرة أيام وضاعت – بشربة ماء –.

نيازى وصباح الدين – على الأقل – أكلا ما جمعاه، أما أنا فلم أحصل على شئ، ولم أصرف قرشاً واحداً من المبلغ الذى جمعته علماً بأن المكتب قد أخذ منى لأننى لم أدفع إيجاره.

فى أحد الأيام وفى المقهى الكائن قرب الجامع الجديد جلسنا.

قال نيازى: هل معكم سجائر يا أولاد.

ردّ صباح الدين: لا سجائر ولا مال.

مددت له علبة سجائرى فأخذ واحدة ثم قال وهو يشفط الدخان إلى أعماقه: إن ساحة عمل جديدة تظهر أمامنا يا أصدقاء.

قال صباح الدين: وما هى ؟.

قال نيازى موجهاً كلامه لى: قل الصدق ألست اشتراكياً.

قلت: طبيعى جداً، أنا اشتراكى – إلى حد ما – ككل الناس.

– وأنت يا صباح الدين ؟.

– لن أكذب، أُعَدُّ اشتراكياً بنسبة سبعين بالمئة.

قال نيازى: حسن ... تعالا معى، سنعمل الآن لصالح الاشتراكية.

دفعت ثمن المشروبات ومشينا، عندما وصلنا إلى حى/ توب كابى/ قال صباح الدين:

– شطارتك لا مثيل لها.

قلت: إنه ولد عاقل.

– إنه يشمّ جيداً ويعرف كيف يعمل بطريقته الخاصة تابعنا طريقنا ثانية لإيجاد عمل آخر نحن الاشتراكيين.

٨- اسندوا، أيها المواطنون

منذ زمن بعيد، فى مكان ما من هذا العالم الكبير بقعر قمقم، كان يوجد بلد تحيط به الجبال من كل ناحية. ماؤه متدفق، وسماؤه بيضاء ساطعة. وكما فى كل مكان من العالم، كان يوجد هنا أيضاً، إضافة للناس، مخلوقات أخرى. من هذه المخلوقات الهوام والحشرات والعناكب السامة. وبما أنها لم تكن، لا أكبر ولا أصغر، من مثيلاتها فى العالم، فإن أحداً لم يعرها اهتماماً.

على رأس هذا البلد كان يوجد شخص يسمونه مدبراً ويختاره مواطنوه. الذين يريدون أن يصبحوا مدبرين أيضاً، كانوا يتقدمون للترشيح، والمنتخبون يختارون الذى كان يعجبهم. والمرشح الذى ينال أصواتاً أكثر كان يصبح مدبراً.

مضى الذى مضى. وبدأت فى هذا البلد، تحدث أشياء غريبة.

الهوام والحشرات السامة بدأت، مع كل يوم يمر، تتكاثر. وعدد الأفاعى والحفاث والحرش والعقارب والعناكب والجراذين كان يتعاظم يوماً بعد يوم. وحجمها يتضخم بلا انقطاع. الأفاعى صارت طويلة وضخمة كما الحور. العناكب تنمو وتنمو كما البيوت. والجراذين التى لم يمضى على ولادتها وقت طويل كانت أكبر من التماسيح. استطالت الحرش كما قطار سياحى وأجنحة الخفافيش صارت كبيرة كما الخيام.

الناس المقدامون، بعقل ناضج ومعارف عميقة، فكروا كثيراً فى أسباب هذه الظاهرة. فكروا وفكروا. إلا أنهم لم يستطيعوا أن يدركوا سبب تكاثر ونمو هذه المخلوقات.

لم ينته الأمر عند هذا الحد. فقد بدأت هذه المخلوقات المؤذية بإزعاج وتسميم الناس.. والأغرب، أن الناس المتسممين والملدوغين لم يموتوا. السم لم يكن قاتلا، بل كان يؤدى بالناس لأن يغفوا ويحلموا أحلاماً جميلة كانت تغشى أدمغتهم. كان يحدث لذة، بحيث أن كل واحد تسمم دمه، كان يعتاد حالا على هذا السم. صار لا يستطيع العيش بدون لدغات الأفاعى والعقارب والعناكب والحرش. ولم يكن ليستطيع تحمل دمه أن لم يكن به جزء من دم الجراذين والخفافيش. كان اللذة التى يحدثها السم بلا حدود. لكنها كانت تبدو غير كافية للذين تعودوا عليها. فهم، كل يوم، كانوا يريدون أكثر فأكثر منها. أولئك، الذين كانوا، فى البداية، يتسممون مرة واحدة فى الأسبوع، بدأوا يفعلون ذلك كل يومين، كل يوم، وفى مرحلة لاحقة عدة مرات

فى اليوم الواحد.

الناس، بقلوب عظيمة وعقول راجحة، الذين كانوا يعرفون أن الدماغ قد خلق واسطة للتفكير، بدأوا يبحثون عن طريقة لحفظ الإنسان من سم الأفاعى. ولكن هؤلاء الذين فكروا على هذا النحو، ووجهوا، فى نفس الوقت، بمعارضة الناس الذى جربوا لذة السم.

وانقسم سكان البلد، نتيجة لذلك، إلى فئتين. وبالطبع كانت توجد، إضافة لهاتين الفئتين فئات أخرى. غير أن السواد الأعظم توزع بين فئتين محددتين: فئة الناس الذى تعودوا على الأفاعى والحفاث والذين يؤكدون أنه جيد ومفيد، وفئة الناس الذين يقولون العكس.

وبما أن الخفافيش والعناكب والعقارب والحرش كانت ما تزال، أكثر فأكثر، تلدغ الناس، فإن عدد المعتادين على السم كان فى ازدياد مع كل يوم يمر. أما غير المعتادين – فعلى نقصان.

مر زمن، والناس الذين كانوا قد تعودوا على السم بدأوا الآن باستعماله بشكل أكبر، إلى حد أن وجوههم وعيونهم وأيديهم وأرجلهم بدأت تغير. أولئك الذين بإرادتهم كانوا يستسلمون للدغات الأفاعى، كان جلدهم، كل يوم وشيئاً فشيئاً يخضر. وبعد زمن تحولوا بالكلية إلى أفاعى. عندها، وكما الأفاعى، بدأو يزحفون على الأرض ويلدغون ويسممون الناس الباقين. قسم آخر، مع مرور الزمن، استدقت وطالت أصابعهم وأظافرهم وأيديهم وأرجلهم. ونمت لهم أيد وأرجل جديدة. ثم تحولوا، فى النهاية، إلى عناكب كبيرة انقضَّت، بعد ذلك، على ناس آخرين. هؤلاء الناس المعديين، بتأثير

السم المنحل فى دمهم، بدأوا بالتحول إلى أفاعى وحفاث وخفافيش وديدان.

أما الآخرون، فقد ثبتوا وأصروا ولم يتخلوا عن جوهرهم الإنسانى. وفى كل مكان ملائم، كانوا يصرخون بكل ما أوتوا من قوة.

– أيه المواطنون، حافظوا على خاصيتكم الإنسانية ولا تتحولوا إلى عقارب وعناكب !.

إلا أن دعواتهم ذهبت هباء. وعلى العكس، فإن المتسممين الذين كان عددهم فى ازدياد، تصدوا لهؤلاء بقولهم:

– خونة ! قذرون !

الناس الذين حافظوا على شكلهم الإنسانى أصبحوا قلة قليلة، إلى حد أنهم بدأوا يخافون من اندثار الجنس البشرى فى ذاك البلد.

عندما حان وقت انتخاب مدبر. فإن هذا المنصب شغل من ذاك الذى أراده الناس المتحولون إلى أفاع وحفاث وعناكب وخفافيش.

فى هذا البلد، كان يوجد أيضاً ناس متعلمون بدأوا يفكرون فى الذى حدث ويبحثون فى طريقة لحفظ مواطنيهم من الشقاء. كل متعلم اقترح مخرجاً يتوافق ومفاهيمه. واحد، على سبيل المثال، قال:

– أولئك الذى تعودوا على السم وتحولوا إلى هوام وعناكب، لم يعد بإمكانهم أن يدخلوا فى حساب البشر. فليس عندهم، لا هيئة البشر، ولا تفكيرهم، لهذا لا يجب أن يشاركوا فى انتخاب المدبر.

ولكن، رغم ذلك، فإن الذين لم يعودوا يتمتعون بخاصية إنسانية، إنما تحدروا من أصل بشرى. وأولادهم مازالوا يولدون

بشراً، وإذا لم يفسد السم دمهم، فإنهم كانوا يبقون هكذا.

بعض المتعلمين فى هذا البلد اقترحوا:

– لكى نبقى بشراً، يجب أن نأكل بالشوك.

كثيرون اقترحوا أن يخرجوا ببناطيل مكوية أو أن تحلق الذقون يومياً. ولكن كل هذا لم يكن كافياً للمحافظة على الناس. عندها قرر الناس المتعلمون:

– فلنر الوضع فى البلدان الأخرى. وما إذا كان فيها ناس يتغير نوعهم وشكلهم ووجوههم وتركيبهم. وإذا كان يوجد، فماذا يفعلون. لنذهب ونرى كيف يتلافون هذه البلية العظيمة.

– قرروا ومضوا إلى البلدان الأخرى وأكبوا على متابعة الناس فيها. ثم عادوا إلى بيوتهم لكى يطبقوا ذاك الذى رأوه وتعلموه من أجل مساعدة مواطنيهم.

وكما من قبل، كذلك الآن، فقد قدم كل واحد منهم اقتراحاً حسب مفاهيمه الخاصة. أحدهم قال:

– لنعمل نوافذ للبيوت.

آخر:

– لنأت بنماذج بشرية من البلدان الأخرى.

ثالث:

– لنرسل أتباعنا إلى البلدان الأخرى ليروا الناس فيها.

كان يوجد أيضاً من اقترح أن يقفز ثلاث مرات يومياً وأن ينام فى السرير على جهته اليسرى. واحد، فقط، خرج من بينهم ذكياً:

– اسمعوا – قال – أنا فهمت لماذا ازداد الهوام والعناكب. لقد تعلمته إذ درست الحياة فى البلدان الأخرى. عندما تطلع ريح تساعد على نمو وتكاثر الهوام والعناكب. وكل الأمر ينحصر فى أن نمنع هذه الريح. وهذه الريح تأتى من الشرق. لقد تبين لى أن فى البلدان الواقعة على سفح الجبال، حيث تنعدم الريح الشرقية، لا يحصل الذى حصل عندنا. فلنجمع العقل فى الرأس. وإلى حين لا ينتهى بعد كل شئ، فلنسد الطريق على المجرى الهوائى من الشرق. وفى حالة مضادة فإننا كنا سوف نضيع ونتحول إلى أفاعى وحفاث.

البعض اعتقد. والبعض الآخر لم يعتقد فى هذه الكلمات. كما وجد من قد سخر فى الحال. ولكن أولئك الذين صدقوا، جمعوا قواهم للعمل وبدأ الصراع ضد الهوام والعناكب والجراذين والخفافيش السامة. كانت معركة الحياة والموت هذه، جد دموية، فالمدبر، فى ذلك الوقت، كان من الأكثرية. وليحتموا من الأعداء، أحاطوا البلد من كل المنافذ بالأسوار القلاعية. وكان لهذه الأسوار أبواب على كل الجهات فى العالم.

وفى حين كان قسم من الناس يجهد ليغلق الباب الشرقى، كان الآخرون يجهدون ليبقى مفتوحاً. وخلال الوقت كله، كانت فئة تسند الباب المغلق، من الداخل؛ فى حين كانت الفئة الأخرى تضغط من الخارج لتفتحه. وجرى الدم جداول. فى النهاية، أولئك الذين كانوا فى الداخل نجحوا فى إغلاق الباب الشرقى جيداً. أما الآخرون فبقوا خارجاً.

الرجل الذى كان قد قدم هذا الاقتراح وانتصر فى المعركة، صار مدبراً للبلد. قال لمواطنيه:

– انتبهوا لئلا ينفتح الباب الشرقى ولو قليلا. لأنه إذا انفتح، لا يمكن أن ينغلق. فهو هكذا، إذا انشق قليلا فبالإمكان، ولو بعد زمن، أن ينفتح كله.

الرجل الذكى مات. وبعده كان قد اختير، كمدبرين، ناس آخرون.

الآن فى هذا البلد، كما فى البلدان الأخرى، استمرت فى الوجود هوام وحشرات. إلا أنها لم تتكاثر ولم تصل إلى أحجام غير عادية، إذ أن الباب الشرقى كان مغلقاً ولم يكن بإمكان الريح الشرقية النفاذ.

مضى الذى مضى. وفى البلد بدأت فتن وشقاقات بين المرشحين لمنصب المدبر. وفى الحقيقة فإن أحداً من المرشحين لم يكن يتمنى أن يتحول الناس، من جديد، إلى حشرات وعقارب. هم لم يكونوا يريدون.. ولكن كان يجب كسب أصوات. الرجل الذى كان وقتها مدبراً، فكر كثيراً كيف يكسب ثلاثة أصوات أكثر من المرشح الآخر. وفى النهاية قرر:

– سوف أشق الباب قليلا، لثلاثة أصوات. وهكذا صار ولم يسلّم تدبير البلد لأى شخص آخر.

إذ رأوا هذا العمل، فتح المرشحون الآخرون الباب أكثر وبدأوا بإدخال الذين وعدوهم بالتصويت لهم. إلا أنهم لم يتمنوا أن ينفتح الباب على آخره، وأن يدخل كل من كان فى الخارج ولهذا شقوا

الباب لحوالى عشرة أصوات.. مئة.. ألف صوت، إلى حين، فى يوم جميل، انفتح على آخره.

إلا أن المدبرين لم يكونوا يريدون أن يبقى الباب مفتوحاً كله ولهذا أمروا أتباعهم:

– أمسكوا واسندوا من الداخل !

ومدفوعاً من الداخل ومن الخارج، بدأ الباب يدور حول محوره. ومنذ ذلك الوقت، والباب الشرقى لهذا البلد يدور بلا انقطاع. ولكن المدبرين كانوا يستمرون فى الصراخ.

أسندوا، أيها المواطنون، اسندوا !.

٩- قضيت حاجتك يا أخى !

Isiniz Oldu Gayri!

كان سيأتى السياسيون المشهورون وكما كان فى الماضى فإن مجيئهم وعودتهم لا يختلف عن كل مرة فينتهى الأمر بإلقاء كلمة أو كلمتين وهم يطوفون القرى قرية قرية وهم يتجولون فى المراكز مركزا تلو المركز.

كان السياسيون قبل أن يخرجوا إلى هذه الجولة يجتمعون فى مقر الحزب ويتناقشون وذات يوم قال أكثرهم خبرة :

– أيها الاصدقاء إننا نتحدث مع الشعب بنفس الكيفية التى نتحدث بها فيما بيننا فدائما ما نصعد إلى المنصة فى الميادين ونخطب فى الحاضرين ولكن لم نهتم فى أى يوم من الأيام إذا كان الشعب يفهمنا أو لايفهمنا وهذا خطأ فادح فهناك ما يود الشعب أن يسأل عنه ويتعلمه من حزبنا يجب أن نجيب على هذه الأسئلة كلها

سؤالا بعد الآخر يجب أن يتعلم الشعب ماذا سنفعل لو انتقلنا إلى السلطة.

وافق الجميع على وجهة النظر هذه وتقرر ألاّ يصعد خطباء الحزب إلى المنصات ويتحدثون بما يعرفونه بل سيصعدون إلى المنصة ويجيبون على أسئلة الشعب باللغة التى يفهمونها ولكن هذا لا يبدوا بالأمر الهين كما هو واضح من الوهلة الأولى ، فالصعود إلى المنصة والخطابة كيفما اتفق أمر سهل ولكن الأسئلة وإجابة كل سؤال على حدة كان أمرا صعباً فيجب ألا نظن أن القرويين يمكن أن يخدعوا بسهولة فكل منهم يظن نفسه أركان حرب مجرد يسأل عن الشئ ويجلس مسئول الحزب أمامه ويذهب باعتبار الحزب فى تلك المنطقة ، فلهذا السبب سوف تجرى حسابات دقيقة لكل الأسئلة التى من الممكن أن يسألها الشعب فى المناطق التى سيتم التجول بها وبناءا على ذلك فقد تشكلت هيئة حزبية من خمسة خبراء أحدهم يحمل دكتوراه فى الاقتصاد وآخر أستاذ فى القانون وخبير فى المالية ومهندس زراعى عالى القدر وطبيب أكمل دراسته فى أمريكا ، هذه الهيئة ستتجول فى القرى والمراكز فى جولة حزبية ومهما سأل الشعب أو طرحوا من استفسارات ، فإن هذه الهيئة يمكن لكل فرد فيها أن يجيب على أصعب الأسئلة وفقا للائحة الحزب.

قامت تشكيلات الحزب فى كل المناطق بعمل الدعاية اللازمة لمجئ هذه الهيئة وأعلنت أن الخطباء لن يلقوا خطبا كما كان فى الماضى بل سيكون هناك مع الشعب. غضب أهالى منطقة (م) جدا لهذا

الخبر ، فما معنى ألا يكون هناك خُطب ويكون هناك سؤال وجواب وانبرى رئيس مقاطعة (...) متسائلا:

– قل لنرى ماذا سيكون حال الخجل ، يعنى هو الذى سيخترع هذا الأمر كانوا فى الماضى يأتون يصيحون ويتصايحون كان نصفنا يفهم والنصف الآخر لا يفهم ، نصفق ونهتف ويذهبون .. أين الخجل .. من الذى سيتحدث معهم ، وماذا سنسأل ولنفرض أننا سألنا عن شئ فمن الذى يفهم ما يقولونه ومن يستوعب ما يطرحونه ؟

فقال سليم أغا:

– ماعليك مما سوف نسألهم عنه فالكلام سيأتى تلو بعضه المهم ماذا لو سألونا هم عن أى شئ سيكون هنا فى هذا الجمع عدد كبير من أنصار الحزب وسيسقط فى أيدينا ولا نستطيع أن نجيب جوابا ويلم بنا نحن الخجل.

قال الرئيس:

– وجدتها .. وجدتها لا تداخل ولا تدخل فى الحديث هكذا بدون سابق ترتيب ، لا بد أن نحدد من البداية من الذى سيتحدث مع الهيئة القادمة ، إذا ؟ هل هذه فكرة حسنة ؟

فرد الجميع موافقين .....

من سيتحدث لابد وأن يبدوا كأنه واثق فى نفسه ولما لم يتقدم شخص متطوع للحديث وجه الرئيس كلامه إلى عثمان الحلاق قائلا :

– عثمان الثرثار ... لماذا تصمت هكذا ، من الصباح وحتى المساء وأنت تغرد ، هاهو وقتك قد حان.

فرد عثمان الحلاق لا يصح هذا يا أغا ، المقام أولا للكبار

لم يكن أى من الحاضرين يود أن يحمل على عاتقه هذه المهمة فى النهاية وجه الرئيس حديثه إلى صالح آقطار قائلا :

أنت لهذا الأمر ، رجل هذه المهمة يا شاويش صالح:

لوح عطار صالح بذراعيه قائلا : لا أستطيع ، لا أقدر على هذه المهمة وليقم بها نورى أفندى كما أنه قد شكلت هيئة فى مركز الحزب فقد تشكلت هنا أيضا من القرويين هيئة وتم اختيار كل من الشاويش صالح آقطار ونورى أفندى كى يجيبا على أى سؤال يطرح أو يسألون الهيئة عن أى شئ يتضح لهم ، بعدها قال الرئيس ، اسمعوا إلى جيدا يجب ألا تخرجوننا أمام أنصار الحزب الآخرين فالكل سيجتمعون وإذا ما نظرتم إلى الحضور وإذا لم تفهموا أى لفظ مما قيل فلا تتصرفوا كما لو كنتم لا تفهمون بل تحدثوا كما لو كنتم فهمتم تماما وبعد ذلك حاولوا أن تستوعبوا ما تقوله الهيئة ، حوروه ودوروه واشرحوه ثانية للجموع المحتشدة .

فى الصباح التالى كانت الهيئة ستأتى إلى المركز وبالتالى فإن الشاويش صالح ونورى أفندى بدأوا يعدون الأسئلة التى سوف يسألونها فى عقولهم وقد حفظوها واحدا واحدا. فى الساعة العاشرة وصلت أربع سيارات من المحطة إلى المركز (م) قام أنصار الحزب الذين استقبلوا السياسيين الخمس فى المحطة إلى مبنى الحزب قدم الشاى والقهوة ، وقبيل الغداء أرادوا أن يقوموا بحوار فابنرى السياسى أستاذ القانون قائلا :

لما كان هذا التجمهر ممنوعا نود أن نتحدث فقط مع المواطنين فى أى مكان ترونه مناسبا ؟

– لنذهب إلى المقهى

اكتظ المقهى بالحضور ولم يكن هناك موطئ قدم فى حديقة المقهى ، وجاء السياسيون الخمس بوجوههم المبتسمة جلسوا على مقاعد المقهى . فقال الدكتور :

– أيها المواطنين – أنتم تعلمون أن التظاهر والتجمع ممنوع ، ولهذا فإننا بدلا من أن نصعد إلى المنصة ونخطب الخطب فإننا وجدنا أنه من المناسب أن نتحاور هنا ، يمكن أن تسألونا عن كل ما يعن لكم ونحن سنحاول أن نجيب على كل أسئلتكم.

كان المكتظون فى القهوة قد سعدوا جدا بهذه الكلمات الجميلة فقال الحلاق عثمان إلى رئيس الحزب فى المقاطعة:

– بالله عليك يا آغا ليس الأمر كما صورته لنا ، لقد أرعبتنا ، هاهم مثلنا يتحدثون كما نتحدث ونفهم نحن ما يقولونه فرد عليه الرئيس قائلا :

– اصبر .. انتظر .. لا تتعجل ، فهم لم يتحدث أى منهم فى السياسة بعد ، ما عليك إلا أن تنتظر حتى ينحدر الكلام إلى السياسة عندئذ سنرى إن كنا سنفهم ما يقولونه أم لا

نهض الشاويش صالح آقطار واقفا وقال :

– لو سمحتم لى سوف أسأل عن شئ لنفرض أنكم توليتم السلطة فماذا ستفعلون ؟

نظر السياسيون إلى بعضهم البعض ولأنهم كانوا قد توقعوا أنهم سيسألون مثل هذا السؤال فقد كان الرد جاهز.

بدأ الحزبى أستاذ القانون الحديث قائلا:

– أود أن أعرض عليكم قبل كل شئ ما يلى ، إن المؤسسات السياسية والاجتماعية سيتم تطويرها وفقا للنموذج الديموقراطى وسيتم إعداد دستور يتواءم مع النموذج الغربى المعتمد على الفصل بين السلطات ونحن نود أن نؤسس محكمة دستورية من المجلس الثانى مع إجراء حسابات معتمدة على الأسس الإيجابية وإن حزبنا الذى يسعى بكل قواه أن يخلق صدى موازٍ لقواته الفعالة فى الحزب وفى كل السياسية ، فإننا نود أيضا أن نعلن أننا من مؤيدى الائتلاف الذى يمكن أن يسيطر على الأمور بالتعاون مع السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية ، وأن برنامجنا الحزبى يركز على كل الوسائل التى تضمن تنفيذ ذلك ، فقال الشاويش صالح آقطار :

– جميل ولكن ماذا سيحدث فى عملية حصادنا للأرز ؟

– أصغى كل من كان فى القهوة ، فلقد تم السئوال عن أهم مشكلة فى المركز كله فإذا ما تولى هذا الحزب السلطة فماذا سيفعل فى عملية ضم الأرز ؟

ولما كان هذا السؤال يخص دكتور الاقتصاد فقد أخذ هو الكلمة وقال:

– سوف أوضح لكم هذه المسألة بشكل علمى غاية فى الوضوح ، فاقتصاد الوفرة المتواءم مع الضرورة السياسية يوضح ذلك والجدية

فى علاقتنا مع العالم الخارجى بعيدة عن الواقعية والتفاءلية ونموذج على هذا فصادرتنا فى هذه السنة لم تتجاوز مليار ومئتى مليون دولار ، بينما كانت الصادرات فى ١٩٥٣م تتجاوز ٩٢ مليون دولارشهريا وعلى هذا الأساس فلابد أنكم تدركون أننا لم نتمكن من تعديل أى شئ من ديوننا الخارجية أو تجميدها.

ركز رئيس المقاطعة ناظريه على عينى الشاويش صالح آقطار ..وكأنه يسأله فقال الشاويش صالح أقطار... نفهم وندرك ذلك وهل لا ندرك مثل هذه الأمور أو أننا لا نستوعبها فقال دكتور الاقتصاد :أظن أننى قد أوضحت الموقف بالدرجة الكافية ، وأننى قد أضأت الطريق أمام مواطنينا بهذا الصدد.

تدخل نورى أفندى فى الحديث واتجه بحديثه إلى الجموع المحتشدة قائلا :

– يعنى أيها المواطنون إن السيد المحترم يريد أن يقول لكم إن كل أموركم ستكون جيدة ومشاكلكم ستحل وسيكون هناك أرز وكل شئ.

تابع الشاويش صالح حديثه قائلا : بقى شئ واحد لم أفهمه ، ولو سمحتم لى فسأسأل عنه أيضا ، فرد عليه السياسى الطيب قائلا:

– طبعا ستسأل ، إننا قد جئنا إلى هنا لكى نجيب على أسئلتكم ونجد حلولا لمتاعبكم ولكى نشرح لائحة حزبنا ، تدخل نورى أفندى قائلا:

– ما عليكم من هذا أو ذاك ، ما أود أن أعرفه هل ستبنى هنا مدرسة إعدادية أم لا ، ستبنى أولا تبنى ؟

فرد السياسى :

– سأشرح لكم ذلك أيضا ، فلكى تتحقق الديمقراطية البرلمانية بشكل مثالى فيجب أن لا ينسى العنصر الثقافى فى أى وقت من الأوقات ، فتومس هيدلى ، أحد الفلاسفة "الأنجلوساكسون" يقول:

– "لكى يتم التواءم بين السياسة والإجتماع ، ويتم التعاون فى أحلك الأزمات ، وفى أصعب المحن فيجب أن لا نفسد التعاون بين المنظمات الحكومية وبناءا عليه وكما قال المجاهد ، فيجب تنظيم العلاقة بين المؤسسات التى تعمل داخل البلاد وأن المؤسسات العلمية يجب أن تحتل الريادة وأن تكون فى موقع متقدم ومن الواضح أيها المواطنون أنكم تدركون أنه لو كانت هناك أى أسئلة أخرى ، فإننا نرجوكم أن لا تتحرجوا من السؤال عنها . فاسألوا عن كل شئ .

التفت نورى أفندى إلى القرويين قائلا:

– فهمتم ، أليس كذلك ها هى مشكلة أخرى من مشاكلكم قد حلت ، إن السيد الفاضل يريد أن يقول إنهم سيشيدون بدلا من المدرسة الإعدادية الواحدة ستقام عدة مدارس ، بل وستكون هناك مدارس ثانوية أيضا ، تابع الشاويش صالح الحديث قائلا :

لا تؤاخذونا فقد سألنا كثيرا ولكن بقيت مسألة واحدة ، ماذا سيحدث فى مشكلة الدخان ؟

فأجاب الخبير المالى قائلا :

– – لأشرح لكم إذا ما تم إزالة النظام الليبرالى الحر تماما فإنه من الصعب السيطرة على التجارة الحرة ولابد أن ينزوى النصيب الفردى فى نظام التجارة الخارجية وهذا ما ينعكس بدوره على ميزان المدفوعات الداخلى، وهذا التضخم النقدى لابد وأن يترتب عليه مناخ اقتصادى متدهور وإذا ما وضعنا التضخم فى الحسابات أو السحوبات النقدية والتصرفات المالية ، لأمكن تصور الأزمات النقدية التى يمكن أن تترتب على ذلك ، وأظن أننى بهذا الشكل المبسط ، أكون قد أوضحت لكم الإجابة الشافية عن السؤال الذى سألتموه ، وأظن أنه لم تعد هناك نقاط صعبة على الفهم فأجاب الشاويش صالح.

– مفهوم سلم فوك.

شرح نورى أفندى ما فهمه إلى القرويين قائلا :

– إن السيد المحترم خبيرنا العالمى يود أن يقول إن كل أموركم ستحل ، وإن أسعار دخانكم ستزداد ولكن أسعار الأسمنت ومسامير الحدوة ستنخفض ، سأل دكتور الاقتصاد قائلا :

– هل هناك أسئلة اخرى أو هناك ماتودون أن تعرفوه. هل هناك أى طلبات تودون عرضها ، فأجاب الشاويش صالح قائلا :

– سلمتم يا سادة ، ولم يعد هناك ما يمكن أن نسأله ، إلا أن المهندس الزراعى تدخل قائلا:

– أود أن أعرض عليكم ما يلى ... لأنكم لم تسألوا عنه ، ففى المؤتمر العالمى الذى نظمته جامعة برينستون بالاشتراك مع المعهد

الزراعى العالى حول آفاق التعاون الدولى فى العلاقات الزراعية اتضح أن هناك عوامل إيجابية وعوامل سلبية فى العلاقة التنموية بين المدخلات الزراعية والناتج الزراعى ، وقد جاء فى التقرير أن الشخصية الألمانية كانت هى المسيطرة على وجهة النظر التى أثيرت فى هذا المؤتمر الدولى ، وأن الفكر الالمانى يعتمد على معادلة الربط بين الأجور والناتج المتحصل وأنه لابد أن يكون هناك حفاظ على الناتج لكى لا تتدهور الأجور ، وأنكم قد فهمتم أيضا من هذا الشرح المبسط العلاقة بين الأسعار والأجور.

التفت نورى أفندى إلى القرويين مخاطبا :

– لاشك أنكم أدركتم هذا ، إن السيد المحترم يود أن يقول لكم إن طريق السكة الحديد سوف يمتد من المحطة القائمة إلى المركز ، وأن هذا الأمر قد انتهى واتخذ فيه قرار ، هل فهمتم أيها .

هبت عاصفة من التصفيق وحمل السياسيون على الأكتاف ، ولم ينتظروا تناول الطعام لأنهم سيتوجهون إلى مركز آخر ، ركبوا سياراتهم ، ورفع المواطنون السيارات إلى مسافة ما ، ثم انطلقت السيارات وسط هتافات المواطنين ، ورويدا رويدا اختفت السيارات عن الأنظار وتوارت وخفت الهتافات.

١٠- نَصْعَد إلى القمر

لا يمكن أن يكون كل شئ وقفاً على أمريكا.. لابد أن يكون لدينا نحن أيضاً.. نقرأ فى الجرائد.. فى أمريكا "جمعية أصحاب الأصابع الستة". و.."جمعية لابسى الأحذية الأكبر من ٤٧ نمرة" و.."نادى الأزواج الذين يُضْرَبون يومياً من زوجاتهم".. والعديد من مثل هذه الجمعيات والنوادى والنقابات الغريبة.. وما ينقصنا نحن حتى لا نكون مثلهم... وها هى عندنا قد تأسست "نقابة الذاهبين إلى القمر".. هذه النقابة تُناسبنى تماماً... أنا لم أذهب إلى باريس.. أو نيويورك ولا حتى إلى أزمير أو أنقرة... ولم أتمكن من ذلك.. إن أطول رحلاتى كانت بين حى شِيشْلِى وسِيزكَجِى وتمر بالتراموای... وطالما لم أتمكن من السفر إلى أى مكان فلا أقل من أن أُسافر إلى القمر... وأصبحت عضواً فى "نقابة الذين سيذهبون إلى القمر".

رجعت إلى المنزل وفرحة أمل الصعود إلى القمر تغمرنى... على العشاء أكلنا حتى الشبع... وحتى إشعال المدفئة... تغيَّر حالى.. وكأن ما تحت جلدى من لحم وعظم ودم قد سُكِبَ.. امتلئ داخلى بغازات خفيفة وكأنها دخان تِبن... وبدأت فى الطيران كالبالونات الملوَّنة التى انقطع خيطها..

– طِر يا بابا...

ارتفَعت.. ارتفعت... صَعدتُ أولاً فوق أسعار الخشب.. والفحم.. ثم عَلَوت على إيجارات المساكن.. ثم فى النهاية حَلَّقت فوق آفاق السوق السوداء..

إرتفع كيفما تشاء؛
فمكانك ليس هذا المكان..
فالمجئ إلى الدنيا
ليس فضلاً يعلو الآفاق...

وبعد أن ارتفعت وتخطيت عنان السماء.. شعرت وكأن الغازات التى بداخلى بدأت تتسرب من الثقوب والخروم التى فى جسدى... مصيبة... بعد أن وصلت إلى هذا الارتفاع..!! كنتُ كالمخمور الذى سقط من على كرسى السلطة والإقبال... ولن يكون سعيداً إذا ما اصطدمت مؤخرته بالأرض وأفاق من سُكْرِه... لقد أصبحت مُخَرَّماً.. وغطت كل جسدى ثقوب الدَّيْن.. وهموم الصرف ومطالب العَيْش.. بحيث أننى كُلَّما أغلقت عيباً.. انفتح ثُقباً.. ينفتح.. حتى اتسع الخرق..

– فبدأت فى الصراخ طالباً النجدة.. الحقونى... !

– ذُمَّ على أسنانك.. فلم تقطع من طريقك نحو القمر إلاَّ القليل..

– من السَّهل أن أَذُم أسنانى... ولكن الخرق يتسع.. الثقوب كَبُرَت.. صعب الترقيع.. ليساعدنى بعضكم وإلاَّ سأسقط... !

– هنا دولة القمر... ها نحن نرسل إليك جوالين من دخان قطار مؤسسة المساعدات..

ارتفعت فجأة بهذه المساعدة.. وجدت نفسى فى القمر.. إلتف حولى جمع غفير من أُناس يُشْبِهُوننا تماماً:

– أهلاً وسهلاً..

– أهلاً بكم...

أَرْكَبُونى شيئاً عجيباً لم أر مثله قط.. وبين طَرْفَة عين وانفتاحها وجدت نفسى داخل مدينة كبيرة.. فوقها مبانى شاهقة.. غُصْنا فى بناء ضخم مكتوب عليه "جامعة القمر".. وكلما أردتُ أنا الكلام كان رجال القمر يصدُّوننى مرددين:

– هنا ليست دنياكم... ليس لدينا وقت نُضَيِّعَه فى الكلام..

دخلنا مدرجاً دراسياً؛ اتِّسَاعه كاتِّساع الاستاد الرياضى.. مكتظ كما هو الحال فى مسابقاتنا الكروية... ولكن الفرق أنهم لا يصيحون أو يهتفون، بل كانوا يجلسون فى صمت وسكينة... أصعدونى إلى المنصَّة.. وعلى الفور بدأ البروفوسور فى الحديث إلى هؤلاء الذين كانوا يصغون له باهتمام.

– ها أنتم ترون واحداً من حيوانات الدنيا الذين تحدثت لكم

عنهم فى المحاضرات السابقة... ! .... وها أنذا أُكرر على مسامعكم مرة أخرى كيفية إنشاء الدنيا. إن حيوانات الدنيا يعتقدون أن القمر قد انشق وانفصل من عوالمهم؛ ... والحقيقة عكس ذلك تماماً.. فقبل خمسين ألف سنة ضوئية من الآن.. كان قد تكاثر على سطح القمر الآلاف والآلاف من المجانين.. وأصحاب السوابق.. والمخرفين.. اكتظت المشافى التى افتتحناها.. فاض الكيل... وكان أصحاب السوابق هؤلاء والصابئون يزيدون الأمور قباحة وسوءاً يوماً بعد يوم... وأسوأ ما فى الأمر.. أنهم كانوا يفسدون أخلاق أطفالنا وأولادنا.. وتمكنوا من إضلال حتى كبار العقلاء فينا.. وكانوا يُخرجونهم عن أطوارهم.. ومهما تم القبض عليهم.. أو تم إغلاق محافلهم.. فلم نتمكن منهم. أُلقى بهم على قمم الجبال.. ووسط البيداء والصحارى.. وتم التحفظ عليهم فى المعسكرات وأماكن الحَجْرِ .. فلم تُجد نفعاً كل هذه الإجراءات.

وأخيراً .. كان لابد من تطهير إنسان القمر من شرورهم.. ولكى يتم التطهر من هؤلاء المجانين والمخرفين وأصحاب السوابق.. فكر أهل الرأى فى القذف بهم فى مكان منفصل.. إلى مكان بعيد... وقذفنا بهم فى أحط بقعة لها علاقة بالقمر.. ألقينا بهم إلى الفراغ.. وصارت هذه (الدنيا). ألقينا بكل المجانين إليها.. يعنى الدنيا هى مشفى.. بيمارستان.. ومنذ ذلك الزمان؛ وقد قطعنا كل الصلات معهم.. تقطعت العلاقات فيما بيننا.. فلكى يعيش المجانين.. فيلزمهم هواء عَفن.. مُسَمم.. وذلك فالدنيا يُحيطها الغلاف الجوى.. والآن..

فإن بنى البشر الذين على سطح الدنيا لا يستطيعون العيش أو الحياة بدون هواء..

فجأة ثار واحد من بين المستمعين الذين كانوا يصغون باهتمام حتى هذه اللحظة.. شَدَّد من قبضته وأخذ يلوح ناحيتى صائحاً..

– ميكروب.. ميكروب

انطلقت الحناجر خلفه بنفس الهتافات.

استمر الأستاذ فى حديثه؛

– بينما كان يتم القذف بهؤلاء المجانين إلى الدنيا التى هى مستشفى وبيمارستان القمر.. اختلط بهم بضع من العقلاء... ومن حين لآخر يُصادف على الدنيا أطفال هؤلاء العقلاء. ولكن مجانين الدنيا ومخرِّبوها.. يزجون بهؤلاء العقلاء من الرجال إلى المَصَحَّات متهمين إياهم بالجنون.. يغلقون عليهم المصَّحات

زاد هياج المستمعين.. كانوا يصيحون؛

– لنشنقه

– لنقطع رقبته...

زاد الهياج.. وتداخلت الأمور فى بعضها البعض، وبغتة هجم الجمع الغفير علىَّ.. والتفت الآيادى حول حَلْقى..

– هير.. هير... هـ...ر

كان آخر نفس يخرج من حنجرتى.. امتدت يدُ إلىَّ.. وهزتنى؛

– بابا... إن شخيرك يعلو..

فتحت عينى .. فإذا بى قد استغرقت فى النوم أمام المدفئة...

نظرت فيما حولى.. واستنشقت نفساً عميقاً حتى ملأتُ به صدرى؛

وقلت:

– أooوه .. كانت هناك دنيا... !

"١٩٦٧"

١١- خدمة وطنية

Vataji Vazife

اهتز السجن وانتشر الخبر فى كل العنابر والزنزانات

يا أخى لقد قبضوا على إحسان واظلين

– لا تقل هذا

– بشرفى هذا ما حدث

– يا أخى الرجل قد تاب عن كل هذه الأعمال

– إنه منذ فترة طويلة وهو يدير مقهى

– إنه منذ ما يقرب من عشر سنوات لم يعد إلى مثل هذه الأعمال

– لا تصدقه – هذا كذب

– ليس كذبا يا صديقى لقد أتوا به من المحكمة مع بريد المساء، رأيته من تحت الباب رأيته وهو يدخل الحمام حتى أنهم زجوا به إلى "الحجر الصحى"

– انظر يا أخى انظر إن الرجل قد نسى تماما طريق السجن والسجون، وهم قد قبضوا عليه وأتو به.

– يا أخى من هو إحسان واظلين هذا ؟

– أنتم لا تعرفونه، فلم تكونوا عاصرتموه أنا أعرفه منذ كنت فى زنزانة الصبيان فى حى مهترخانه

– فى ذلك الزمان لم يكن هذا السجن قد بنى

– أنا أعرف كان هناك المهترخانه ، هل تفهم ؟

نحن كنا نقضى العقوبة هناك

– كانت يده خفيفة – سريع – لا يفوقه أحد

– لقد ظل إحسان واظلين خمسة عشر يوما بالحجر الصحى ثم اخذوه من هناك وزجوا به فى إحدى الزنزانات فى الدور الثانى، فكل أصحاب السوابق المسنين يعرفون من هو إحسان واظلين.

– حمدا لله على سلامتك يا أبى إحسان

– مرحبا بك يا إحسان بيه

– أى جرم ارتكبت يا عزيز إحسان ؟

– وزع الشاى على الجميع فى العنبر فما كان من إحسان واظلين إلى أن وضع مائة ليرة على صينية الشاى وطلب دوراً آخر من الشاى المضبوط .

– بدأ إحسان واظلين يقص على الذين التفوا حوله عن أحواله وما كان يقوم به قبل مجيئه، وكان من بين السجناء الذين التفوا حوله نورى بك المحكوم عليه بثمان سنوات وكان يجلس فى مواجهته

واظلين إحسان، إن إحسان واظلين الذى يتجاوز الخمسين من عمره يتحدث إلى الذين التفوا من حوله وهو يعبث بمسبحته وكأن أحدا لا يجلس أمامه وهو يرتدى خفا فى قدمه، ويحكى نورى بك الذى كان يرتدى روبا سأل نورى بك إحسان قائلا:

– كيف حدث هذا يا أخى إحسان ؟

– والله يا سيدى مهما قلت الآن فسيبدوا وكأننى أكذب عليكم ولن تصدقه لأن ما حدث لى وما وقع ، أنا نفسى لا أصدقه فقد إبيض شعرى فى هذا الطريق قبل هذا بسنوات طويلة، هل تفهمنى الآن – ستسخر منى وكأنهم أمسكوا بى من الجامع وآتوا بى إلى هنا ربما يأتى هذا إلى ذهنى، صدقنى إن الوضع أسوأ مما تظن وأغرب مما تتوقع، إننى هنا هذه المرة فى خدمة وطنية.

– لقد ألقوا بى هنا لهذه الخدمة الوطنية . هل تفهم ؟

– لدى مقهى وأديرها على ما يرام هل تفهم ؟ وذات يوم أتى إلى اثنين من المخبرين وقالا لى عليك أن تأتى معنا قليلا إلى المديرية .

– أنا أعرف كل رجال البوليس أما هذين الرجلين المدنيين فمن الجيل الجديد . هل تفهمنى ؟ أنا لا اعرفهم فوجدت أن لا فائدة من المراوغة طبعا ذهبت معه وهناك وجدت ؟ حيدر اللطيف ,هل تذكره الذى كان منذ وقت ذلك الوقت رجل أمن، والآن هو مدير الأمن لم يتغير، فكما هو بخفه ظله ودعابته لقد أطلقنا عليه حيدر اللطيف بالرغم من أنه كان ، كفاك الله شره عنيد وقاسى هل تفهم . وهنالك سألت حيدر بك.

– لقد طلبتنى يا سيدى، فرد علىّ بلطف .

– تفضل بالجلوس يا إحسان، فبمجرد أن قال لى تفضل بالجلوس وأشار إلى المكان، أدركت أن هناك لعبة أخرى، فحيدر اللطيف الذى أعرفه يبدو لطيفا ولكنه حاد كالسيف سليط اللسان.

جلست حيث أشار وقلت :

– سيدى . أنت تعلم أنه انقطعت صلتى بكل هذه الأعمال أنا تبت وأصلح الله من حالى .

وما أن قال لى هناك شيئا أطلبه منك يا إحسان، حتى انتابتنى رجفة فأنا قد أبرئت ذمتى من كل ما كان على مع آخر عملية قمت بها، فكيف يطلب منى شيئا الآن.

لقد فتحت القهوة بنصيبى من العملية الأخرى بعد أن أوفيت بكل ما كان على وقررت التوبة، فتمالكت وقلت :

– سيدى انت تعلم جيداً أنى كنت أعطى كل واحد نصيبه فى كل عمليه أقوم بها، والفضل يرجع لك فى توبتى وقد سحبت نفسى وطهرت يدى وكل الحسابات القديمة قد انتهت بمرور الزمن وأغلقت هذا الباب تماما والآن ماذا تريد منى ؟

وبينما أنا ألف وأدور فى دائرة اللطف واللباقة هذه فإذا حيدر باشا يقول لى:

– إن الحسابات القديمة قد أغلقت فلا تفتح هذه الدفاتر الآن مرة أخرى، فإن سبب استدعائى لك الآن هو شئ آخر فأنت مطالب بأن تقوم بخدمة وطنية لهذه البلاد.

يا سيدى ما هذه الوظائف الوطنية التى نعرفها، أهى الجندية .

تمام – معنى ذلك إنهم استدعونى فى هذه المسألة فوجهت حديثى إلى حيدر باشا .

بالله عليك يا سيدى، أقبل قدميك أنا قد قضيت الخدمة الوطنية هذه يا سيدى فى سلاح البحرية وبقيت فيها ست سنوات قضيتها فى ترسانة "ريفان خانه" فى السجن العسكرى والتى لم يضيفوها إلى الخدمة العسكرية، فقد كنت كثير الهروب، ولكن أخيرا أنهيت الخدمة الوطنية بعد ست سنوات، أشكر الله على ذلك، كما أن يا سيدى عمرى قد تجاوز الخمسين فأى خدمة وطنية أخرى ؟

– وما أن قلت أنا هذا – أتفهمنى – حتى طلب لى حيدر باشا واحد قهوة، وقدم إلى سيجارة ,فى هذه اللحظة زادت حيرتى هل تفهمنى ؟ فأى خدمة وطنية يريدونها منى إنها لعبة ، أترونهم يريدوننى أن أقرأ لهم الكف أو أنظر لهم فى البخت، وسط هذه الحيرة، قلت لحيدر باشا:

– يا سيدى هل هناك أمر آخر خلاف هذه الخدمة الوطنية التى تحدثنى عنها . أأمرنى يا سيدى . أوضح لى ستجد روحى على كفى فأنا لا أنسى أفضالك علىّ، فموقد مقهاى هو من فضلك أنت .

– فما كان من حيدر باشا إلا أن قال :

– أنت فهمت خطأ، الخدمة الوطنية المطلوبة هى ليست الجهادية أو العسكرية، إنها مسألة أخرى إنها خدمة للبلد كلها أنت الآن فى يديك إن تقدم خدمة لبلدك وتبيض بها وجه حكومتنا، فحكومتنا فى

أمس الحاجة إلينا ، محتاجة إليك.

– فقلت:

أرجوك يا سيدى لا تسخر منى ولا تلعب بأعصابى من أكون أنا حتى تحتاج إلى حكومة كبيرة كحكومتنا . أنا مجرد نشال قديم وهل من المكن أن تحتاج الحكومة لحقير كهذا، فقال حيدر باشا :

– هذه هى الحكومة وأمور الحكومة والسياسة لا تكون واضحة تماما وإذا ما حانت الفرصة فإن الحكومة تكون محتاجة لكل فرد من مواطنيها وأنت الآن بما أنك من مواطنى الحكومة فالحكومة فى حاجة إليك وهى تنتظر منك خدمة.

رددت عليه فأجبته :

– أأمر يا سيدى، طالما أن الأمر خدمة للحكومة، أتفهمنى يا سيدى، رقبتى فداء للحكومة ولو أمرتنى بأن أقتل نفسى فسأنفذ الأمر فورا.

– بعد هذا يا عزيزى قام حيدر باشا بتوضيح الأمر لى، فالحكاية يا سيدى ببساطة أن هيئة أجنبية كبيرة قد وصلت إلى بلادنا، هذه الهيئة تضم أمريكان وألمان ومنهم من الدنمارك ومن فرنسا . بين هذه الهيئة تجار وأطباء ومهندسين وأساتذة متخصصون من كل نوع، جاءت هذه الهيئة لفحص أو تدقيق أوضاع بلدنا من جميع النواحى وبناءا على التقرير الذى تعده هذه اللجنة ستقدم الحكومة المساعدات المادية لحكومتنا . هل تفهمنى ؟

– ولكن هذه اللجنة كلما ذهبت إلى أى مكان لا يعجبها العجب

فى أى أمر من أمور بلادنا، فتحدثوا لهم عن الزراعة والغابات . فلم تعجبهم أعمالنا فى الزراعة والغابات . هل تفهم ؟ تحدثوا لهم عن المصانع فلم تعجبهم مصانعنا أو منتجات مصانعنا. هل تفهم ؟

– احتارت الحكومة وأصبحت فى موقف حرج جدا أمام اللجنة الأجنبية، أخيراً قالت الحكومة، لا بد أن نجد شيئا يعجب هذه الهيئة، لابد أن يعودوا إلى بلادهم منبهرين من أعمالنا ...

وما أن حكى لى حيدر باشا هذا الأمر حتى قال :

– هذه هى الخدمة والأمر بين يديك يا عزيزى إحسان وكما ترى إنها خدمة وطنية .

– وحسب ما فهمت يا عزيزى أن حكومتنا الحالية لم تنجح فى ترضية هذه اللجنة الأجنبية ولم تستطع أن تجعلهم يعجبون بأى شئ فى بلادنا ومعنى ذلك أن الدور قد حان على السرقة واللصوصية والنشل وها هو الدور قد حان علىّ .

– فتوجهت بالحديث إلى حيدر باشا وقلت :

– فهمت يا افندم، تريد الحكومة أن تظهر أن لدينا أعمال اللصوصية بشكل كبير، حتى تقول الحكومة للأجانب :إذا كانت كل الأمور وكل الأحوال سيئة فإن السرقة قوية جدا ، وأن تعود اللجنة وهى سعيدة لهذا الجانب فرد علىّ حيدر باشا قائلا :

– الأمر هكذا تقريبا، إننا نود أن نقول لهؤلاء الناس أن البوليس قوى جدا عندنا وأن نثبت لهم أن رجال البوليس يعملون بجد واجتهاد فقلت :

– هذا أمر صعب يا سيدى فقال :

– نعم صعب، ولهذا استدعيناك، ولما كنت أنت مسجل لدينا، مسجل خطر منذ القدم ونشال مشهود له بمهارته وأنك لص محترف فقد رأيناك أنسب من يقوم بهذه الخدمة الوطنية.

– فى الواقع كلمات حيدر باشا هذه اللطيفة أثارت فى داخلى المشاعر وقلبت أفكار رأسى رأسا على عقب فسألته مستفسرا :

– مثل ماذا يا سيدى .

– فشرح لى وقال أنه سيعرفنى بالفندق الذى تسكن فيه هذه الهيئة ويعرفنى على أعضاء هذه الهيئة، هل فهمت ؟

– وأنا بدورى سأقوم بالاصطدام ببعض أعضاء هذه الهيئة وسأنشل كل ما تصل إليه يداى هل فهمت ؟ وطبعا سيسرع أعضاء الهيئة بالتوجه إلى البوليس وتقديم بلاغ بالمسروقات وسوف يقول لهم رجال البوليس :

" لا تقلقوا على الاطلاق فإن البوليس فى غاية القوة والنشاط، ولن تمر اوقات طويلة إلا وتعود إليكم مسروقاتكم، طبعا رجال أمننا يقولون هذا وأكون أنا قد أعطيت البوليس كل ما يكون قد نشلته من هؤلاء الناس وبالطبع سيقوم رجال البوليس بتسليم المسروقات – هل فهمت ؟ وبالطبع سيقول أعضاء الهيئة، حسنا، حسنا، ما أنشط هؤلاء الرجال.

بعد أن أوضح لى حيدر باشا الأمر، فما كان منى إلا أن وضعت القهوة والنعمة التى أمامى وأقسمت لحيدر باشا قائلا : أعمى عينى،

لا أستطيع أن أقوم بهذا، فسألنى مستغربا، لماذا ؟ فقلت يا أفندم أنا منذ فترة طويلة قد تركت هذا الأمر وقد ثقلت يداى ولم يكن هناك تدريب فقال :

– أنا لا أفهم هذا الكلام لابد أن تمشطهم .

– فقلت : لقد تبت مرتين فقال يا عزيزى إحسان يموت الزمار ويديه تعزف (تلعب) فقلت له هناك من هم أمهر منى الآن فى النشل لو منحتهم هذا الشرف سيقومون على أحسن ما يرام هناك جيل جديد من النشالين وطرق جديدة من النشل.

– فقال : الدهن فى العتاقى يا عزيزى إحسان، فالجيل الجديد يشرب لبنا مخلوطا، ولا نثق فيهم لأنهم سيسرقون الهيئة ويعرونهم ولن يأتوا بما نريد، ونكون نحن فى موقف لا يحسد عليه وبينما كان يجب أن نعلى من شأن البوليس أمام تلك الهيئة فيوقعنا هؤلاء النشالين الجدد فى موقف أخر لا نحسد عليه، نحن فى حاجة إلى لص شريف مثلك، يلزمنا رجل شريف ؟

– فقلت : عفوا يا سيدى، أقبل قدميك يا باشا لن أستطيع أن أقوم بمثل هذا العمل وأطلت فى التوسل والرجاء .

– فما كان من حيدر باشا إلا أن تغير واحتد وقال :

– لك ما تريد يا إحسان ، أنت تعرف ما يمكن أن يؤول إليه حالك أنا قد أعطيتك الفرصة لكى تقدم خدمة للوطن وها أنت تتمنع . أعرف أننا سنهاجم مقهاك وأنت تعرف إننا نعلم بأنك تبيع ممنوعات فى مقهاك وأنا أعرف أن سوق البودرة رائج بين زبائنك . فكر ألف

مرة وأنت تعلم ما يمكن أن يكون.

– وجدت كل الطرق مغلقة أمامى، فقبلت المهمة مضطراً ولكننى قلت : ولكن يا سيدى لا تكون خدمة بدون عدة ليراتٍ " لحاليح " نفترض إننى أتيت إليكم وسلمتكم كل ما نشلته ماذا سيعود علينا من هذه العملية ؟

– فغضب حيدر باشا وزادت حدته وقال :

– قلنا هذه الخدمة وطنية، ألا تخجل من أن تقبل نقودا مقابل هذه الخدمة، وزادت حدته وعلا صوته وهو يقول : ألا تخجل من طلب مقابل للخدمة الوطنية حتى قلت :

– لا تغضب يا سيدى، الأمر فى غاية البساطة فمثلا أنت تقوم بمهام رجل البوليس وهذه خدمة وطنية ولكنك تتقاضى عنها نقودا فى بداية كل شهر عدا ونقدا، فهل يمكن بأن تقوم بهذه الخدمة الوطنية دون أن تقبض هذه اللحاليح وأعضاء مجلس الشعب مثلا، ألا يقومون هم أيضا بالخدمات الوطنية ؟

– يا سيدى، الصداقة شئ والواجب شئ والعمل شئ آخر وأمور الدين والدنيا تختلف عن بعضها البعض والواجب الوطنى شئ وأمور اللحاليح شئ آخر.

– فقال : ليكن ما دام الأمر كذلك فأنت حر فى مقهاك تستطيع أن تفعل ما تريد فيها . بع واشتر كما تشاء ولكن حذارى أن تخفى أى شئ مما ستنشله من أى فرد من أفراد هذه الهيئة ولابد أن تحضر كل ما تصل إليه يداك فى التو واللحظة إلى هنا ونحن بدورنا

سنقوم بإعادة المسروقات كما هى بالتمام والكمال إلى أصحابها

– فقلت : أمرك يا افندم

– أعطانى حيدر باشا عنوان الفندق الذى تنزل فيه الهيئة الأجنبية وأرانى صور كل أعضاء اللجنة وأوصاف كل منهم على حده وبعدها ودعنى قائلا : هيا الله يوفقك وسنرى يا إحسان، والأمل كله معقود عليك ولو أمكنك أن تغربل رئيس الهيئة كم أكون سعيدا بك، مع السلامة .

– يا عزيزى إن هذه الأمور أسهل علينا من أكل الملبن، وقفت أمام الفندق، تسمرت هناك وقبيل المساء ظهر هؤلاء فنظرت إلى الصور التى فى يدى . تمام – ها هو رئيس الهيئة وها هى زوجته إلى جواره اقتربت، ارتطمت بالرئيس وأثناء ارتطامى اخذت كل ما وصلت إليه يدى . واصطدمت به مرة اخرى ولم أترك له أى شئ وفى هذه اللحظة أدركت إننى لم أنس حرفتى وعلى الفور أخذت صيدى واتجهت نحو المراحيض العمومية، وهناك فتحت المحفظة التى نشلتها، ماذا أجد فيها، هل تصدق يا عزيزى لم أجد سوى عملات معدنية ممسوحة، فركبنى الشيطان وشككت فى نفسى لبعض لحظات إلا أننى كنت واثق أننى لم أترك أى شئ حتى فى جيوب بنطالى هل تفهم ؟

– لم أترك أى شئ فتوجهت إلى المديرية، وما أن رآنى حيدر باشا حتى احتضننى وهو يقول : أين أنت يا أخى العزيز، وما أن ناولته المحفظة حتى قبلنى من جبينى وقال :

– بارك الله فيك، لقد أنقذت شرفنا .

– كان رئيس الهيئة الأجنبية منذ دقائق قد أبلغ أن محفظته قد ضاعت وقد قلنا منذ خمس دقائق " لا تقلق لن يأت الغد إلا ونكون قد وجدنا لك محفظتك فلدينا البوليس فى غاية القوة ".

– فقلت بعد أن سلمته المحفظة :

– ها أنا ذا يا سيدى، قد قمت بواجبى الوطنى، فاسمح لى بالانصراف لأعود إلى مقهاى فقال لى : لماذا العجلة هذه الضربة لا تكفى، لن تكف عن نشل الأخرين فتوجهت إليه بالرجاء، أرجوك يا سيدى، إن يدى ستعتاد العمل مرة أخرى ولن أستطيع أن أسيطر على نفسى مرة أخرى، رجوت وكررت الرجاء إلا أنه لم يسمع لى – هل تفهمونى ؟

– بدأت بكل أعضاء الهيئة واحدا واحدا وكلما نشلت شيئا اتجهت فورا إلى المديرية وسلمت ما وصلت إليه يداى، وذات مرة أفرغت كل ما لدى أحدهم، وأخذت مفاتيحه، ومنديله، ولاعته سجائره وحتى العملات الفكة التى فى جيب بنطاله وخلعت النشان الذى كان يعلقه على ياقته.

– وما زال الرجل لا يدرى بما أفعله به، فما زال نائما لدرجة إننى لو خلعت حتى بنطاله من قدميه ما أحس به ؟ أغرانى وضعه هذا بأن أقول لنفسى يا واد يا إحسان فكك هذا الرجل، فأخذت زراير قميصه وزراير كل ملابسه لم أترك شئ وعلى الفور اتجهت إلى مديرية الأمن ووضعت كومة المسروقات أمام حيدر باشا فما

كان منه إلا أن قال :

– عفارم عليك يا واد يا إحسان ملأت عينى الآن بارك الله فى يديك فقلت :

– يا سيدى كنت سأترك الرجل عاريا أمام الفندق كما لو كان داخل الحمام ولكنه صعب على فتركت عليه ملابسه الداخلية لا أطيل عليكم فقد ظللت خمسة عشر يوما وأنا أنشل أعضاء هذه الهيئة رجالها ونسائها ولم اترك أيا منهم إلا وكأنه فى طريقه إلى أن تجرى له عمليه جراحية كنت على وشك أن اقتنص حتى أكبادهم من بين ضلوعهم، إلا تفهمون وقد صعبوا على أن اتركهم بدون أكباد، ولكن ذات مره قلت لحيدر باشا :

– اسمح لى يا فندم وأنا أجرى عملية نشل لكبد وطحال رئيس هذه الهيئة الأجنبية ولم يتمالك حيدر باشا نفسه من الضحك، وكان يا أعزائى بين أعضاء هذه الهيئة سيدة تمكنت من أن أفتح الشنطة التى معها وجردتها من كل ما فيها، وأتيت بكل ما سرقته ووضعته أمام حيدر باشا فى مديرية الأمن ولكن المدهش أن هذه السيدة لم تأتِ إلى البوليس ولم تبلغ أى جهة أمنية عن مسروقاتها، وانتظر رجال الامن ثم أتوا بفرد من أفرادهم الذى يعرف اللغة الاجنبية وتحدث هاتفياً إلى الهيئة الاجنبية وسأل :

– هل يا ترى سرق منكم شئ فردوا عليه قائلين :

– لم يسرق أى شئ، فقال لهم البوليس، فتشوا جيدا فلابد أن شيئا قد سرق

– وبعد أن أحسنوا التفتيش قالوا :

– نعم لقد سرق كل ما كان فى حقيبة يد إحدى العضوات فقال لهم رجل البوليس:

– أكان فى داخل الحقيبة قطعة قماش وردية اللون

– فقالوا : نعم من أين علمت، فقال :

– لدينا البوليس فى غاية القوة فنحن نعرف .

– هل رأيت يا أخى كم أن أمننا قوى والشرطة فى غاية الجد والنشاط لدرجة أنه يخبر صاحب المسروقات حتى قبل أن تسرق، ونقبض على اللص الذى كان على وشك أن يسرق هذه المسروقات، وبينما الهيئة تعود إلى حيث أتت التف حولها الصحفيون وسألوهم قائلين :

– ما أكثر ما أعجبكم عندنا ؟

– ولكن رئيس الهيئة من دواعى الأدب واللطف لم يجب إلا أن أحد الصحفيين لم يسيطر على فمه وقال :

– إن الشرطة عندنا قوية جدا، وما أن سمع رئيس الهيئة هذه العبارة لم يتمالك نفسه ولم يتحمل وقال :

– نحن تسعة أفراد، بقينا فى اسطنبول خمسة عشر يوما سرق كل منا تسعون مرة، حقا عندكم البوليس قوى ولكن اللصوص أقوى من البوليس

– وفى اليوم التالى خرجت الصحف وهى تحمل التصريح التالى لرئيس الهيئة الأجنبية :

" إن اللصوصية فى تركيا قوية جدا ومتطورة "، وأسندت هذا التصريح إلى رئيس الهيئة .

فأى ذنب ارتكبت أنا فى هذا، أقبل أقدامكم، اشرحوا لى الخطأ الذى ارتكبته، لقد غضب رجالنا من هذا التصريح ولم يرحمونى وهاهم قد ألقوا بى فى السجن ويتهموننى بأنى كنت أنشل هؤلاء الأجانب . هم الذين قالوا إنها خدمة وطنية هل تفهموننى ؟

– فقلت مدافعا عن نفسى لحيدر باشا :

– أنا سأحكى وأعترف بكل هذه اللعبة للقاضى، فقال :

– يا غبى لو فعلت شيئا كهذا فإنك ستتحمل القضية وحدك فهناك مئة سرقة فاعلها مجهول وأستطيع أن أحملك كل هذه القضايا، وتمضى فى السجن ألف سنة.

هذا هو الأمر يا أخى وقد بلعت الطعم وصمت ولم أتفوه بكلمة وها أنذا قد سجنت عامين فى مقابل الخدمة الوطنية، فقال أحد المستمعين الذين كانوا يصغون إلى إحسان واظلين، يا عزيزى ستمر عليك السنون وأنت تأكل الخبز والحلاوة فى السجن، فتنقضى السنون بمجرد أن تنظر يمينك ويسارك، فرد عليه إحسان قائلا معك حق، ولكن فى هذا السجن لا يتحمل المرء، ولكن أحمد الله إننى كنت أقوم بخدمة وطنية، فليعش الوطن الذى قمت بخدمته.

١٢- حكاية صينية

فى يومٍ من الأيام تلقى أحد أفراد الأمن السياسى واسمه سو – تيانغ الأمر التالى:

– سو – تيانغ، افتح أذنيك وعينيك جيداً، سأكلفك بمهمة فى غاية الأهمية، ربما تعتبر من أشرف المهام التى قمت بها خلال خدمتك كلها. طبعاً هذا إن أديتها بنجاح.

سأل سو – تيانغ دون أن يرفع نظره عن بوطه القديم:

– هل سأحصل على مكافأة لقاء ذلك يا سيدى ؟

– طبعاً ... إذا نجحت بتحقيق المهمة على أكمل وجه، ستنال مكافأة قدرها ثلاثة آلاف ين. والآن افتح أذنيك واصغ جيداً.

بدأ رئيس الأمن السياسى بشرح المهمة دون توقف، ولكن سو – تيانغ لا يبدو أنه يفهم شيئاً، لأن الثلاثة آلاف ين قد ملكت عقله

وقلبه. ثلاثةُ آلاف ين – كعددٍ – شيءٌ مهمٌ جداً ولكن عندما تذهب إلى السوق لا يُعد شيئاً يذكر.

على كل حال سيقوم سو – تيانغ بمهمته، ولكن ثلاثة آلاف ين قليلة جداً.

– سأل الرئيس:

– هل حضرت إلى الدورة التى أقامها خبير الاستخبارات السرية الأميركية جاك توفلِ ؟

– هــه ... !!

قال الرئيس مرةً أخرى:

– الخبيرالأمريكى.

– آ .. نعم نعم ... وأخذتُ المرتبة الأولى على الدورة.

– ولهذا أثق بك كثيراً. اسمعنى جيداً يا سو – تيانغ، سنعتنى بمكياجك لكى تتنكر بثياب متسول. وستمارس مهنة التسول من الصباح إلى المساء، فى الزاوية المقابلة لبناية كبيرة ذات لون برتقالى، فى شارع بو – كونغ، هل تفهمنى ؟

– أفهم يا سيدى، لن يكون من الصعب علىّ التنكر بهيئةٍ متسول.

– ستراقب الداخل إلى هذه البناية والخارج منها. وسأنتظر منك تقريراً كل مساء.

– أمرك سيدى.

بدّل سو – تيانغ هيئته وأجرى مكياجاً ناجحاً لوجهه، حتى ليقول الناظر إليه للوهلة الأولى "إن هذا الرجل متسول" أباً عن جد، حتى

لو بحثوا فى أرجاء الصين لن يجدوا متسولاً أنجح منه".

فى أول يومٍ بدأ فى التسول مرّ رئيسه بجانبه، همس له وهو يضع بين يديه قطعة نقدية:

– أهنئك يا سو – تيانغ، لو لم أعطك هذا الدور بنفسى لأقسمت بأنك متسول حقيقى.

فى اليوم الأول لممارسة سو – تيانغ لمهنة التسول لم يستطع أن ينفذ مهمته الأمنية، وذلك لأن وقته ذهب فى جمع النقود التى وضعت بيده أو رميت أمامه. يا الله ... ما أكثر محبى الخير وما أكثر المساعدة فى بلدٍ فقير كهذا. لقد وضع سو – تيانغ أمامه منديلاً وجلس فى الزاوية، ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى امتلأ المنديل بالنقود.

لقد دهش سو – تيانغ، حيث إنّه استطاع أن يجمع عن طريق التسول وخلال ثلاثة أيام، ما كان يجمعه خلال عمل شهر بأكمله فى الشرطة حتى لو عمل ليل نهار.

وفى صباح أحد أيام الأسبوع الثانى من بدء سو – تيانغ بمهنة التسول، جاء إلى أذنه صوتٌ خفيفٌ يقول:

– سو – تيانغ، لم تقدم إلى الآن أى تقرير.

– رفع المتسول رأسه بخوف نحو رئيسه وقال:

– الله يرضى عليك .. الله يوفقك ... غداً مساءً سأحضره، اعطفوا على الفقراء يا أصحاب الرحمة... سأقدم تقريراً يا سيدى... صدقة للمحتاجين وللفقراء واليتامى.

فقال الرئيس رداً على هذه الرسالة الرمزية التى لم يستطع أحد

من الذين يرمون نقودهم بيد المتسول فهمها:

– انتظر تقريرك.

تسول سو – تيانغ قرابة الشهر، ولم يكن يفكر بأنه سيجمع كل هذه النقود خلال هذه المدة القصيرة. كما أن لهذا العمل امتيازات كثيرة فهو، بالإضافة إلى النقود التى يجمعها المتسول خلال مدة وجيزة، يتمتع بالاستقلالية والحرية "إن أردت تعمل وإن أردت لا تعمل".

ولهذا وصل سو – تيانغ إلى قرار سريع، ففى صباح أحد الأيام ذهب إلى مكتب الرئيس.

– هل وصلت إلى نتيجة مهمة بعد غيابك الطويل كل هذه المدة.

– نعم يا سيدى... تفضل هذا تقريرى.

بعد أن قرأ الرئيس الورقة التى أعطاه إياها سو – تيانغ تحول لونه من صفرة الليمون إلى بياض الحليب. إذ أن تلك الورقة كانت تتضمن طلب استقالة سو – تيانغ من الشرطة السرية.

قال الرئيس:

– هل جننت يا سو – تيانغ، لم يبق على تقاعدك إلا القليل، كيف تهدر حقوقك فى العمل بهذه السهولة ؟!!

قال سو – تيانغ:

– لا يهمنى يا سيدى ... سأهدرها.

– شخص صاحب تجربة مثلك....

– ليكن... سأهدرها.

وضع الرئيس يديه على كتفى سو – تيانغ ونظر إليه نظرة رجلٍ خبير فى الشرطة السرية محاولاً استقراء ما يفكر به .. وقال:

– لا تستطيع أن تقنعنى يا سو – تيانغ، لا بدّ أن هناك أمراً ما.

نظر سو – تيانغ إلى رئيسه نظرة خوف، وبعد ذلك مدّ يده إلى جيب بنطاله وأخرج منه دفتراً كتب فيه ما جمعه من نقود خلال أيام التسول، كل يومٍ على حدة وبشكل مفصل.

– إننى أطلعك يا سيدى على سر مهنتى، لأننى وبفضلك أنت جمعتُ كل هذه النقود، ولو لم تكن أنت سببها لما رأيتها أبداً. كما أرجو أن لا تخبر أحداً من الأصدقاء بهذا السر.

نظر الرئيس إلى سو – تيانغ نظرة حب وقال:

أرجوك يا سو – تيانغ أن تبقى هذا الأمر سراً بيننا، لأننى سأبحث فى أحد الشوارع المزدحمة عن زاوية وأجلس فيها كى أبدأ ممارسة المهنة نفسها.

١٣- كَيْفَ تم القَبْض على حَمْدِى الفِيل .. ؟

كان قد تم إرسال البرقية التلغرافية التالية من مديرية أمن استانبول إلى مديريات الأمن فى كل الولايات؛

".. فى الخامسة والثلاثين من عمره، طويل القامة.. يزن مائتين كيلوجراماً.. أشقر.. تنقصه ثلاث أسنان.. إحدى أسنان الفك العلوى مَحْشيَّة.. الناب الأَيْسَر فى الفك الأَسفَل مُغَلَّف بالذهب يرتدى ملابس بُنِّية مخططة... أصلع الرأس إلى حد ما.. وجهه مستدير، بنى العينين.. نصَّاب، من أصحاب السوابق، اسمه "حمدى الفيل".. لقد غافل اثنين من رجال البوليس الذين كانا يحرسانه ويراقبانه لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالى مستمرة قضياها فى كُشْك النُوبَتْچِيَّة.. وغفلت أعينهم بسبب طول السهر وهرب... وفى نهاية التَّحقِيقات.. والتَّفتِيش.. والتَّعَقب.. والتدقيق اتضح بشكل قاطع أن "حمدى الفيل"

قد هرب.. وعليه.؛ فإذا ما مَرَّ أى أَحد على ولايتكم أو على المراكز وأقسام الشرطة والمخافر التابعة لكم.. أو إذا ما قُدِّر وتم سؤال أى من رجال الشرطة أو المخبرين السريين عن طريقه أو عنوانه.. فيتم توقيفه.. وإعلامه بأننا فى انتظاره بفارغ الصبر.. وألاَّ يجعلنا ننتظر أكثر من ذلك.. وعليه أن يُسَلِّم نفسه، أو يتم تسليمه فى أقرب وقت ممكن إلى مديرية أمن استانبول، على الجميع تنفيذ الأمر.. ومرفق صورة صاحب السوابق الهائج حمدى الفيل. "..

فى محطة إحدى محافظات الضواحى كان اثنان من رجال البوليس يتحدثان؛

– رمضان ... يا أخى.. لابد أن هذا الرجل الذى يشرب السحلب هو حمدى الفيل..

– هييـ .. يُشبِهَه.. أَرِنى الصُّورة لِنَرى...

يُخْرِج صورة فوتوغرافية، ويُظهرها إلى زميله..

– ليست هذه يا أخ رمضان... أنها صورتك

– هييـ .. كنت قد اتصورتها فى العيد.. ما رأيك ... ؟

– كويِّسه .. ولكن لو كنت ابتسمت... ! ابحث عن صورة حمدى الفيل هذا..

يخرج رمضان مجموعة من الصور من جيبه.. ويُقلِّبها..

– هذه صورة ابنى.. هذه تذكار العسكريَّة.. مَنْ هذا يا محمود..؟

– هل هو.. ؟ .. إنه.. إن هذا على الدُّخان .. مُهَرِّب الهيروين

– وهذا صبحى فأر الفنادق... تداخلت الصور فى بعضها

البعض... إبحث عن صورة حمدى هذا.. يا رمضان...

يقوم كل من محمود ورمضان بتقليب الصور.. يبحثان عن صورة حمدى الفيل..

– بسرعة يا محمود.. الرجل شرب السحلب.. سيهرب..

– انظر .. كيف يتلفت ويتفرس فيما حوله.. ؟

– وجدتها.. لابد أنها هذه الصورة... تمام.. هو بالضبط

يتجهان نحو الرجل الذى يشتبهان فيه..

– ممكن تقف على حيلك يا بلدياتى...

ينظران إلى الصورة ثم إلى الرجل.. يتفحصان وجه الرجل..

– قف بالجنب.. هكذا.. لنرى..

– آ .. آه.. لا يشبهه يا أخى رمضان..

– ليره حضرة الضابط.. ولو لمرة واحدة.. يا محمود.. ربما هو يتعرف عليه.

– هيا .. امشى معانا يا بلدياتى .. ستذهب حتى المركز...

فى محافظة أخرى.. وفى السوق.. يتحدث اثنان من الشرطة؛

– عيب علينا يا أخى شكرى.. تجولنا حتى المساء.. لم نترك شبراً.. ولم نستطع أن نقبض على حمدى الفيل هذا..

– ألا يكون هذا الرجل ... ؟

– ربما يكون هو .. لنسأله ..

يتجهان نحو الرجل؛

– سيدى .. ما اسمك.. ؟

- مصطفى..

يهمسان فى أذن بعضهما البعض...

- يقول مصطفى ..

- لن يقول أنا حمدى.. يُخفى اسمه..

- لابد أنه وضع فى ذهنه أن يخدعنا...

- سيدى.. ألا تأتى معنا قليلاً ... ؟

فى مقهى إحدى محافظات الضواحى.. يتحدث اثنان من الشرطة:

- أمس أنا قبضت على ثلاثة "حمدى الفيل" حضرة الضابط لم يَعْجبه أى واحد منهم،

- ضَابِطُنَا هذا ليس سهلاً.. بتاع مشاكل ..

- هُسَّ.. اخفض صوتك... انظر بطرف عينك إلى هذا الرجل الذى يَشْرب الشاى... لا تلفت نظره.. !

- هو يا أخى .. هو بالضبط ..

- ولكن الأوراق تقول أنه ضخم... وهذا نحيف.. هيكل عظمى..

- من كثرة اللَّف والدوران.. لابد أنه خَسَّ .. ضعِف ..

- ممكن.. ولكن هذا أسمر.. وحمدى الفيل أشقر...

- لونه طار من كثرة التجوُّل فى الجبال والبرارى..

- معك حق.. ولك يا أخى.. هذا له شعر أسود كثيف.. والمكتوب فى الأوراق أن حمدى الفيل شبه أصلع.. وتساقط شعره..

- لابد أن يكون كذلك.. فربما يكون قد وضع باروكة حتى لا

يتعرف عليه أحد..

- ماذا تنتظر.. لنقبض عليه..

يقتربان من الرجل:

- ما اسمك يا أخ..

- حمدى..

ينظران إلى بعضهما نظرة ذات مغزى ويضحكان:

- امشى معنا حتى المخفر.. هيَّا..

- ماذا .. ؟ ماذا حدث ... ؟

- لا تسأل كثيراً.. ! ستعرف كل شئ فى المخفر..

فى إحدى الولايات.. وكما هو الحال فى كل المحافظات.. يقبض رجال البوليس على واحد من المارة الذين يسيرون على الطريق الأسفلتى الذى يُشبه كل الطرق الأخرى فى شتى الولايات؛

- افتح فَمَّك .. !

- ليس فى فمى أى شئ ..

- طالما ليس فيه أى شئ .. فافتحه..

يفتح الرجل فمه.. ينظر كلاهما فى نفس اللحظة إلى أسنان الرجل. فيسأل أحد رجلى البوليس زميله الآخر.. قائلاً:

- كم سِنَّة ناقصة.. ؟ إقرأ الأوراق التى فى يدك

يَفْحص الآخر الأوراق ويقرأ ؛

- "ثلاث أسنان ناقصة.. والفك العلوى به سِنَّة محشوة.. والناب الأيسر فى الفك الأسفل مُغَلَّف بالذهب"

فيقوم رجل البوليس بعَدِّ أسنان الرجل؛

– واحد.. اثنان.. ثلاث.. دورت.. لا تتحرك يا رجل.. حيَّرتنى.. واحد.. اثنان.. ثلاث.. أربع.. خمس.. أربع وعشرين.. عنده أربع وعشرين سِنَّة.

– أربع وعشرين.. ؟ كم سِنَّة ناقصة.. أنت عندك كم سِنَّة ناقصة.. ؟ .. هل تعرف... ؟

– ثمان..

– خلعهم.. خلع أسنانه حتى يُضَيِّع الأدلة.. ويخدع العدالة..

– أنا أسنانى تركيب.. طقم... ليس فى فمى أى سِنَّة أصلية من أسنانى.. وحتى أربع من التركيب كُسِرَت وأنا أَمُصُّ قصب.

– هل مَكْتوب فى الأوراق إن كانت طقم أو تركيب أو أَصْلِيَّة

– غير مكتوب.. لقد نَسيُوا.. انظر.. هل النَّاب مُغَلَّف بالذهب... سيدى هيًّا معنا... سر سَوِيًّا..

– إلى أين... ؟

– إلى القره كول.. سِرْ .. هيا..

كانت مئات البرقيَّات التلغرافية تصل يومياً من مديريات أمن المحافظات إلى مديرية أمن استانبول. "... رداً على برقيتكم المؤرخة بتاريخ / / / والمُقَّيدة تحت رقم / /

"لقد تم القبض على أربعة عشر شخصاً داخل محافظتنا يُدْعَوْن حمدى الفيل يرتدون ملابس بُنِّيَّة مخططة، منهم ثمانية أنيابهم فى الفك السفلى الأيسر مغلفة بالذهب.. والأمر معروض على مقامكم

للاستفسار عن استمرار البحث والاكتفاء بهذا العدد.. أو كف البحث. الأمر معروض وفى انتظار ما تصدرونه من أوامر.. مع خالص الاحترام.. "

" رداً على برقيتكم المؤرخة فى / / / والمسجلة تحت رقم / / /

لقد تم القبض على دستتين من "حمدى الفيل" داخل نطاق ولايتنا يصل وزن الواحد منهم ما بين ١٨٠ – ٢٢٠ كجم الفرق فى الوزن ربما ناتج عن عدم عايرة ميزان القَبَّان. جميع المقبوض عليهم أعينهم بُنِّيَّة. ولهذا.. فلا تبقى أى شبهة شك فى أنهم "حمدى الفيل". وقد تم شحن المقبوض عليهم والمدعو كل منهم "حمدى الفيل".. ولو كان هناك من تمكن من التَّهَرب .. فلسوف يتم الاستمرار فى البحث عنهم بكل دِقَّة والقبض عليهم وشحنهم إليكم فوراً. والأمر معروض مع خالص الاحترام. "

وكان نص البرقية التى أُرسلت من مديرية أمن استانبول إلى كافة مديريات أمن المحافظات كما يلى:

".. لقد امتلئت كل الأماكن.. وتَرَى المديرية الاكتفاء بمن قُبض عليهم من "حمدى الفيل".. وإلى أن تصلكم تعليمات أخرى؛ فالمرجو الكَفَّ عن البحث وعدم القبض على كل مَنْ يدعى "حمدى الفيل" مع الشكر.. وإلى إشعار آخر.."

ملحوظة؛ لقد تم القبض على حمدى الفيل الهارب .. !!

"عزيز نسين" ١٩٥٥م"

١٤- أليس فى بلدكم حمير ؟

Sizin Memlekette Essek yok mu ?

دخل وهو يهز رأسه إلى اليمين وإلى اليسار . وقد وضع يده على وجهه وكان ضرسه يؤلمه – وبيده الأخرى كان يلطم خده وهو يردد :

– لقد فضحونا – أتفضحنا ....

لما كان رجل مهذب، محترم وقد أخذ يردد هذه العبارة بمجرد دخوله من الباب وحتى دون أن يلقى التحية كما كان لطمه على خديه قد أدهشنى أزعجنى فقلت :

أهلا وسهلا تفضل، أرجوك تفضل بالجلوس

– فضحونا – رزالة وأى رزالة

– كيف حالك ..

– كيف أكون أكثر من ذلك هل هناك ما هو أسوء من ذلك

فظننت أن مصيبة قد حلت به . أو أن هناك مكروه قد أصاب أحد

أفراد عائلته

– لقد خسفوا بنا الارض – لقد أصبحنا لا نساوى شيئا

– لماذا .. ماذا حدث ..؟

– ماذا يمكن أن يحدث أكثر من ذلك ...! لقد باعوا للرجل حمارا عجوزا أجربا بالفين وخمسمائة ليرة ..

– فتراجعت بعض الشىء وأمعنت النظر إليه أيمكن أن يكون قد أصابه الجنون ؟ ولم يكن فى استطاعتى أن اخفى هلعى فأردت أن استدعى زوجتى فقلت سائلا :

– ألا تشرب القهوة ..؟

فقال :

– اترك القهوة الآن لقد جعلوا سمعة البلد فى الحضيض هل حمار عجوز أعرج أجرب يساوى ألفين وخمسمائة ليرة ؟

– لا أستطيع لأننى لا أشترى ولا أبيع حميرا

– يا عزيزى أنا أيضا لست بهلوان حمير أو سائسا ولكننى أدرك أنه ليس هناك حمارا يساوى ألفين وخمسمائة ليره ..

– هل أعصابك متوترة ؟

– متوترة جدا وإذا لم تفسد أعصابى أنا فمن إذن ؟ هل رأيت حمارا يساوى ألفين وخمسمائة ليرة ؟

– بالنسبة لى .. لم أر حميرا منذ ما يزيد عن عشرين عاما تقريباً

– أنا أسألك هل الحمار يساوى ألفين وخمسمائة ليرة أو لا يساوى ؟

– لست أدرى ماذا أقول ربما لو كان حمارا ذا معارف أو مهارات فربما يساوى هذا المبلغ ..

– أى معرفة بالله عليك – هذا حمار .. حمار ... وليس خطيبا – حمار عادى – بل حتى هو أجرب أعرج زيادة على ذلك فإنه أجرب – لقد باعوه للرجل بألفين وخمسمائة ليرة – وما زاد الطين بله ماذا هل تعرف – لقد كنت أنا واسطة البيع فى هذه العملية

– ياه ... كيف حدث هذا الأمر ؟

– ذاك ما أتيت لكى أحكيه لك ... أنت تذكر إننى وزوجتى ذهبنا إلى امريكا بدعوة منهم لحساب جامعة استانبول .. وتعلم أننا بقينا فى أمريكا سنة

– أعلم ذلك ..

تعرفت فى امريكا على بروفيسور أمريكى أصبحنا أصدقاء قدم إلى خدمات جليلة وله على أفضال كثيرة ... واستمرت المراسلة بيننا حتى بعد عودتى إلى تركيا.

إنه رجل محب جدا للأتراك – صديق للترك وقد أخبرنى فى أحد رسائله أن صديقا له سوف يأتى إلى تركيا، وأن هذا الصديق خبير فى السجاد القديم، ويعد كتابا عن هذا الموضوع ولذا فهو قادم إلى تركيا لإجراء بعض البحوث والدراسات ويسألنى عن إمكانية مساعدته، وقمت أنا بدورى بإعلامه أن صديقه خبير السجاد هذا، لو حضر إلى تركيا خلال عطلة الجامعة فلسوف أقدم إليه كل ما فى وسعى من المساعدة . ولما كان هذا الخبير سوف يتوجه أولا إلى

الهند وايران للقيام ببعض البحوث والدراسات هنالك فقد أصبح الموعد ملائما لكلانا.

وجاء خبير السجاد فى شهر يوليو . وعند مجيئه أخذ صديقه من الاستاذ الأمريكى عنوانى ورقم هاتفى، وقام بالاتصال بى ذات يوم من الفندق الذى يقيم به وعلى الفور ذهبت إليه كان الرجل كالجن ، أمريكى من أصل المانى وعلى ما يبدو فيه شئ من إليهودية ربما كان يهودى ألمانى ثم أصبح أمريكيا.

لقد أحضر من البلدان التى طاف بها قبل تركيا أربع حقائب مليئة بقطع السجاد والكليم والجوت ففتح وأخذ يعرض على تحفه، كانت عبارة عن قطع عتيقة جدا من السجاد والكليم والجوت . وكان يبدى سعادته الغامرة من القطع التى استطاع جمعها، ويؤكد أنها لا تقدر بثمن وخاصة تلك القطع العتيقة التى لم يتجاوز عرضها ثلاثة أشبار وطولها خمسة أشبار فقد أكد أن ثمنها لا يقل عن ثلاثين ألف دولار أما هو فقد اشتراها بدولار واحد من قروى إيرانى زيادة على ذلك فإن هذا الايرانى الفقير ما أن أخذ الدراهم التى تساوى الدولار حتى أخذ يردد دعواته فى دهشة وانبهار....

فسألته عن سر ارتفاع هذه القطعة القديمة إلى هذا الحد – قال "لأن فى كل سنتيمتر مربع من قطعة السجاد هذه ثمانين عقدة أنها خارقة للعادة – رائعة"

وفى الغالب كان يشعر بلذه ونشوة غريبة وهو يتحدث عن السجاد – فعلى وجه الارض كلها لم تكتشف إلا قطعة واحدة من

السجاد فى كل سنتيمتر مربع منها مائة عقدة وهى موجودة فى أحد المتاحف وكانت سجادة من ذلك النوع الذى يعلق على الجدران .

ثم أرانى قطعة جوت أو خيش أو ما شابه ذلك وقال " لقد اشتريتها بخمسين سنتا " وكان يضحك بخبث ولؤم ينمان عن نشوته وتابع حديثه قائلا إن قيمتها لا تقل عن خمسة آلاف دولار

فسألته وكيف يتثنى لك شراء هذه الأشياء القيمة بهذا الثمن البخس ؟

فقال " منذ أربعين سنة وأنا فى خضم هذه العملية كما أن هناك أصول خاصة بنا وشرح لى أصوله تلك التى جعلتنى أقف فاغر الثغر من الدهشة، فقد كان من أصحاب السطوة والنفوذ العالمى فى صناعة وعالم السجاد، وله ألبومين عن السجاد وكتابين من تأليفه، كما أنه واحد من أصحاب أكبر مجموعة للسجاد بالعالم .

بدأنا سويا جولة فى الأناضول . وكنا نطوف بكل الأقاليم إقليما إقليما ومركزا ومركزا وكان يقوم بتصوير قطع السجاد النادرة التى نصادفها فى المساجد وتروق له تصويرا ملونا كما كان يسجل ملاحظاته أولا بأول.

كما اشترى من بضع أفراد قطع من السجاد والكليم والجوت والخيش .. وحسب أقواله ... أن ما اشتراه لا يساوى شيئا بالقياس لما اشتراه من الهند وافغانستان وتركمانستان الصينية وايران وكان يضيف أن هناك سجاد تركى رفيع المستوى ذا قيمة عالية ولكننا لم نصادفه بعد , ،

وصلنا إلى منطقة حفريات أثرية كان يعمل بها بعثة آثار أمريكية وأخرى المانية وقد أقاموا معسكرهم على بعد يتراوح بين خمسة وعشرة كيلومترات وعمليات الحفر مستمرة، بحيث أنهم قلبوا باطن الأرض وجعلوا جبالها وتبابها كقطن الحلاج المندوف ومنطقة الحفريات تغطى مركزا تقريبا فالعديد من الخيام مبعثرة هنا وهناك، ففى هذه المنطقة تكمن أطلال عدة حضارات منذ القرن العاشر قبل ميلاد عيسى وحتى عصرنا الحاضر وقد تراكمت فوق بعضها البعض وتمكنوا من اكتشاف عدة مدن تحت سطح الأرض فيها الكثير من القصور والمزارات... وكما جذب هذا المكان أنظار الباحثين والمنقبين عن الآثار فقد جذب كذلك إليه العديد من السائحين الشغوفين بمثل هذه الحضارات القديمة وأطلالها فهم يفدون بالسيارات أفواجا وفى كل كيلومترين أو ثلاث يمكن أن تصادف خمسة أو عشرة سواح .

اما القرويون الذين يعيشون فى ضواحى منطقة الحفريات هذه فقد ملأوا المكان يبيعون للسياح كل ما يخرج من تحت سطح الأرض وله سمة تاريخية كقطع الخزف والفخار والمعادن – ويتخاطف السائحون هذه الانتيكات حتى أطفال القرى وقد اصطافوا على جانبى الطريق يبيعون لهم كل ما أخرجوه من باطن الأرض كالحلقات والقطع الحجرية المنقوشة أو المكتوبة وقطع الخزف وبقايا المزهريات وكانت الفتيات الصغيرات جنبًا إلى جنب مع الفتيان يركضن جميعا حافيات الأقدام خلف أى سائح يرددن صائحين وأن

دولار توو دولار وكل من الصبية والصبيان يحاول أن يكون هو الفائز.

وقلت فى نفسى طالما أتيت إلى هنا فلآخذ أنا الأخر أى شئ من هنا كتذكار فاقتربت من فتاة فى العاشرة من عمرها تمسك بزهرية وبجانبها ولد قد أمسك هو الآخر بحجر أزرق صغير على شكل رأس إنسان ففكرت أن يكون هذا الحجر فصا فى خاتم فقلت :

– بكم هذا يا صغيرى ؟

– فطلبت الفتاة لمزهريتها أربعين ليرة أما الولد فقد طلب لذلك الحجر خمسة عشر ليرة لم يكن الأمر كما تصورت فقلت :

– غالى

– فبدأت الفتاة والولد يشرحان لى بطور يفوق سنهما أيمكن أن يكون هذا غاليا...!

إن والدهما قد أمضى أياما فى تقليب الأرض وقد وجدهما على عمق خمسة أمتار من تحت سطح الارض.

وكنت على وشك شراءهما لولا أن صديقى الامريكى خبير السجاد قد شرح لى أن لا قيمة لهما سواء من الناحية الأثرية أو التاريخية وأضاف أنه رأى نفس الشئ وصادفه فى كل بلاد الشرق التى زارها "هناك أيضا نفس الشئ – فكل القرويين نساءهم ورجالهم صبيانهم وأطفالهم – فى المناطق التى تتم فيها حفريات – يقطعون الطريق على أى سائح ويحاولون خداعه وبيعه أى شئ يقع فى أيديهم بحجة إنه أثرى عتيق .."

وهؤلاء القرويون الماكرون يقومون بتقليد تلك الآثار القديمة بمهارة فائقة مما يجعلهم يخدعون حتى كبار الأثاريين الذين يشترون منهم تلك القطع بأسعار خيالية بل وصل بهم الأمر أن باعوا إلى سائح أمريكى جسد واحد من كلاب الرعى بعد أن حلقوا شعره واجتزوا وبره على أنه مومياء لأحد الملوك القدماء – وكان هذا الخبير يضحك بخبث وهو يحكى نوادرهم تلك، ولكن هؤلاء المزورين لا يستطيعون دس مقالبهم تلك إلا على الهواة المبتدئين وإن كانوا هم فى نفس الوقت يتمتعون بمهارة فائقة فى التقليد فمثلا .. ذلك الحجر الأزرق الذى كان على هيئة رأس إنسان ويحاول الطفل بيعه ليس عملا بسيطا أو سهلا ، استمرت رحلتنا بالعربة الجيب التى استأجرناها وكان الهواء حاراً ... رأينا على قارعة الطريق بضع شجرات من أشجار الحور وبئرا ..فتوقفنا لكى نتناول طعامنا فى ظل الشجر وكان هناك قروى عجوز قد تمدد تحت الظل وقد غالبه النوم وبالقرب منه حماره يأكل العشب...

ألقينا السلام على القروى الذى تنبه لوصولنا وبدأنا الحديث وكنت أقوم بترجمة كلام القروى إلى الانجليزية لذلك الصديق الأمريكى .

– ما هى المحاصيل التى تكثر فى هذه القرى ؟

قال العجوز القروى :

– لا ينبت هنا أى محصول ... فى الماضى كان هنا زرع وقلع .. ومحصول وحصاد كانوا يزرعون القمح والحبوب ولكن منذ أن بدأت

هذه الحفريات منذ حوالى عشرين سنة تكاسلوا وأصبحوا لا يزرعون أى شئ.

قال الأمريكى :

– نفس ما يحدث فى المناطق الأخرى ..

فسألت العجوز :

– حسنا وبما يتعيش هؤلاء القرويون ..؟

– بما يخرج من تحت باطن الأرض من قطع خزفية وفخارية منذ أن أصبح تقليب بطن الارض "موضه" وهم يتعايشون بما يخرجون .. أحجار .. معادن – فكل قادر على الحفر .. بدأ حفره .. وكل ما يستخرجه .. مهما وجد يبيعه إلى الأجانب الذين يجوبون تلك الضواحى.

قال الأمريكى:

– نفس ما يحدث فى المناطق الأخرى

قال العجوز :

– إن مواطنينا هنا سفهاء فلقد باعوا نفائس البلاد بسعر بخس إلى الأجانب فلقد خرج من تحت الأرض أحجار وأعمدة ومزارات لا حصر لها ولو عرفنا ثمنها ولم نبعها لأعدنا بناء عشر بلاد أخرى كتركيا ..

– فمن هم هؤلاء الذين تدعوهم أجانب ؟

– كلهم لصوص – فقد قاموا بتهريب كل الكنوز التى خرجت من تحت باطن أرضنا وبهذه الاشياء المهربة أعادوا وشيدوا مدنا عظيمة

فى بلادهم بعضهم يحفر بنفسه والبعض الآخر يشترى ما يخرجه القرويون بثمن قليل إن هذا خداع ...

قال الأمريكى :

– نفس ما يحدث فى المناطق الأخرى ...

قال القروى :

– خلاص لم يعد هناك حتى روث يمكن أن يستخرج من تحت باطن الأرض – وحتى لو وجد – فإن الحكومة تيقظت للأمر ولم تعد تسمح لأى فرد بامتلاك مثل هذه الأشياء ... وإذا كان هذا الأجنبى سينهب شيئا فإنه بذلك ينهب الحكومة بينما الحكومة تبيع نفسها بسعر آخر ...

فقال الأمريكى :

– نعم – نفس ما حدث فى المناطق الأخرى

– إذا كان الأمر كذلك فكيف يعيش القرويون الآن ...؟

– لا تسأل .. فى هذه الناحية ست قرى ... إذهب إلى منازلهم تجدها خاوية .. ولن تجد فيها أى شئ فقد باعوا حتى الخيش والأوانى – القلل – الصوانى – كله – البيوت خاوية – لماذا ؟

– ماذا لماذا ؟ يبيعونها إلى هؤلاء السائحين لم يبق فى البيوت شئ كل مالديهم حولوه إلى أنتيكات ليبيعوه يدفنوه تحت الأرض ليصدأ ويفسد ويبيعونه على أنه اثر عتيق إن أخلاقيات الناس قد فسدت هى الأخرى يا سيدى تصور ... أمس وجدت طفلا كعقلة الأصبع يحاول أن يسرق الخرز المعلق فى رقبة حمارى – كان

سيسرقه ويدفنه تحت التراب هل فهمت .. وبعد فترة يخرجه من تحت الأرض ويحاول تدليسه إلى أى أجنبى على أنه من العاديات حتى الفتيات العرايس تحولن إلى صانعات عاديات قديمة – يحفرن الحجارة ويشكلونها إلى ما لا يخطر على البال .. لقد صنعن من حدوة الحمير مادليات ونقود قديمة.

فقال الأمريكى :

– لقد قلت لك ذلك يا عزيزى يحدث نفس الشئ فى المناطق الأخرى

فسألت القروى العجوز:

– كيف تعيش أنت ؟ وأى عمل تعمل ؟

قال :

– أنا تاجر حمير ... أبيع وأشترى ...

وبينما كان يقول ذلك كان يخرج ماءا من البئر ... وقدم فى كفيه الماء لحماره وبينما حماره يشرب هب الأمريكى فجأة وذهب إلى جوار الحمار وكنت أنا والقروى نتحدث.

– هل تستطيع أن تتعيش من تجارة الحمير ..؟

– الحمد لله منذ خمس سنين وأنا أتعيش بهذا العمل . أشكر الله

– كم تكسب مثلا ..؟

– يصعب التحديد – ذلك متوقف على الحمار.

– كم من الزمن يستغرق بيع الحمار ...؟

– وهذا أيضا يصعب تحديده .. ترى أحيانا أظل ثلاثة أو خمسة شهور بدون أى بيع وأحيانا فى يوم واحد أبيع خمسة حمير.

اقترب الأمريكى منى وهو فرح مسرور وإن كان يحاول ألاّ يظهر ذلك وقال :

– هناك على ظهر الحمار قطعة سجاد هل رأيتها ولما كان يتحدث الانجليزية فإن القروى لم يفهم، كان على ظهر الحمار قطعة من الجوت أو البشت البالى الموحل

فقلت له :

– تلك الخرقة المتسخة ..؟

قال :

– يا إلهى إنها خارقة شاهقة رائعة لا مثيل لها فقد كنت أقوم بفحصها وأنت مشغول بمحادثته ..فإن ألوانها خرافة – الصنعة فوق العادة فى كل سنتيمتر مربع مائة وعشرين عقدة بالكامل ليس لها مثيل فى العالم ولم ير العالم شيئا كهذا .

فسألته:

– هل ستشتريها ....؟

– نعم ... ولكن يجب ألاّ يفهم إننى سأشترى السجادة فأنا أعرفهم جيدا فما أن تحاول أن تشترى ما كانوا سيلقونه فى المزابل حتى يغالوا فى الثمن ظنا منهم أنها تحفة نادرة ومهما أعطيت فلا يملأ عيونهم سوى التراب كما يقال .... ولذلك يجب ألا يفهم القروى مقصدنا .

– فى هذه الأثناء قال القروى المسن:

– بما يرطن هذا الكافر

قلت:

– لا شئ يقول أنه أعجب بتلك الناحية

– ماذا أعجبه فيها تلال – سبخ – تباب لاشئ غير ذلك

قال الأمريكى

– ألم أقل لك أن لى طرقاً معينة وأصول خاصة للشراء الرخيص ... انظر ... الآن سأستخدم طريقة منها....

– كيف

– لن نطلب السجادة بل سنشترى الحمار وطبعا لما كان هذا القروى لا يعرف قيمة السجادة فإنه سيتركها على ظهر الحمار على أنها قطعة من البشت أو الجوت الوسخ ونحن سنأخذ السجادة وبعد مسافة صغيرة سنطلق الحمار....

– عليك الآن أن تخبره إننى أريد شراء الحمار

فقلت للرجل:

– كنت تبيع الحمير أليس كذلك ؟

– أيوه ... نعم أبيع الحمير والأتون...

– بكم تبيع هذا الحمار مثلا ..؟

– حسب المشترى ..

فضحك ..

– هل تهزأ بى .. ؟ ماذا يفعل بك مثلك بالحمار...

– مالك أنت وهذا يا عمى لنشترى نحن هذا الحمار ... بكم تبيعه؟!

– إذن قلت لك حسب المشترى هل أنت المشترى أم ذلك الكافر .؟

– هو المشترى...

– من أى ملة هذا الرجل ؟؟

– امريكانى

– هيـ ... ليس غريبا يعتبر منا... قل له

– إن هذا حمار مسن لا يصلح له

قلت ذلك للأمريكى فقال:

– حسن سيبيعه رخيص

– ليكن ... هو موافق

– ولكن هذا عيب سيقول الأمريكانى بعد أن يعود إلى بلده أن الأتراك خدعونى.

– قلت ذلك للأمريكى فقال :

– إن القروى الشرقى عامة والتركى خاصة ساذج صادق .. لو كان ذلك فى مكان آخر لباعه فورا ولكن طالما إنه رجل طيب القلب فسأعطيه مبلغا كبيرا.

– فقلت للقروى إن الامريكانى موافق...

– حسن ولكن يا سيدى إن هذا الحمار سينفق قبل أن يصل إلى امريكا ... زيادة على ذلك فإنه أجرب لقد هتك الجرب جانبيه..

– مالك أنت يا عزيزى، الرجل يريده هكذا

– الله الله يا أخى هذا ليس جحشا ولا بغلا حتى يستفيد به ماذا سيفعل بهذا الحمار الأجرب المهكع لا تقوى قدماه ...

– ما عليك أنت، فكر أنت فى المبلغ الذى تطلبه، والآن بكم ستبيع الحمار ؟

– لقد شوقتنى أرجوك إسأل هذا الأفندى الأمريكانى أليس فى بلادكم حمير قط ؟

فسألته :

وبعد أن فكر الأمريكى قليلا قال :

– قل له أن بها ولكن ليست مثل هذا...

فقلت للقروى الذى يسأل فى نفسه وقال :

– لا يعجبه الحمير الامريكى وهو شغوف بالحمير التركى ما علينا لقد أبرأت ذمتى لقد عددت أمامه كل عيوب الحمار وليس من المعقول أن نكسر خاطر هذا الأفندى الأجنبى من أجل حمار أجرب لنبيعه إذن... بكم ..؟

– من أجلكم عشرة آلاف ليرة فقط

– ماذا هل جننت أنت لابد أنك مخبول فأجود خيول السباق العربية لا يتجاوز ثمنها الواحد منها ألفين أو ثلاثة آلاف ليرة إذا كان كذلك فلماذا هذا الحمار فليشترى مهرا عربيا .

وما أن قلت هذا للامريكى إن الرجل يطلب عشرة الاف ليرة حتى قال :

– ألم أقل لك ذلك ... ما أن تصير مشتريا حتى يفعلوا ذلك كما

لو كان قيمته عالية فيغالون فى السعر .. فلو طلبت هذه السجادة لطلب مائة ألف سأدفع العشرة آلاف ليرة فى هذا الحمار ... ولكن لو فهم ذلك فسيرفع الثمن إلى عشرين الفا ولو وافقت سيرفعه إلى خمسين ولذلك يجب أن نساوم كثيرا .

– فقلت للقروى :

– قل الصدق بكم اشترى الحمار ؟

– قال أنا لا أكذب وأنا مازلت على وضوئى ولن أكذب طبعا .. أنا اشتريت الحمار بخمس ليرات لكى أسلخه وأستفيد من جلده فى صنع الغرابيل فهو كما ترى كان على وشك النفوق لأنه لا يصلح لأى شئ آخر.

– أين العدل يا أخى كيف تفكر أن تبيع حمارا الذى اشتريته بخمس ليرات بعشرة آلاف ليرة ؟

– يا عزيزى أنا لم أعرض للبيع أنتم الذين عرضتم الشراء قلت عجوز قال الرجل موافق قلت أجرب قال الرجل موافق قلت كسيح قال الرجل راضى قلت لن يطلع عليه الغد قال الرجل أعجبنى ... ها تذكرت كنت على وشك أن أنسى أن هذا الحمار أعرج رجله الخلفية مقصرة...

– ليكن ...

– هل رأيت معنى هذا أن له قيمة أو أن له كرامة لا أفهمها أنا إذا لم يكن كذلك فما معنى أن يتمسك به هذا الأمريكانى الكافر ويصر على شرائه، حمار عجوز ذكر أعرج أجرب ... أليس كذلك ؟

– عشرة آلاف أقل من هذا لا يفيد.

– لن أبيع ..

– فقلت للأمريكى لا يخفض السعر هل نعطيه العشرة الاف ؟

– لو وافقنا على العشرة سيطلب عشرين عليك بالمساومة ... استمر

استمرت المساومة والفصال فى السعر ساعتين وتظاهرنا ذات مرة إننا صرفنا نظر ومشينا فلم يحرك ساكنا فعدنا إليه فقال كنت واثق من عودتكم ...

قلت :

– كيف لا أثق يا أخى ...؟ لقد وجدتم حمارا لقطة كهذا بسعر بخس فكيف تضيعونه!

طلبت من سائق الجيب أن يسبقنا بعض الشئ وينتظرنا بعد مسافة على الطريق – كنا سنترك الحمار هناك ونركب الجيب ...

وبعد مساومة حادة يا سيدى استطعنا أن نرضيه بألفين وخمسمائة ليرة عددنا النقود فى يده –

وما كان من القروى يا سيدى إلاّ أن سلمنا بداية لجام الحمار فى أيدينا بعد أن أخذ قطعة الجوت التى كانت فوق ظهره قائلا:

– بارك الله لكم فيه

– على أى حال لقد تنازلت عن حمارى الأعرج الأجرب بهذا السعر الرخيص ولكن بارك الله لكم فى مالكم .

فغر الأمريكى فاهه وجحظت عيناه لقطعة السجاد التى فى يد

القروى ماذا سيحدث الآن ؟

فقال الأمريكى:

– أرجو ألاّ تظهر أى شئ ولنذهب قليلا بالحمار وبعدها وبدون أى اكتراث نعود ونقول له " أن ظهر الحمار مسلخ أعطنا هذه الرقعة لنغطيه بها ... حذارى أن يفهم الرجل أننا نطلب قطعة السجاد.

سحبنا الحمار من مخصمته وسرنا –عفوا– قلت سرنا – لقد سرنا قليلا والأمريكى يدفع من الخلف وأنا أسحب من الأمام وبالرغم من كل محاولاتنا أصر الحمار على عدم المشى فالحمار العجوز لم تعد به قوة للمشى ..

ولو خلصنا السجادة من يد القروى لتركنا الحمار وسرنا ..

كل ما استطعنا قطعة حوالى ما بين عشرين وثلاثين خطوة ونحن نجر ونسحب الحمار .. حتى سمعنا صوت الرجل

– انتظروا قفوا لقد نسيت شيئا للحمار

شملنا الفرح والسرور وقد ظننا أن الرجل سيقدم لنا مطلبنا بنفسه هرول الرجل إلينا وفتح مخلته وقال:

– يا عزيزى لقد نسيتما العمود الحديدى فعندما تنقلوه إلى أمريكا فبأى شئ سترىطان لم تفكرا قط .. فهل يمكن أن يشترى حمارا بدون عمود ؟ لقد ظهر واضحاً أنكما أعجمين فى هذا الأمر

– وأخذنا منه العمود الحديدى وفى طرفه حلقة فخاطبنى الأمريكى :

– هيا لقد حانت الفرصة اطلب منه السجادة الآن حذارى لا

تبدى شيئا قل له "اعطنا هذه الرقعة البالية..."

فقلت للقروى:

– هذا الحمار ضعيف – ومريض أيضا – سيبرد المسكين، وقد غطيته أنت بجوال قديم أو شئ كهذا – فاعطنا هذه الرقعة حتى نغطيه بها –

قال :

– لا .. لن أعطيكم الشوال أنتم اشتريتم منى الحمار وليس الشوال ...

– صحيح اشترينا الحمار – فلتغطيه بالجوال خاصة وأنه يبدو قذر وقديم ولا يساوى شيئا

– صحيح قذر وقديم أيضا ولكننى لن أعطيكم اياه .

– لماذا ..؟

– لن أفرط فيه يا سيدى – إنه ذكرى من والدى وقد ورثه عن جدى – إنه ذكرى الأجداد – لذا لن أفرط فيه .

– فقلت للامريكى "إن الرجل لا يوافق لأنه ميراث وذكرى من أجداده، فقال اسأله عن فائدة ذلك له"

فسألت القروى قائلا:

– ما فائدة هذه القطعة القذرة لك ..؟

فتقمص العجوز طورا جديدا فجأة وقال :

– ما معنى هذا ..؟

– كيف لا يكون لها فائدة لى .. الآن سأشترى حمارا أجربا آخر

وسأضعها على ظهره ولو لى نصيب سأصادف من هم مثلكما وبإذن الله سأبيعه هو الآخر إن هذا الشوال يجلب لى الحظ .. الحظ ..

– ألم أعطكما العامود الحديدى مجانا وبدون مقابل هل طلبت فى مقابله شئ ؟

– لندفع لك يا عمى بضع قروش وأعطنا هذا الجوال لنغطى الحيوان المسكين...

– بالله عليك كيف سأبيع الحمير بعد ذلك ؟

– منذ خمس سنين وأنا أبيع حميرا جرباء عرجاء بقطعة الشوال هذه .

– هيا مع السلامة بارك الله لكما فى مالكما .

فتأبطت الأمريكى خشيت أن يسقط مغشيا عليه من هول الموقف .– وبعد أن ابتعد القروى عنا بضع خطوات صاح قائلا :

– لو كنتم ستركبون الحمار فلا تتعبوا انفسكم وتجرونه مسافة بعيدة على الأقل حتى لا أتعب أنا فتركنا الحمار فى مكانه وسرنا على الأقدام حيث كان تنتظرنا العربة الجيب.

– قال الأمريكى خبير السجاد : هذا مالم أصادفه فى أى مكان آخر... لم يحدث مثله لى قط كلهم سواء .. ولكن هذه نمرة أخرى .

ركبنا الجيب .. وما زال العمود الحديدى فى يده .. لم يشأ أن يلقى به .. فسألته :

– ماذا سنفعل بهذا العمود الحديدى ؟

فقال :

– سأضع هذا العمود الحديدى بين مجموعة السجاد التى جمعتها طوال حياتى – ليكون ذكرى .. إنه عمود قيم .. لقد أخذناه رخيصا .. ألفين وخمسمائة ليرة فقط .

حقا .. فضحنا أمام العالم .. فضيحة .. وأخذ يضرب رأسه وخديه بيديه وهو يردد فضحنا، فضيحة .. رزالة ..

١٥- آه .. نحن معشر الحمير

كتبت هذه القصة فى الأيام التى أصبحت فيها حرية الرأى والكلمة والصحافة حبراً على ورق. وفى الوقت الذى كُمّت فيه أفواه المثقفين. وكان الهدف من كتابتها هى ذم المثقفين السيئين الذى أوصلوا الشعب إلى ما وصل إليه، لأنهم لم يكونوا ينتفضون أو يصرخون إذا كانت الكارثة لا تمس مصالحهم الشخصية الضيقة. ونشرت هذه القصة فى ذاك الوقت.

آه منّا ! آه نحن معشر الحمير، كنا نحن معشر الحمير فى الأزمان الغابرة نتكلم مثلما يتكلم الآن معشر البشر.. كان لنا لغة خاصة بنا.. كانت هذه اللغة جميلة كالموسيقى تقع فى الأذن فتطربها. كم كانت لغتنا جميلة. وكم كانت أغانينا رائعة. منذ أول يوم أصبحنا فيه حمير ونحن نتكلم باللغة الحمارية. ولم نكن نتكلم

مثلكم باللغة الإنسانية، لأن اللغة الحمارية كانت لغة حلوة.. غنية.. رقيقة ومتناسقة.

نحن معشر الحمير لم نكن ننهق مثلما ننهق الآن إذ أننا تعلمنا النهيق فيما بعد.

وكما تعلمون فنحن نحاول التعبير عن عواطفنا وأحاسيسنا واحتياجاتنا وآلامنا وأفراحنا بالنهيق وذلك إن كان الحديث بيننا نحن معشر الحمير أو بيننا وبين أسيادنا البشر.

ما هو النهيق ؟! إنه ذلك الصوت الذى يخرج بأحرف ممدودة وخشنة ثم تنتهى بأحرف متقطعة قصيرة كما يلى (عا ااا ء، عا ااا ء ، عا ااا ء ، ا ع .... ا ع) كما ترون لقد حذفنا وحذفنا من لغتنا حتى أصبحت عبارة عن كلمة مؤلفة من حرفين أو ثلاث أحرف. كيف يمكن لمخلوق أن يعبر عن كل أحاسيسه بكلمة واحد ؟!..

ما الذى حصل حتى ماتت اللغة الحمارية الغنية وبدأنا بعدها نحن معشر الحميق بالنهيق ؟!.. ألا تتشوقون لمعرفة سبب ذلك ؟! إن كنتم متشوقين للمعرفة سأشرح لكم: لقد شُلّت لغتنا بعد حادثة مخيفة أودت بعقولنا.. ونسينا اللغة الحمارية إثر هذا الشلل.. ومنذ ذاك اليوم ونحن نعبر بكلمة واحدة عن كل أحاسيسنا.

إن حادثة شلل لغتنا قديمة قدم التاريخ.

كان يعيش فى إحدى الغابات حمار من الجيل القديم، وفى إحدى المرات كان يأكل العشب وحيداً ويغنى وفى هذه الأثناء شمّ رائحة ما. لم تكن هذه الرائحة محببة له، إذ أنها كانت رائحة ذئب.. قال

الحمار العجوز وهو يهدئ من روعه:

– كلا يا روحى.. ليس ذئباً.

وعاد يأكل العشب ولكن رائحة الذئب تزداد شيئاً فشيئاً.. من الواضح أن الذئب يقترب واقتراب الذئب يعنى الموت المحقق.

وبدأ الحمار العجوز يهدئ من روعه مرة أخرى:

كلا إنه ليس ذئبا .. ليس ذئباً.. ولكن الرائحة ازدادت أكثر.. بدأ خوف الحمار العجوز يزداد ومن جهة أخرى تصرف كأنه غير موجود:

إنشاء الله، لا يكون ذئباً، من أين سيأتى الذئب إلى هنا، ومن أين له أن يرانى؟!

وهكذا وفى الوقت الذى كان يخادع فيه نفسه سمع أصواتاً معينة، ولكنها ليست أصواتاً جميلة إذ أنها كانت أصوات ذئب. أصغى الحمار العجوز بدقة: نعم.. إنه صوت ذئب. ولأن قلبه غير راضٍ عن مجئ الذئب إلى هنا، قال:

– كلا يا روحى.. إن هذا الصوت ليس صوت ذئب. إننى أتوهم ولهذا أحسبه صوت ذئب وعاد إلى أكل العشب. ولكن الصوت بدأ يزداد شيئاً فشيئاً...

خادع الحمار العجوز نفسه:

– لا ليس صوت ذئب.. لا يمكن أن يكون صوت ذئب.

أصبح قريباً جداً هذا الصوت والحمار العجوز يحدث نفسه قائلاً:

– لا .. لا .. أرجو أن لا يكون ذئباً.. ثم أليس للذئب عمل يقوم به حتى يأتى إلى هنا،

ومن جهة أخرى كانت عيناه تفحصان المحيط من حوله من جراء الخوف الذى امتلك حواسه وفجأت نظر إلى الأمام فرأى الذئب قادماً بسرعة من على قمة الجبل المقابل ضمن عمود من الغبار الذى يطاير فى السماء وكان صوته يملأ الأفق فقال:

– (أ – هاء) إن الذى أراه شيئاً آخر وليس ذئباً.

وضع رأسه بين العشب وتابع قائلاً:

– هكذا خيل إلىّ على ما يبدو، إن ما رأيته خيال. نعم، نعم لا شك بأنه خيال

وبعد قليل ازداد خوفه أكثر عندما رأى الذئب وهو قادم إليه من بين الأشجار، ولأنه يتمنى أن يكون ما يراه ليس ذئباً عاد لخداع نفسه من جديد:

– أراهن على أنه ليس ذئباً، لا يمكن أن يكون ذئباً ذلك المخلوق الذى يحرق ذيلى بلهيبه.

وعندما لامس أنف الذئب الرطب مؤخرة الحمار، كان هذا الأخير قد نفدت كل طاقته، أدار رأسه إلى الوراء فرأى الذئب وهو يوشك أن يثب عليه ولم يبق للحمار أية طاقة للركض خاصة وأنه أصبح قريباً جداً من الذئب. أغمض الحمار العجوز عينيه كى لا يرى نظرات الذئب القاسية وقال:

– لا .. لا .. ليس ذئباً، إنشاء الله لا يكون كذلك، ولِمَ يكون ذئباً؟!

وفى الوقت الذى غرس فيه الذئب مخالب ذراعه اليمنى فى مؤخرة الحمار، قال الحمار:

– أعلم.. أعلم أنك لست ذئباً.. لا تلعب فوق ظهرى، إنك تدغدغنى كما إننى لا أحب لعب الأيدى..

عض الذئب الجائع ظهر الحمار بأسنانه فقطع قطعة كبيرة من اللحم وبدافع غريزة حب البقاء وقع الحمار على الأرض وشُلّ لسانه ونسى اللغة الحمارية التى كان يعرفها .. وبعد أن هاجم الذئب عنق الحمار بدأ الدم ينفر من كل أطراف جسمه، وهنا أيقن الحمار بالخطر المحدق فصار يصرخ:

– عاء .. عاء .. إنه ذئب .. عاء .. عا ااا ء .. إنه هو.

الذئب يقطعه بأسنانه وهو يئن ويصرخ:

– عا عا ... إنه هو .. عا عا .. أو أو إى إى .. أ أ أ ى ى ى .

وفى هذه الأثناء وصل صراخ الحمار الذى تفتته أسنان الذئب إلى آذان كل الحمير المجاورة: عا عا عا .. إى ى ى .. عا ااا عا ااا عا ااا .. إى ى ى .

وبعد هذه الحادثة، ومنذ ذلك اليوم نسينا، نحن معشر الحمير الكلام وصرنا نشرح كل احتياجاتنا وعواطفنا بالنهيق. هذا الحمار العجوز الذى ينتمى إلى الأجيال القديمة لو أنه صرخ أو هرب عندما أحس بوجود الذئب أو باقترابه دون أن يخادع نفسه، آه ولو أنه وجد وسيلة للهرب دون أن ينتظر حتى يكون قاب قوسين، أو أدنى من الموت.

لكنّا، نحن معشر الحمير.. حافظنا على لغتنا الجميلة ولكنّا نتكلم الآن بها.

آه نحن معشر الحمير، آه نحن قوم الحمير... آه آه .. عا ااا ء عا ااا ء آه آه آه .

١٦- ذنب الكلب

أول ما لفت نظرى فى القرى التى تجولت فيها، أن للكلاب أجساماً ضخمة ولكنها بدون أذناب.

لقد عرفت أمراً واحداً عن الكلاب. إذا أراد أحدهم أن يصبح كلبه ضخماً وشرساً، فإنه يقطع أذنيه ويرش عليهما الملح والفلفل ويطعمهما للكلب نفسه. ولكنى لم أعرف ما هى الغاية من قطع ذنب الكلب (قلت ذلك للأستاذ الذى كان يرافقنى فى زيارتى للقرى).

– أجابنى الأستاذ (الذى نظن أنه يعرف كل شئ): قد تكون نوعية الكلاب هكذا، بدون أذناب.

ثم سألت العجوز الذى استضافنا فى منزله الكائن فى مدخل القرية حول هذا الموضوع:

– هل يمكن أن تكون هذه الكلاب من أنوا ع لا تملك أذناباً ؟

– ضحك العجوز وقال: سأقص عليك هذه الحادثة حتى لا تشغل رأسك فى التفكير.

فى أحد الأيام، أرسل مدير الناحية أمراً إلى الأهالى، يطلب منهم قتل ثلاثين خنزيراً فى هذا العام. طبعاً، لقد أثار هذا الأمر دهشة الجميع الذين اجتمعوا وقالوا لى:

إنك أكثر دراية وخبرة، وأوسعنا معرفة وإطلاعاً، نرجوك الذهاب إلى مدير الناحية لاستطاع الأمر ومعرفة ما يطلبه بدقة.

قابلت مدير الناحية، وبدأت حديثى معه:

– يا سيدى لقد أمضيت أربعة عشر عاماً فى الجيش، خدمت فى اليمن وطرابلس، وشنق قلعة والقفقاس وأماكن كثيرة أيضاً.

– لا تكثر الكلام، لقد أديت واجبك تجاه الوطن، فهل تنتظر شيئاً مقابل أداء هذا الواجب؟

– استغفر الله يا سيدى، لم أقصد هذا.. بعد ذلك تطوعت للمشاركة فى حرب الاستقلال، جمعت الشباب من حولى، وصعدنا الجبل بعد أن تلقيت أمراً رسمياً من قيادة المجموعة.

– إنك بكثرة أحاديثك وطول لسانك تعطل أعمال الدولة، وتشغلنى بكلام فارغ، قل ماذا تريد بسرعة.

– انتصرنا فى الحرب، والنصر من عند الله، ثم عدنا إلى القرية مثخنين بجراح السيوف وشظايا القنابل والرصاص.

– هل تريد أن يُخصص لك معاش تقاعدى بسبب خدمتك للوطن؟ ألا ترى كم يعانى هذا الشعب الفقير ؟

– هل تظن يا سيدى أنى لا أرى أو أشعر بذلك ! فى الأسبوع الماضى حجز جابى الضرائب على الفدَّان الوحيد الذى أملكه، ومع ذلك أقول: الحمد لله فقد أعطتنى الدولة ما بوسعها. لدىَّ الوسام الأحمر، والثناءات الممهورة بالنجوم. فى أحد أيام الشتاء حضر الأستاذ إلى قريتنا وسردت على مسامعه ما مرَّ معى من حوادث، وكان يستمع إليها بدقة وعناية ويسجلها على دفتر مذكراته. مرت الأيام وانتقل الأستاذ إلى مكان آخر. وذات يوم نزل أحد شباب القرية إلى المدينة للدراسة، وعندما رجع فى عطلته الدراسية قدَّم لى صحيفة وقال:

– يا خالى الشاويش إن هذه الصحيفة تتحدث عنك.

– إذاً باع الأستاذ قصة حياتى للصحيفة. طبعاً لم آخذ فلساً واحداً، ولم أطالب الأستاذ ولا إدارة الصحيفة ولا غيره بشئ، ولكن الدولة منحتنى رتبة ملازم أول، وكانت تدعونا سنوياً للعاصمة للمشاركة فى الاحتفالات، والآن أصبحت مسناً عاجزاً، ولم أعد أقوى على السير أو الوقوف طويلاً. وفى المناسبات كنت أرتدى بزَّة الضابط واضعاً السيف على جانبى والأوسمة على صدرى. أما الآن، مع هذه اللحية البيضاء وهذا اللباس فلم تعد مظاهر اللياقة واضحة ومناسبة، إضافة لذلك فإنى لا أستطيع شراء سروال يليق بمقامى ؟ فكيف لى ببزَّة ضابط محترم. إنهم يريدون جبر خاطرى، فلهم جزيل الشكر.

– مدير الناحية: هكذا إذن، ماذا تريد ؟ هل تريد أن ينصبّوك

باشا ؟ لقد درست عدة سنوات وما زلت برتبة رقيب.

– يا سيدى لا يخدعنَّك مظهرى هذا. عندما كان تحت إمرتى خمسمائة خيَّال وألف من المشاة، كنت أطارد الكفار وأضيق عليهم الخناق، الآن لم يبق من العمر إلا القليل، ولست أطالب بشئ.

– إذن ماذا تريد ؟

– أنا مندوب من قبل الفلاحين، بخصوص أوامركم القاضية بأن نقتل ثلاثين خنزيراً فى هذا العام، وسبب إزعاجى لكم، هو أنه لا يوجد أحد فى قريتنا يعرف الخنزير ولا من رأى وجهه، إلا أنا فقد رأيته فى جبهة غاليتيا، كان يرأسنا وقتها ملازم اسمه أدهم – وقد توفى رحمة الله عليه – ولو أن اثنين من أمثالك تعلقا بشاربه لاستطاع أن يرفعهما ويوازنهما.

– وفى إحدى الليالى قمنا بجولة استكشافية. حينما لم أعرف كيف أصابتنى تلك الرصاصة الطائشة، عندها سمع الملازم أنينى فسألنى: هل جرحت أيها الرقيب ؟ قلت له: لا يا سيدى، ولكنه عندما رآنى تأخرت عن الفرقة الاستكشافية، حملنى على ظهره وأخذنى إلى المستوصف الألمانى، وعندها رأيت الخنزير.

كان الألمان يربّون الخنازير، ويقدموها فى المطاعم، أما أنا فلم أتناول لحم الخنزير حتى عندما كنت فى المستشفى. اعذرنى يا سيدى، وجّعت لك رأسك، المسنون يتكلمون كثيراً. المهم فى قريتنا أننى الوحيد فيها من شاهد الخنزير.

عندئذ احتد المدير قائلاً: اسمعوا يا سادة، لا أريد أن أسمع

المزيد، ما يهمنى هو أن تقتلوا الخنازير فقط.

– ولكن يا سيدى، لا يوجد خنازير فى قريتنا ولا فى المنطقة كلها أيضاً، نحن لا نعلم عن الخنزير إلا اسمه، فإذا أزعجنا أحدهم، فإننا نشتمه بأن نقول له: أنت خنزير، وقد نقول له أنت خنزير ابن خنزير، نقول ذلك ونحن لا نعرف الخنزير.

– عندها أحضر مدير الناحية رزمة من الأوراق وقال: أنتم جهلة، انظروا ماذا يوجد فى هذه الأوراق، هل تعرف القراءة ؟!

– لا.

– أنت ملازم ولا تعرف القراءة.

– وما الضير فى ذلك يا سيدى.

– اسمع، المعلومات الموجودة فى هذه الأوراق تقول أن الخنازير هو المخرب الأساسى لمحصول الذرة، والذرة هى المدخول الأساسى للوطن، ولذلك من أجل زيادة المحصول وزيادة المنفعة ينبغى قتل الخنازير، هل تفهم ؟ يجب أن تموت الخنازير.

– فهمت يا سيدى، يجب أن تموت الخنازير، إذاً أحضروا لنا الخنازير ونحن نقتلها، ثم إننا لا نزرع الذرة، وأجدادنا لم يزرعوا الذرة، وأجداد أجدادنا لم يزرعوها أيضاً.

– ازرعوا الذرة يا سيد، بدلاً من الجلوس هكذا، ازرعوها، عندها تأتى الخنازير ثم تقتلوها وبذلك ينفذ أمر الدولة.

– نحن نزرع يا سيدى، ولكن أراضينا غير صالحة للذرة، فالشتاء عندنا طويل والثلج يغطى الأرض من ستة إلى ثمانية أشهر.

– قال غاضباً: إنكم تجدون لكل شئ أعذاراً، فى أمريكا يزرعون الزهور فى القطب. أنتم لا تتعلمون شيئاً.

عندئذ نفد صبرى وقلت:

– قولوا للذين أصدروا هذه الأوامر، أن يمنعوا سقوط الثلج هذا العام، فنزرع الذرة، ثم تأتى الخنازير فنقتلها.

– انتظر، أنت تسخر من موظفى الدولة، وهذه عقوبتها تبدأ من السنتين على الأقل.

– استغفر الله يا سيدى، ومن نكون نحن حتى نسخر من شخصيتكم الكريمة، ولكن لا خنازير لدينا.

– انظر، قل لى، هل أنت أكثر معرفة بوجود الخنازير من المسؤولين الذى أصدروا هذه الأوامر.

– نحن جهال، من أين لنا أن نعلم، ولكن فى القرية لا يوجد خنازير.

– إن الذين أصدروا هذه الأوامر أصدروها عن دراية، بعد أن درسوا الخرائط والكتب وبنتيجة ذلك توصلوا إلى معرفة وجود الخنازير فى القرية. ولكنكم لا تعلمون بوجودها، افتحوا أعينكم.

– لقد فتحناها يا سيدى، ولكن فى القرية لا يوجد خنازير.

– أنتم ناكرو المعروف وعديمو المعرفة، نحن نناضل من أجلكم، من أجل أن تصبحوا بشراً، لقد أشرف على هذا الأمر وزير الزراعة شخصياً. وأرسل إلى جميع المدن طالباً من كل محافظة عدداً معيناً من الخنازير، لذلك بلَّغ القائمقام. والقائمقام بلغ مدير الناحية وأنا

بدورى بلغتكم، ووزعت الحصة بالتساوى على جميع القرى. وكان نصيبكم أن تقتلوا ثلاثين خنزيراً.

– يا سيدى المدير، إذا تكلمنا عن الجهل فنحن جهلة، وعن الغباء فنحن أغبياء، ولكن فى قريتنا لا يوجد خنازير.

– إذاً وزير الزراعة والخبراء الذين درسوا فى أوروبا سنوات طوالاً، والمستشار والمحافظ والقائمقام وموظفو الزراعة جميعاً جهلاء. أنتم فقط تعرفون، هل رأيت مدى سوء الجهالة. هل رأيت إلى أين وصلت إهانتك ؟ بدأت منى وانتقلت إلى القائمقام ومنه إلى المحافظ ومنه إلى .. هل رأيت إلى أى حد وصلت الإهانة ؟

– استغفر الله يا سيدى.

– استغفر الله أو لا تستغفره، هذا ليس من شأنى.

ثم وقف وجلس مكانه مرة ثانية وقال:

– الدولة لا تريد منكم الخنازير بلا مقابل، أنتم تحضرون أذناب الخنازير المقتولة، وأنا أعطيكم بها وصل، مصدَّق من مدير الزراعة. ماذا تريدون أكثر من ذلك. حقاً إن الجميل لا ينفع معكم، هناك مكافحة عامة الخنازير فى كل أنحاء البلد، هل تفهمون ذلك ؟ الآن أخبرنى بكم كيلو القمح .

– المصرف يأخذ الكيلو بثمانية قروش.

– إذاً ذنب الخنزير الواحد يعادل كيلو ونصف من القمح، لو كنت مكانكم لتركت العمل فى الحقول واشتغلت بتجارة الأذناب. هيا انصرف لا أريد المزيد من الكلام، فالأمر هو أمر، إذا لم تقتلوا

الخنازير، سأرسل الجندرمة إلى القرية، وهم يعلمونكم كيف يكون القتل.

– الله يعطيكم طول العمر يا سيدى. ثم انصرفت

ذهبت إلى القرية وأخبرت الأهالى بالتفصيل ما جرى معى عند مدير الناحية، فاقترح أحدهم أن نربى الخنازير ثم نقطع أذنابها، ولكن الأهالى رفضوا هذه الفكرة إذ أنهم لا يسمحون بتربية الحيوانات الضارة فى القرية.

ولكن شخصاً يؤدى خدمته الإلزامية، أخبرنا أنه يوجد الكثير من الخنازير فى مكان خدمته.

فقال لى الأهالى: يا حضرة الشاويش، ما رأيك لو تذهب أنت إلى هناك وتأتينا بثلاثين ذنباً. فالمكان يبعد عن قريتنا مسافة يومين بالقطار.

لذلك قلت لهم: إن سعر الذنب الواحد ١٢,٥ قرشاً، فما رأيكم لو أحضر الكثير منها، حتى أسدد أجرة الطريق.

فى النهاية قررنا ذلك، وسحبنا قرضاً من المصرف. وأخذنا كيسين وانطلقنا إلى ذلك المكان، هناك الكثير من الخنازير، ولكن هل أنا الذكى الوحيد فى البلد ؟ لا، فقد كان هناك الكثيرون من أمثالى ممن ذهبوا ليشتروا أذناب الخنازير.

سعر الذنب الواحد خمسة وعشرون قرشاً.

ونحن سنبيعه باثنى عشر قرشاً ونصف فقط، أين أجرة الطريق إذاً، وأين أتعابنا.

بعد مساومة وجهد كبيرين أخذت مئتى ذنب بسعر خمسة عشر قرشاً للذنب الواحد، ووقفت أتكلم مع الناس فى السوق.

– أيها الرجال ألم تشاهدوا ذنب الخنزير من قبل.

– لماذا. ما الذى جرى ؟.

– هذا ليس ذنب خنزير بل ذنب كلب.

فالمحتال إذن باعنى ذنب كلب بدلاً من ذنب خنزير، لقد وضع أذناب الكلاب فى زيت الزيتون، ثم خدعنى بها، والآن ماذا سنفعل ؟

لا تفعل شيئاً، خذ الأذناب واقطع قليلاً من أطرافها، وزيتها مرة أخرى، ثم خذها إلى مدير الزراعة، وهو لن يشعر بالخدعة.

الطريق طويل والهواء ساخن، ورائحة الأذناب بدأت تفوح فى القطار.

عندما وصلت إلى القرية أسرع الأهالى إلىَّ وقالوا: يا حضرة الشاويش لقد بدأت الآن مكافحة الغربان، مدير الناحية يطلب مئتى رأس غراب.

ليس هناك أكثر من الغربان، عليكم باصطيادها، قد تبدأ مكافحة الجراد بعد خمسة عشر يوماً. ولكن ابتهلوا لله حتى لا يطلبوا منكم رؤوس الجراد أيضاً.

علم أهالى القرى المجاورة بوجود أذناب الخنازير، وأصبحت قريتنا مقصداً لهم فكانوا يأخذون الذنب بنصف قيمته.

المهم أخذنا الأذناب إلى مدير الناحية الذى قال: هل رأيتم ؟ إذاً يوجد لديكم أذناب، ولكنها أذناب خشنة، أى نوع من الخنازير وجدتم ؟

ومنذ ذلك اليوم لم يأتِ أحد لزيارتى، لأنى أمسكت ذنب الخنزير بيدى، ولم يصافحنى أحد، جمعت بعض وجوه القرية، وقلت لهم: الذنْب ليس ذنبى، لقد خدعونى، وأنا بدورى خدعت مدير الناحية، الأذناب التى أتيت بها هى أذناب كلاب وليست أذناب خنازير.

ومن ثم أخبرتهم القصة بالتفصيل لقد سمع أحد الأذكياء القصة، فبدأ التجارة بأذناب الكلاب، حتى لم يبق فى المنطقة كلب واحد له ذنب، لقد أصبح تاجراً كبيراً فى الأذناب.

ذات مرة التقيته فى المنطقة، سألته: – كيف حالك ؟

قال الحمد لله نعيش بفضل أذناب الكلاب.

١٧ - رفعت بك لماذا يهرش؟

Rifat Bey Neden Kasiniyor ?

ألو – آلو – رفعت بيك ! مرحبا أستاذى

– سامحك الله يا أخى .. أين أنت ؟

– منذ متى ولا أحد يراك ..

– عزيزى كمال – هل أنت هو ؟ آه كمال بيك –

– لقد انشغلت عليك – والله – عندما أراك فى وليمة السيد الولى

– ولم يرك أحد أيضا فى أمسيتنا فعندما لا تتواجد معنا – فلا يكون هناك طعم للجلسة – فالإنسان حتى هذا الزمان ...

– لا تسأل – لاتسألنى عن حالى –

– خيرا ماذا حدث .

– أنا مريض .

– ألف لا بأس عليك يا عزيزى أحزنتنى جدا، ماذا بك ..؟

– عندى أورتكير

– ماذا بك ..؟

– أورتكير – أورتكير ..؟

– نعم – أهرش بدون توقف ولكن بشكل فظيع يا أخى .

– إذا أنت تهرش – ياه –

– أهرش – وكيف يمكننى أن أصف لك حالى

– أين تهرش أكثر ..؟

– فى كل جسمى – لا يوجد مكان فى جسدى لا أهرشه

– يا الله – لابد أنه مرض الحساسية الذى يتحدثون عنه ..

– نعم – نعم الدكتور يقول ذلك .

– ولكن ما السبب يا عزيزى ؟ ولماذا تهرش ..؟

– والله يا أخى – لا أفهم بالضبط .. فى المنزل كانوا قد طبخوا ديك رومى محشى يليق بفمك – وكان رائعا – لم أستطع أن أقاومه أكلت ثلاثة أطباق – أيكون هذا هو السبب يا ترى .؟

– لا يا عزيزى – معقول ٣ أطباق من ديك رومى محشى تسبب أورتكير ؟ لو كان كذلك لأصبت أنا بها منذ سنين – فكثيرا ما آكل ديك كامل ولا يصيبنى أذى ..

– ألا يحدث هرش

– قطعيا .. لا ..

– ولكنى أكلت يخنى قبل الرومى ..

– أى يخنى ..

– يخنى كلاوى ..

– يعنى كلاوى سوتيه – ومن قال أن هذا يسبب الهرش ..؟ لابد أنك أكلت شيئاً آخر ربما ذلك .. صحيح أكلت شئ آخر .. ولكن ماذا؟

– لا أذكر بالظبط .. تذكرت .. لقد تناولت بعض من سلطة الزبادى بالخل والثوم – لفتح الشهية..

– لا يا سيدى .. الثوم لا يسبب ذلك إنه يرطب الجسم ...

– ماذا يرطب .. !

– فأنا أهرش بشدة .. بشدة فليكفيك الله شر ذلك.. آه.. ألا يمكن أن يكون من الهريسة ؟ فقد تناولت بعضا منها بعد الأكل ...

– بالهناء والشفاء .. ولكن كما ترى ها أنا ذا أهرش ..

– يا عزيزى .. لا تفترى على الهريسة .. فأنا أكلت منها أمس طبقين ولا شئ – قط – لابد أنك أكلت شيئا آخر سبب لك هذا ..

– أكلت – يا ترى ماذا أكلت ..؟ فى العشاء أكلت استكاوزا بالمايونيز أيمكن أن يسبب ذلك ؟

– لا يمكن يا عزيزى .. ثابت بالتجربة أن الإستاكوزا بالمايونيز لا تضر على الإطلاق.

– ولكنى أكلت طبقين منه ..

– لا طبقين ولاحتى عشرين طبق يضروا – طالما عليه المايونيز فلا يسبب أى ضرر – ولا هرش .. أنا شخصيا من المعجبين جدا بالاستكاوزا .. خاصة بالمايونيز ..

– حسن .. إذا فلنأكله سويا إن شاء الله ذات يوم ..

– إن شاء الله المهم أن تتحسن الآن .. معنى ذلك أنك لم تعرف بعد ما سبب الهرش لدى – أخشى أن يكون السبب القشدة مع الكنافة والقطايف –

– بالله عليك يا رفعت بيك – هل هذا كلام – لو كانت القطايف أو الكنافة بالقشدة تضر – لكان علينا السلام.

– ولكن الكنافة والقطايف التى أكلتها كانت مغطاة بأربعة شرائح من الزبد.

– وعلى فكرة القشدة لا تسبب الهرش .

– حسنا .. فلماذا أهرش إذا ..؟

– لا بد أنك أكلت شيئا آخر ..

– يا إلهى .. يا عزيزى – أنا لم أبتلع ملح الهرش أو "بودرة العفاريت" كل ما هنالك أن تناولت كم أصبع موز .. وفى البيت اشتروا اليوم جوز هند – فأكلت منه ..

– هل أكلت كثيرا ..؟

– إيه – لا يعد كثيرا .. واحدة ونصف فقط جوز هند

– جوز الهند دواء يا رجل لايضر – فاكهة مباركة .

– لماذا إذا أصابتنى الحساسية وهذا الهرش .. ربما تشخيص الدكتور خطأ – فهذه ليست "أورتكير" حساسية.

– إذا لم تكن حساسية – فلماذا أهرش بهذه الشدة .

– ليس كل الهرش سببه الأورتكير – الحساسية

– ماذا يكون ..؟

– يكون شيئا آخر ..

– آه .. تذكرت قبل النوم تسليت ببعض الياميش شوية لوز بالملح .. مع بعض البندق المحمر مع قليل من الفستق أخشى أن يكون هذا هو السبب ..!

– ما هذا يا عزيزى ! إن هذا هو تسليتى فى الفراش ليلا.

– ألا تهرش ؟

– أبدا الجوز واللوز والفستدق والبندق يقوى يا عزيزى ..

– سيدى .. لابد أن الحليب كان دسما بعض الشيئ فأنا فى كل ليلة قبل النوم مباشرة أشرب كوبا من الحليب .. وليلة امس بالذات شربت كوبين ..

– الحليب شفاء يا رفعت بيك .. الحليب على العكس تماما يهدئ الأعصاب .. ويمنع الهرش. أنا كل يوم أخلط بيضتين طازجتين فى اللبن وأشربه صباحا .. ألا يكون من ذلك ..؟

– لو كان هذا يسبب الهرش لكان لزام على ألاّ أهرش منذ ٣٠ سنة

– قبل أن يبدا الهرش بليلة واحدة .. أكلت كافيار .. كافيار أسود .. مزجته بالزبدة الطبيعى وكان بجانبه بعض الجبن .. أيكون الجبن الرومى هو السبب .. لقد أكلت من الكافيار كثيرا.

– كل ما شئت .. فليس للكافيار ضرر.

– أنا لم أقل أنه مضر قلت إنى أهرش.

– ما عليك إلا أن تتذكر جيدا ماذا أكلت غير ذلك ..

– غير ذلك .. غير ذلك ؟ أنا لا استطيع أن أتذكر ماذا أكلت ليلة أمس – فكيف أعرف ماذا أكلت منذ أسبوع .. أخشى أن يكون من "الدولمة" المحشى فلحمة أوزى المحمر ومعه محشى .. أجارك الله

– أى محشى ؟

– محشى باذنجان بزيت الزيتون .. لا أذكر بالضبط كم أكلت خمس أو ستة .. أم سبع وحدات !

– أكان بزيت الزيتون ..

– نعم .

– زيت الزيتون خفيف لا يضر ماذا غير ذلك ..

– قليل من مكرونة بالجبنة الرومى ؟ كانت فى الفرن يا أخى هل الخل مضر ؟

– هل شربته ؟

– لا .. كان مع السلطة .

– بالعكس السلطة مع الخل تهضم .

– ولكن كان فيها فلفل حار ولكنى شربت بعدها مياه معدنية.

– فكر جيدا ماذا أكلت مما يسبب الحساسة

– ماذا أكلت ؟ ماذا أكلت ؟ ماذا أكلت ؟ لم آكل بل شربت – ويسكى بالصودا .. ولما وجدت أن معدتى حميت، شربت كأس كوكتيل وبعدين بلعت ملعقة كربونات – ها تذكرت لقد أكلنا كباب فى مطعم – وبعدها ثلاث لفائف من اللحم وواحد أرز بالكلاوى .. وواحد

بلغور بالصلصة، وكان عليه خردل كثير أنا أحب اللحم بالخردل ... حتى هذه اللحظة ما زال الهرش مستمر .. التليفون فى يد وباليد الأخرى أستمر بالهرش .. وأكلت بوريك ألا يكون هو السبب وأكلت طبق سلطة خضراء ولكن هذا لا يضر – ولا يؤثر بشىء

– فعلا لايؤثر بشئ

– والكوارع بالحمص .. ؟ اشتهتها نفسى منذ عدة أيام .. قالت زوجتى إن الجو حار ولكننى أصريت فطبخوها ولكن كانت لذيذة فعلا – هل أكلت منها كثيرا ..؟

– لا طبقين فقط.

– ألم يقل الدكتور ما هو السبب ؟

– لقد قلت للدكتور عن كل ما أكلته .. فقال " إن الغذاء والتغذية لا تضر . فأنت لم تأكل شيئا مضرا .. "أيفعل الطرشى هذا "

– طرشى ماذا .. أى نوع ..؟

– خليط .. وأكلت عليه قليل من اللوز المبشور.

– لو كان اللوز المبشور يسبب الحساسية أو هذا الهرش لأغلقت كل دكاكين الياميش أبوابها.

– إذا يا ترى من أى شئ حدثت تلك "الاورتيكريا"

– فكر بعمق وتذكر بهدوء ماذا أكلت فى هذه الأيام .

– يا عزيزى .. أنا لم أكل أى شى مضر . وأنت تدرى جيدا أن شهيتى ليست على ما يرام هذه الأيام بالذات – ولو حدث وازدادت الكمية بعض الشئ، أكل زبادى فورا لتسهيل عملية الهضم.

– يا عزيزى المسكين ألم تتناول خبزا فى هذه الأيام الأخيرة

– خبز ؟

– نعم .. خبز .

– أى خبز ؟

– الخبز العادى ..

– ذلك الخبز الذى يسوى فى الأفران

– إن الخبـز مضـر لى كمـا أنه يـزيد من وزنى ولـذلك فـأنا بـالكاد آكل شريحة واحدة من خبز التوست. آه، تذكرت لقد أكلته .. أكلت خبـزا كان عندنا ضيوف ولم يكن فى البيت توست ولم يكن فى الفرن أيضا ولم يجدوا شطيرة عند بائع الفرن.

– اضطررت أن آكل نصف شريحة من الخبز العادى ..

– تمام .. هذا هـو السبب يا عزيزى – إن حسـاسيتك وهـرشك من هذا الخبز .. هل قلت للدكتور إنك أكلت خبزا ؟

– لا – لا، لـم أتـذكـر – حسـنـا أن فـكـرت أنت هـكـذا – صـحـيح لابد أن أالاورتكير" حدث لى من الخبز .. لقد مزقت جلدى من الهرش ليتك ترى حالى.

– أحمد الله أنك اكلت نصف شريحة فقط وحدث لك هذا .. فماذا كان سيحدث لو أكلت شريحة كاملة .. لابد أنك كنت سترفس وتصهل حمدا لله على سلامتك يا عزيزى رفعت ..

– أشكرك يا عزيزى

– سأحادثك مرة أخرى – إلى اللقاء .

استودعك الله يا عزيزى .

١٨- عرق الجبين

Alin Teri

كان صديقا عزيزا أحبه .. كان يجب أن أراه .. ولكن انقضت ثلاث سنوات .. كيف لا أحبه .. فقد تقاسمنا أيام الفقر والفاقة بصداقة .

كنا نأكل سويا السميطة الواحدة بعد غمسها فى كوب من الشاى .. كان قد أعطانى معطف مطر قديم .. ولما كان سروالى وسترتى تملأهما الثقوب

فلم أكن أنـزع عن نـفسى هـذا المعطف الثـقيل حتى فى أيام الصيف الحارة وكان العرق يتساقط منى وكأنه صنبور عين حارة .. وكان زميل دراسة قد أقرضنى ألفى ليرة قائلا – خذ هذا المبلغ وأعمل به شيئا .. ولما كنت ممن لا يفلحون فى مثل هذه الأعمال طوال حياتى .. فقد أحضرت هذا المبلغ ووضعته بين يديه .. فقد كان هـو يرى فى نفسه أنه رجل أعمال لا مثيل له .. وكان كل الذين

يعرفونه قبلى يعترفون له بذلك .. فقد كان ملك السوق السوداء فى استانبول .. يعمل فى إمرته ما بين أربعين وخمسين من سماسرة السوق .. كان يكسب يوميا ألفا أو ألفين ليرة خالصة .. ثم انقلب به الحال فأفلس .. وأنا من ناحيتى .. لدى طبيعة .. فأينما يوجد المفلسون .. أو هؤلاء الذين أضاعوا ميراثهم .. فأينما وجدوا .. ابحث عنهم .. أجدهم ... وأعقد معهم صداقة ..

منذ أن عرفته .. ربما يكون قد أفلس عشر مرات متتالية لدرجة أنه أصبح يطرد أى مدين يطالبه بالدين . ولكنه لم يفقد الأمل قط فى أنه سيصبح غنيا ... ما أن تسوء أمور الإنسان حتى تسير إلى منتهاها .. فإن الألفى ليرة التى أخذتها من زميل الدراسة القديم ... والتى قدمتها إليه لم تصلح حاله .. هذا الفشل جعلنى أنا لا أطالبه .. ولم يتنكر هو لصداقته .. ثم قمت أنا بقدر ما سمحت به الظروف بتسديد مبلغ الألفى ليرة تقسيطا لهذا الصديق ..

مضت كثير من الأحداث مما أفسد هذه الصداقة لدرجة ما .. وفقدنا بعضنا البعض ..

وبينما كنت أتحدث مع صديق آخر عن الزمن الماضى .. دار الحديث ودار حتى وصل إليه فقال :

– لن تراه الآن ... لقد أصبح ثريا

– لا تبالغ يا أخى

– والله لا يقل دخله اليومى عن ألف ليرة

– بالله عليك

– لديه عربته الخاصة .. وله سائق ..

– كيف صار ذلك ؟

– هكذا سارت الأمور معه .. ربما بتليفون .. يكسب عشرة آلاف ليرة فى اليوم ..

– هل تمزح ...؟

– لقد بنى متجرا .. ويبنى حاليا عمارة ..

إن الإنسان لا يستطيع أن يصدق .. فكيف يتم كل ذلك فى غضون ثلاث سنوات .. ؟ فأنا أشتغل ليلا ونهارا .. وأكاد أدفع بصعوبة إيجار شقتى التى فى البدروم ... !

وأضاف إلى ذلك أيضا .. قائلا :

– " كما أنه يدفع كل ديونه القديمة ..! "

فخطر على بالى ذلك الحساب القديم .. فكتبت إليه خطابا .. قائلا " ربما تتذكر ... ذلك الـ ... "

تذكر .. أرسلت إليه رجلا .. أعطاه المبلغ .. تحدثنا معه بالهاتف .. فقال :

– " لماذا لا تأتى إلى ..؟"

– فقلت .. يا عزيزى .. أنا أصلا صاحب طالع شؤم .. لا فائدة ترجى حتى لنفسى .. فلا يصيبك مكروه بسببى ..

– كنت تجئ فيما مضى

– كنت فى السابق مفلس مثلى ... فماذا كان لديك لتفقده ... ؟

أصر .. فذهبت إليه .. كان قد استأجر مكتبا مكونا من خمس أو

ست غرف فى مول " متجر" كبير مكتوب على باب المكتب .. " عرق الجبين للاستيراد والتصدير وأعمال السمسرة" استقبلنى بحفاوة بالغة . ركبنا سيارته تناولنا طعام الظهر سويا .. كانت له تجارة أخرى . وقد كتب على بابها "بيت تجارة عرق الجبين " فقلت

– بالله عليك .. كيف عملت كل هذا فى ثلاث سنوات ... يا صديقى .. ؟

– بعرق جبينى

أشرت إلى سيارته التى لا أدرى بكم ألف ليرة .. وقلت ..

– وهذه ..؟

– بعرق جبينى ..

ثم دعانى إلى حانة .. وقد كتب على بابها " حانة عرق الجبين ... " وكان يقيم حانا آخر وقد كتب عليه " خان عرق الجبين الصغير .."

قبيل المساء، وبسيارته أيضا أخذنى إلى عمارته .. بهرت .. عمارة شاهقة، مكونة من ثمانية طوابق .. كل طابق مكون من شقتين .. فى كل شقة .. ثمان غرف .. بينما كنت ألج من الباب رفعت رأسى فإذا بى أرى " عمارة عرق الجبين ... " مكتوبة على مداخلها... ولم أعد احتمل فقلت :

– أصغى إلى .. لابد وأن تغير أسماء هذه المتاجر والحانات والعمارات ...

– لماذا ..؟

– هكذا غيرها ..

– ماذا أسميها ...؟ .. سمها :

– متجر الإدرار ... خان الإدرار الكبير ... عمارة الإدرار ...

فكرر سؤاله قائلا :

– لماذا ..؟ ... قلت :

– "كيف ..لماذا .. ! إننى من كثرة العمل، قد عرق ليس جبينى وحده، بل عرق الكرسى تحتى ... ولا أستطيع حتى أن أدفع إيجار بيتى .. وأنت حتى ولو كان جبينك ذاته نبع ماء لما حقق كل هذا فى ثلاث سنوات .. فما هو لديك، ليس عرق جبين .. بل .. هو .. بول .. وحتى لو شربت براميل بيره .. واحدا إثر الأخر فخلال ثلاث سنوات لما استطاع الإنسان أن يدر بولا بهذا القدر

تركته دون أى سلام .. أو كلام .. فما زال لى عنده خمسمائة ليرة .. يجب على أن أكتب خمسين مقالا كهذا .. ومعنى هذا .. أنه ليس جبينى وحده هو الذى سيعرق كثيرا بل وتحتى أيضا كثيرا وكثيرا ...

١٩- أناس ظرفاء

Sakaci Insanlar

الحياة مؤلمة أيها السادة .. الحياة، طريق ملئ بالأشواك .. الحياة ... عندى ثلاثة دفاتر مشحونة .. وقد شحنتها كلها بفلسفة الحياة وحتى الآن .. قد كتبت أقوالا عن الحياة تجاوزت ستة عشر ألف قولٌ مـأثورٌ عن الحيـاة .. هى الحياة ... تلك هى الحياة .. كتب كلمات كثيرة على الحياة فى دفترى.

الحياة معاناة .. الحياة مطلع حاد وشديد الانحدار الحياة سيل جارف .. الحياة هى خشبة مسرح .. وفى نهاية كراستى الأخيرة، كتبت الآتى عن الحياة، "ما هى الحياة .. ؟" نعم .. هكذا ... نعم أيها السادة .. الحياة ألم لأقص عليكم هل الحياة ألم .. أم لا .. ولتحكموا أنتم .. ! ألم يكن لدى عمل أو وظيفة ليست لدى وظيفة وليس هذا بسبب أننى كنت وارثا ولكن بسبب أننى لم أستطع أن أجد عملاً فمنذ يومين وأنا أعيش على الماء والهواء فقط كنت ذات يوم

أجلس فى منتزه أفكر فى ماهية الحياة .. وبينما الرجل الذى كان يجلس بجانبى قد انتهى من قراءة جريدته وطواها وعلى وشك أن يضعها فى جيبه، قلت له

– أتسمح بها لحظة ..؟

ناولنى الرجل الجريدة .. وعلى الفور ألقيت نظرة على الإعلانات الصغيرة وما أن قرأت واحدا منها حتى دب الأمل فى داخلى .. جارى البحث عن عمال من كل الأعمار .. رجلا كان أو سيدة فأعدت الجريدة إلى الرجل .. ليس هناك وقتا لنضيعه جمعت كل قواى .. وهرعت إلى العنوان الموجود فى الإعلان .. فى الدور الخامس من متجر عظيم فى مكان التجارة والأعمال الكبير فى المدينة .. ولم أستخدم المصعد خوفا من التوبيخ والتأنيب .. وما أن وصلت إلى الدور الخامس حتى كنت ألهث، وقد جلست على درجات السلالم من الإرهاق والتعب .. أمامى رقم ثمانى عشر والمكان الذى أبحث عنه للعمل وسرب من البشر يدخلون ويخرجون .. الداخلون يملؤهم الأمل أما الخارجون فهم غضبى ومتجهمون استرحت بالقدر الكافى الذى يجعلنى أدخل على أصحاب العمل وأنا مفعم بالحيوية ودخلت من الباب رقم ١٨ وسألت أول من صادفته قائلا :

– لقد قرأت إعلانا فى الجريدة ... فأشار الرجل الذى يبدو عليه أنه الفراش بيده :

– ادخل .. وانتظر ..

كانت الكراسى والمقاعد فى الصالون مكتظة .. ست سيدات ..

وثمانية رجال يجلسون .. وخمسة رجال وقوف على أقدامنا .. اقتربت من مسكين مثلى وقلت :

– يا ترى ما نوعية العمل .. ؟

قال :

– لا أدرى .. إنهم يأخذون بالدور – هكذا البعض يبقى بالداخل ١٠ دقائق والبعض ١/٢ ساعة ثم ينطلقون إلى الخارج صائحين متصايحين .. وفجأة فتح باب الصالون الذى نجلس فيه إلى الداخل بقوة ، وانطلق رجل ضخم الجثة من الداخل، وهو غارق فى عرقه، ووجه فى حمرة الطماطم .. وانصرف وهو يسب ويلعن قائلا :

– عديمو الشرف .. حقراء .. رزلاء .

فقلت،

-لابد أنهم لم يأخذوه .. لذلك فهو غاضب .

فقال الرجل المجاور لى :

هكذا .. غالبا .. فكل خارج .. هكذا يخرج وهو يزعق ويصيح ..

سأل الساعى قائلا :

– الدور على من ..؟

قالت سيدة شابة وهى فى قمة زينتها ومكياجها .

– على ..

دخلت وهى تسير متبخترة متدللة يا ترى ماذا يفعلون بالداخل؟

قال :

– أظنهم يعقدون امتحانا

– فأخذت أراجع مع نفسى كل ما درسته فى المدرسة وكل ما يأتى إلى ذهنى ولما كان هذا مكتب فى مكان تجارى .. فلابد أنهم سيمتحنون فى الحساب .. فكررت مع نفسى جدول الضرب، ثم بدأت فى تذكر كيف يتم عمل حساب الفوائد و الربح وما إلى ذلك وأنا فى هذه الحالة .. إذ بصرخة امرأة تأتى من الداخل .. وانخبطت ضلفة الباب إلى الخلف، وهرعت المرأة مسرعة وأحمرها أحمرا .. وأزرقها أزرقا .. وانصرفت وهى تسب وتلعن ..

– حقراء .. بدون أخلاق .. عديمو الشرف

كانت تسمع من الباب المفتوح قهقهة رجال تنطلق فى راحة وزحمة وجهورة

فقلت :

– يا ترى هل عملوا شيئا لهذه السيدة .. ؟

فقال الذى بجانبى :

– لا أظن .. لو كانوا قد عملوا شيئا كانت لا تصرخ .. ربما سألوها شيئا صعبا..

فقال شاب :

– حقا .. لابد أنه كان صعبا على المرأة

الرجل المجاور لى قائلا :

– حتى الذكور يصرخون يا أخى ..

الفراش :

– الدور على من ..؟

فدخل الشاب الذى قال منذ برهة قليلة لابد أن الأمر كان صعبا عليها وكنت أن بدورى ما زلت أراجع على حسابات الفوائد المركبة .. ما هى إلا برهة حتى انطلق الفتى خارجا وهو يصيح :

– ما شكل هذا العمل .. وألقى بنفسه ناحية السلالم ..

فقال الرجل الذى يجاورنى :

– إن هذا الفتى لم يتحمل حتى بالقدر الذى تحملته المرأة السابقة

جاء بعدى أربعة اشخاص طالبين للعمل، وقد دخلوا فى الصف .. وكان ما زال هناك المتوافدون

وكان كل من يحين عليه الدور يدخل، وما هى إلى خمس أو عشر دقائق حتى يخرج ووجه شديد الحمرة، يتصبب عرقا، وينصرف وهو يسب ويلعن ..

حانت فرصة .. فأمسكت بالساعى الذى كان يختص بمجرد إدخال من يأتى عليه الدور وسألته:

– ماذا يفعلون بالداخل ..؟

فقال ضاحكا :

– يعملون تجربة ... وانصرف ..

سيدة مسنة، ورجل عجوز وكأن كل منهما يود أن يلوذ بالفرار انطلقا خارجين وهما يصيحان ويسبان ويلعنان .. وكان عقب خروج كل من يخرج تسمع من الداخل تلك القهقهات المتصاعدة وكنت كلما خرج أحدهما هكذا صائحا، زاعقا أزداد أنا أملا .. إن هذا يعنى

أنه لم يقبلوهم فى العمل .

ويزداد احتمال قبولى فى هذا العمل . ولكن من ناحية أخرى كان الخوف يتملكنى .. فاى نوع من التجارب يجربونها بالداخل حتى يخرج كل هؤلاء الناس وهم يسبون ويلعنون .. كان الخوف قد استبد بى ولو لم أكن جوعانا ولم أتناول شيئا منذ يومين لتركت العمل

وتركت التفكير بشأن التجارب وانصرفت ولكن وسط هذا الخوف كنت أنتظر على أمل ربما يمنحوننى هذا العمل .. خرج العجوز الذى يسبقنى ولونه كالرماد خرج من الباب كسابقيه وهو يسب ويلعن .. ولم يبق فى صوته رمق فسألته قائلا :

– ماذا يفعلون بالداخل يا عماه... ؟

فرد قائلا :

– بالله عليك لا تسأل .. أدخل .. وسترى أنت أيضا ..

سأل الساعى قائلا :

– الدور على من ..؟

فقال الذى يتلونى

– الدور دورك ..

فقلت :

– تفضل أنت .. فلست متعجلا..

فقال :

– لا أستطيع أن آخذ دور أحد .. الشيطان لو كان فى الترام أو الحافلة لما نظر أو احترم الدور ولكان قد قفز من فوق كتفى ..

– أرجوك .. تفضل بالدخول ..

– لا .. لايجوز .. والله .. لابد أن تتفضل أنت أولا ..

دفعنى الساعى من الخلف .. وأغلق الباب .. كنت اتوسل إلى الله فى سرى قائلا :

– "يا إلهى الحى .. أتوسل إليك أن لا تخذلنى .." " امنحنى القوة يا ربى حتى أجتاز هذه التجربة ... أو هذا الامتحان .. واجعل هذا العمل من نصيبى حتى أكون صاحب قوة .."

فى الوقت الذى ولجت فيه إلى الداخل كانت عيناى غاشيتين .. ربما من الجوع أو ربما من الخوف .. هنا .. مكتب ضخم .. فخيم مؤسس تأسيسا رائعا .. فى الداخل ولكن ربما كان حوالى عشرة أفراد ... لم أستطع عدهم.. مازالوا يضحكون ويطلقون قهقهاتهم على ذلك الشخص الذى سبقنى . كانوا يمسحون الدموع التى سالت من عيونهم من كثرة الضحك

مررت بحيث أصبحت فى مواجهة الرجل البدين الذى يجلس أمام مكتب ضخم فوق زجاج لامع .. وكان سؤال الرجل الأول لى:

– هل تحب المزاح ..؟

بماذا يجب على أن أجيب لكى أتمكن من الالتحاق بالعمل .. ؟ تفحصت الرجال واحدا واحدا .. لم يكن بينهم من هو مثلى .. جميعهم حسن المظهر .. يتسم الجميع بالأناقة .. والبدانة .. تبدو عليهم علامات الثراء .. والتغذية .. إناس تتقطر الدماء من وجناتهم .. لابد أن هؤلاء الناس يحبون المزاح .. جال هذا الفكر فى خاطرى

.. فالضحك كان يناسبهم .. وقلت :

– نعم .. لابد وأننى أحب المزاح يا سيدى وأحبه جدا .. وهل ذلك الذى لا يحب المزاح يكون إنسانا قط ..؟

فقال :

– ما دمت تحب المزاح .. إذا .. فاجلس على هذا المقعد الوثير ..

كنت غير قادر على الوقوف على قدمى من الجوع .. ولكن لابد من التصرف باحترام .. ولذلك قلت :

– أظل واقفا يا سيدى

– لا .. لايجوز .. مادمت تحب المزاح .. فاجلس ..

لم أجد أى رابطة أو علاقة بين المزاح والجلوس .. ولكن لكى أبدو مطيعا .. قلت :

– اشكرك يا سيدى .. وجلست ..

– لا .. لا .. ليس هذا الكرسى وإنما ذلك الفوتى ...

– جلست حيث أشار ... فقال :

– كل من تراهم هنا ... كلنا نحب المزاح جدا ...

– رائع يا سيدى ... وعبدكم أيضا مغرم بالمزاح ..

بدأ الرجل يتحدث من هنا .. وهناك .. وكنت أجيب على ما يسأل بكل ثقة وأدب واختصار .. ولكن كانت تحدث لى بعض الأمور .. لا تؤاخذنى فقد شعرت بحرارة شديدة فى مقعدى .. شئ لا يحتمل وتزداد الحرارة رويدا رويدا .. لم تعد تلك حرارة .. بل نار متقدة .. صرت كحبة الكستانة التى وضعت فوق الطاسة . بدأت أنشوى من أسفلى ...

الله ... الله هل أنا محموم ..؟ وما أعلمه أن حرارة الانسان تبدأ من رأسه وليس من كفليه .. بدأت أتقلب ذات اليمين وذات اليسار .. غير محتمل .. وكلما تلويت أنا كان هم ينظرون لى ويضحكون .. فالرجال ظرفاء يحبون المزاح ذاتا، إن حالى لم تكن تدعو للضحك ..!! روحى تحترق ولكن كنت أنا أيضا أنظر إليهم وبدأت فى الضحك .. كانت النيران تأتى من تحتى وكأنها سوف تلتهم ما حولى وسأشتعل ... فقال ذلك الذى فى مواجهتى :

– ماذا بك ... هل أنت مريض ..؟

لو قلت أنى مريض فربما لم يمنحونى العمل .. ولذلك قلت :

– لا .. صحتى على ما يرام .. أنا كأجدر ..

– لماذا تتلوى هكذا ..؟

كان الرجال يهتزون من القهقهات .. ولكى أجد مخرجا .. قلت :

– معذرة .. فعندى فتق . لو سمحت لى لأقف .. لا أستطيع الجلوس ...

كان هم من الضحك سيرقدون على الأرض ... كان العرق يتصبب من جميع جوانبى فمسحت العرق المتدفق من جبينى ... ونهضت واقفا ... كنت على وشك أن أصيح قائلا " لماذا تضحكون ..؟" ولكن الناس ظرفاء يحبون المزاح .. وماذا لو أنهم لم يأخذونى لهذا العمل ..!

ضغط الرجل الجالس أمام المكتب على زر الجرس وقال للساعى :

– أحضر شايا ..

فرحت لذلك .. معنى ذلك أنهم أعجبوا بى .. وكانت معدتى تزمجر من الجوع .. ولو شربت شايا ساخنا .. فلسوف يطغى على جوعى .. أحضر الساعى الشاى كنت واقفا .. أخذت الكوب فى يدى .. وما أن القيت بقطعتين من السكر فى الكوب حتى تناثر الزبد فى كل اتجاه ... تعجبت لما أصابنى ... ألقيت بالكوب مضطرا .. فبقيت وسط رغاوى الشاى والزبد المتناثر .. كما لسعت يداى من الشاى الساخن .. على أى حال .. فقد كسرت بوتقة ... وكان الرجال يتلوون من الضحك وفى الحقيقة كنت فى حالة تستوجب الضحك .. فيما بين الضحكات ... والقهقهات قال واحد منهم :

– افتح هذا الباب المواجه .. هناك ملف فوق المنضدة... أحضره ..فتحت الباب الذى أشار إليه الرجل ... لم يكن هناك دوسيه أو ما يشبه ذلك بحثت ... وفتشت فلا يوجد أى شئ ... يا إلهى .. لو قلت لا يوجد ..

فيا ترى يمكن أن يظنونى بلا حيلة ..؟ قلت ... وجلا:

– لا يوجد يا سيدى ..

– فقال الرجل الذى مازال يضحك :

– – كان هنا .. أقبل ..!

– وبينما كنت أقبل عليه ... قال :

– بالله عليك .. لقد تركت الباب مفتوحا .. أغلق فورا .. أغلقت الباب فبدأ واحد آخر فى سؤالى ... ولكن لم يكن فى مقدورى أن أجيب على أسئلته ... فقد تملكتنى نوبة عطش شديدة ... وبدأت تتراكم المعاكسات

– ما اسمك ..؟

– اسـ ... هبث ... مى ... هبث .. مـ .. هبث ... حمد ..هبث .. هب ..ش اسمى محمدت ..شت..

– كان الرجال يتلوون من الضحك .. وأنا لا أدرى ماذا بى وماذا أصابنى .. ولست أدرى ماذا أقول ...؟ منذ أربعين سنة لأول مرة تحين فرصة عمل .. وها هى النار تشتعل فى كفلى .. وهاهو الشاى يفور فى يدى .. وهاهو العطس يتملكنى ..

– كم عمرك ..؟

– وا ... هبث ... حد ... هيث ... ار... هبث ...بعـ .... هبث ...ين ... هبث ..

كاد الضحك أن يخنقهم .. فقال واحد منهم

– هناك حنفية مياه ... اذهب واغسل وجهك ...

وما أن غسلت وجهى واسترحت قليلا ... وذهب العطس ... ولكن هذه المرة بدأت الدموع تتساقط من عينى .. لم تكن دموع فقط بل كان بكاء ... ليس شيئا معتادا ... لم تصبنى مثل هذه النوبات ... فيا ترى هل هذا هو الجوع ... ! لست أدرى ..! لقد أصبحت موضع استهزاء .. وهل من الممكن أن يأخذوا رجلا ينتابه العطس .. ثم يتلوه البكاء إلى أى عمل ...

– لماذا تبكى ...؟

– أنا ..؟ لا أدرى .. أمى توفيت ..

– كانوا يضحكون .. وأنا أجهش بالبكاء .. فقام أحدهم وأخرج

زجاجة كولونيا من الدولاب .. وقدمها قائلا :

– شم قليلا .. ينشرح صدرك .. ويزول ..

أخذت نفسا عميقا .. مستنشقا من الكولونيا التى صبها فى راحة يده ..يبدو أنها غاز أعصاب ... أوووه انشرح صدرى إلى حد ما .. لابد وأنه قد أصابنى شى ما اليوم .. هذه المرة تملكنى نوبة من النحيب ... ماذا دهانى ..؟ ربما يظنوننى جننت .. بكاء ... نحيب ... عطس .. دموع ... ولم أدر لماذا لم يطردونى حتى الآن

– بماذا كنت تشتغل ...؟

– أو ... هيك ... اولا ... هيك ... نقـ .... هيك ... حيك ... نقاش .. هيك ..

– يا إلهى .. كفى .. اصمت .. هكذا كانوا يصيحون وهم على وشك الموت من الضحك ..

– أيمكن أن تفتح هذا الدولاب ..؟

– بينما كنت أفتح ضلفة الدولاب ... فكأنها ارتطامة كرة : جوووم فتدحرجت على الأرض من الخوف ... لا يمكن أن يكون الحظ معاكسا إلى هذا الحد انتهى الأمر فلن يأخذونى إلى العمل ... ليس مهما ... سأقتل هؤلاء الرجال بالضحك.

قام اضخمهم بنفخ الغبار الموجود فوق المكتب ... وبعد قليل ... ووسط تلك القهقهات العالية التى تكاد تخنقهم .. سألنى قائلا :

– لماذا تهرش هكذا

– أقسم بالله أنى نظيف .. وقد استحممت أمس .. ولكن .. لست

أدرى سبب هذا الهرش الذى حط على ...

– لو قلت برغوث ... فليس كذلك ... فالبرغوث يدخل من مكان ما فقط أما أنا فكل أطرافى تهرش ... هارت ... هارت ... هارت ..

سألنى أكبرهم سنا ,

-ما هى دراستك ..؟

– أنهيت الدراسة فى كلية الآداب ...

– قرب أذنه من فمى وقال :

– ارفع صوتك فسمعى ثقيل ..

– فصحت بصوت مرتفع _وأنا أهرش – وكان فى أذنه .. سماعة لمن سمعهم ثقيل ... قائلا :

– كلية الآداب

– هـ .... !

فلصقت فمى فى السماعة ..

وبينما كنت أزعق قائلا .. الآداب .. وعندما كنت أنطلق بكلمة الآداب فإذ بماء كالنافورة يتناثر على وجهى من السماعة التى كانت على أذنه.... !! تعجبت لما أتعرض له .. وانهرت فى المكان الذى كنت فيه .. إن هذا ليس مكتبا .. إنه بيت للأشباح .. وبدأت عيناى تدوران من الجوع ... وتملكتنى الدوخة ... لم أكن وحدى على الأرض ... فقد كانوا قد انبطحوا على الأرض من شدة الضحك .. وانتابتهم بعد القهقهات نوبة وكأنها نوبة صرع ... ولكن بعد أن أفاقوا ... وعادوا إلى أنفسهم ... نهضوا واقفين ... ولم يعد

يضحكون ... واكتسب كل منهم جدية رجل الأعمال ... ولم يعد هناك مزاح ... أو هزار ... وقال أحدهم :

– عفارم ... تحملت بشكل جيد ... ربما حضر إلينا الآن أربعون شخصا ولم يتحمل أى منهم حتى النهاية .. بل كان هناك من يهرب بعد أول تجربة.

– لم أفهم يا سيدى ... ماذا تحملت ... ؟

– إن هناك فى أمريكا شركة تصنع مواد تثير الضحك ... وعرضت علينا العمل معهم . وأرسلت إلينا بعض من هذه المواد ..

– ثم ...

– بعض هذه المواد المضحكة تكون ثقيلة أحيانا ... وبعضها يكون خطرا ... ولهذا أردنا أن نجربها أولا ...

– ثم بدأوا فى الحديث مع بعضهم البعض كما يلى :

– هناك فى امريكا عشرة آلاف محل لبيع هذه المواد ..

– نعم .. نعم ... تحقق أرباحا تتجاوز العشرين مليون دولار فى العام ...

– هنا أيضا ستحقق مبيعات طيبة .. وأظهرت التجارب أنه لا خطر منها على الإطلاق

– إن الشركة تعرض علينا خمسين نوعا من المصنوعات ..

– لنطلب أيضا من الأنواع الأخرى .. فكلها مكاسب هكذا ... لأن شعبنا أكثر ظرفا ومزاحا من الأمريكان ... نحن أناس نحب المزاح والهزار ... انبرى أكبرهم سنا ... وأكثرهم ضخامة إلى القول

والإملاء على واحد أظنه كاتبهم

– قائلاً:

– سجل .. ألفين لوحة تسخين الكفلين مما توضع على الكراسى .. وعشرة الآف علبة غبار هرش . وخمسمائة صندوق من كولونية النحيب وخمسة الآف سماعة أذن ترش الماء .. عشرين ألف قنينة ماء تدمع العين ... خمسة أطنان سكر مجنون، ثلاثين ألف صندوق كابسولات متفجرة ... اكتب كل هذه الطلبات، وليرسلوها فورا

ولما كنت قد نلت تقديرهم، فلابد أنهم سيأخذوننى للعمل معهم .. ولكن فى الحقيقة .. لم أستطع أن أفهم أو أن أدرك نوعية عملى هذا .. وقد كانوا قد أهملونى تماما وهم يتحادثون مع بعضهم ..

فتوجهت إلى هذا الذى كان أكثرهم انشغالا معى وقلت :

– سيدى .. هل يا ترى قد قبلت فى العمل ..؟

فقال :

– هـ...   ، عذرا فقد نسيتك ... حقا ... لم يكن بين كل المراجعين من هو فى تحملك .. لقد ألحقناك بالعمل

والتفت إلى كاتبه :

– قل للمحاسب، أن يخبر الخزينة أن تعطى هذا الرجل ليرتين ونصف

ثم خاطبنى قائلا :

– أن شركتنا ستستورد من المصنع الموجود فى أمريكا كل شهر هذه الأدوات وغيرها الكثير، عليك أن توجد هنا فى الثالث من كل

شهر لنجرب عليك المعدات الجديدة التى سنستوردها منهم ... ثم تتجه إلى الخزينة فورا وتتقاضى ليرتين ونصف الليرة ... لا تنس ... الثالث من كل شهر ...!

فقلت ضاحكا :

– هـ .. هـى ..

– فضحك هو أيضا ..

– أنت ظريف جدا تحب الهزار جدا .. وأنا أيضا أحب الهزار ..

كنت أضحك ... وهو أيضا كان يضحك .. كنت جوعانا ... ولكن لا جوع ولا خلافه ... جمعت كل طاقتى وبكل قوتى أنزلت لكمة قوية فوق أنف الرجل .. فتقهقر إلى الوراء .. وسقط فوق كفليه .. وكانت الدماء قد تفجرت من أنفه .. وقد أصيب الآخرون بدهشة. فقلت:

– لقد جربت معك نوعا بسيطا من الهزار ..

– ولكن ليس هناك هزار مثل هذا ... هذا هزار الحمير ...

– ماذا نفعل نحن الفقراء ... ولا يمكننا أن نشترى لعبة من الألعاب الفكهة التى تستوردونها من أمريكا بمبلغ الليرتين والنصف التى نكسبها شهرياً من أجل خاطركم .. فهى لزام علينا ألا نعمل مزاحا أيضا .. إن الهزار والمزاح بدون الآت أو معدات – بالكاد يكون هكذا ..

أغلقت وتوجهت على الفور إلى بيتى وكتبت ما يلى فى آخر كراستى المشحونة بفلسفة الحياة:

" الحياة مهزلة موجعة .."

٢٠- ما أجملها من بلد...!

Ne Güzel Memleket ì!

كانت ستعقد اتفاقية تجارية بين البلدين المتجاورين ، لهذا الغرض كانت قد جاءت هيئة تجارية من البلد المجاور لزيارة البلد الآخر ... وكان على رئيس الهيئة التجارية المضيفة أن يرسل تقريرا يوميا عن مهمته لبلده ... وسوف تجدون فيما يلى ترجمة لهذا التقرير ...

٣ مارس ١٩

عند هبوطنا من الطائرة فى المطار ، لم يكن أحد فى استقبالنا سوى موظفى الجمارك . وقد بدأ الموظفون فى البحث والتمشيط والتفتيش فى شنط وحقائب السفر الخاصة بنا. وحتى لو أننا كنا قد قلنا لهم بأن ذلك التصرف أو هذا الأسلوب بعيد عن الأصول المتبعة وأن عليهم أن لا يبحثوا فى أغراضنا كهيئة تجارية لما كنا قد

استطعنا أن نفهم موظفى الجمارك. أظهرنا (أبرزنا) وثائقنا، ولكن ذلك لم يجد أيضاً. ... وبعد الفحص احتجزنا لمدة ساعتين .. ولما لم يكن هناك من حضر إلينا .. فلم نستطع أن نعرف ماذا سنفعل .. وفى الوقت الذى قررنا فيه أن نبحث لأنفسنا عن فندق لنقضى ليلتنا فيه ، وصل جمع غفير يقرب من خمسمائة شخص لاستقبالنا .. وقالت الشخصية التى كانت على رأس المستقبلين:

– إننا كن نظن أنكم ستأتون بطريق البحر ولهذا فنحن فى انتظاركم منذ الصباح فى الميناء .

فأجبته قائلا :

– إنك لطيف ومهزار جدا

فلم يكن فى الإمكان ألا يعرف هذا الشخص أن بلادنا ليس بها طرق بحرية .. اشتكينا من مأمورى الجمارك .. فقدم أعذارا فى غاية الرقة .. مخبرا إيانا:

– لقد ظنوا أنكم منا ... فقد وصلت إخبارية أن عصابة ستصل ...– ثم أضاف ضاحكا: لم يعتبروكم أجانب ... فأنتم تعتبرون منا .– نشكركم .

– قال الشخص الذى على رأس المستقبلين :

– استطعنا أن نستقبلكم بخمسمائة أو ستمائة شخص فقط بالكاد ودون أن يمنحنى الوقت لكى أسأل قائلا .... "لماذا كل هذا الزحام ...؟" .. أنبرى هو متمما :

– لأن ..الصحفيين قد توجهوا إلى استقبال إحدى الفنانات

القادمات من أمريكا والباشا الوكيل قد خرج فى جولة دعائية والسيد المستشار توجه إلى حفل افتتاح والمدير العام يتفقد السد ... وذهب الوالى للتفتيش على الأسواق .. ومدير البروتوكول فى وداع رئيس الوزراء فى محطة القطار أما الباشكاتب ومدير الشؤون القانونية فقد منح أجازة بناءا على ما يلزم .. أما مساعد المدير فقد استقال لأسباب صحية .. ولم يبق .. سواى .. ولهذا جئنا بهذا القدر القليل .. وإلا كنا قد استقبلناكم بخمسة عشر أو عشرين ألف شخص.

– فسألت قائلا :

– من يكون جنابكم العالى ؟

– أنا .. وكيل مساعد سكرتير وكيل مدير الشعبة الأولى لمعاون المستشار المناوب .. ولما لم أكن قد تلقيت أمر الوكالة ... ولما لم أكن قد أحلت إلى التقاعد لأسباب صحية .. ولما لم أمنح إجازة اضطرارية .. ولما لم أبعد عن العمل لدواعى خاصة ولما لم أقل من وظيفتى .. لهذا أنا مكلف بهذه المهمة فى الوقت الراهن .

– وبينما كنا نركب السيارات قال:

– كنا قد أعددنا حفل الاستقبال فى البحر .. فلنذهب جميعا إلى الشاطئ .. وبعد إتمام المراسم هناك يمكنكم الاستراحة ، نزلنا من السيارات عند الساحل .. ركبنا القوارب والزوارق واتجهنا نحو اليخت الراسى عند الأعماق ... صعدنا إلى اليخت ، ولما كان اليخت لا يمكنه الاقتراب من المرفأ ، فقد اقتربنا نحن منه ، وعندما تحرك

استقبلتنا السفن المزدانة بالأعلام ، وأطلق على الساحل إحدى وأربعين طلقة مدفعية ..

– عدنا ثانية إلى الشاطئ .. وعلى الرصيف قدم إلينا ما بين عشرين أو خمس وعشرين فتاة باقات الزهور مكتوب عليها " .. أهلا .. وسهلا .." وذبحت الأضاحى ونحن نمر من أسفل أقواس النصر المزدانة بالأفرع والنباتات والتقطت الصور ونحن نمر من أمام الفرق الموسيقية .. ثم وصلنا إلى الفندق الذى سنضيف فيه وسط الحفاوة والتصفيق ....

٤ مارس ١٩

– فى الفندق ، تعرضنا لهجوم الصحفيين .. التقطوا صورنا وكما هو معتاد .. سألونا قائلين :

"كيف وجدتم بلادنا..؟"

ونحن بدورنا وكما هو المعتاد فى كل البلدان المتخلفة التى ذهبنا إليها .. وكما هو الحال فى كل زمان .. وكل مكان .. قلنا :

– ممتازة .. خارقة للعادة .. كالجنة .. نحن مبهورون بنهضتكم هناك العديد من الدروس التى يمكن أن نستوحيها منكم ..

توجه إلى واحد من الصحفيين بالسؤال قائلا:

– بأى الأشياء كان إعجابكم أكثر ... ؟

– ولما كنت أنا قد عرفت مسبقا ماهية الأجوبة التى تسعدهم فقد قلت :

– لقد أعجبنا الشيش كباب .. ومحاشيكم .. وبهرنا أيضا

بالبقلاوة وبينما الصحفيون على وشك الانصراف انبرى واحد منهم سائلا:

– أنتم ماذا تلعبون ..؟

– قلت

– أنا لا أحب اللعب .

– نظر إلى وجهى باستغراب ..

– أقول جديا .. لم ألعب أى لعبة فى حياتى ..

– فتحول إلى صديق آخر من هيئتنا وسأل قائلا :

– أنتم أين تلعبون ...؟

– وما إن قال هو الآخر ، إنه لا يلعب .. حتى تحول بالسؤال إلى آخر قائلا:

– من سيلعب المباراة ..؟

– قلنا أى مباراة ..؟

– ألستم أنتم فريق كرة ماغسونار ..؟

– لم أر طوال حياتى أناس بهذا المرح وخفة الروح ..

– قال واحد منهم :

– لا يا عزيزى إنهم ليسو فريق كرة القدم إنهم فريق المصارعة القادم من موناكو ...

– فقال صحفى اخر:

– لا يا أخى ألا ترى أن شكل الرجال يدل على أنهم فنانو الأوبريت القادمون من هونولولو...

- وعندما شرحنا للصحفين أننا الهيئة التجارية .. انبروا قائلين:

- إذا كان الامر كذلك .. فلماذا شغلتمونا منذ الصباح .. ؟

- فاعتذرنا لهم ...

٥ مارس ١٩

مرت ضيافة الليلة سعيدة جدا .. وعلى مائدة الطعام .. نهض أحد الحضور ، وتحدث عن الثقافة .. والتجارة .. والتاريخ .. والجغرافيا .. والمناخ .. والكيمياء والعلاقات الحسابية بين البلدين .. وعن وحدة القدر والمصير الذى يربط بين الشعبين ، ورفع كأسه على شرفنا ، وفى اللحظة التى ارتفعت فيها كل الأقداح ، انطفأ النور فجأة .. وبعد لحظة اندهاش .. انطلق الجميع إلى الخارج .. أما نحن فقد أصابنا الذهول ...

كانوا يتصايحون قائلين :

- ماس كهربائى ... ماس كهربائى ...

- بداية ظننت أن ما يتم معنا هذا من المزاح أو المفاجأة أو تقليدا فى هذا البلد.

- بعد فترة عاد التيار الكهربائى .. وأبدت إحدى الشخصيات أسفها وأعلن اعتذاره قائلا:

- نعتذر جدا .. نرجو المعذره .. ظننا أن التيار قد حدث فيه كونتاك .. لأن هذا غالبا ما يحدث بينما الأمر لم يكن كذلك ...

فسألته قائلا :

- ماذا هناك ..؟

قال :

- هذه المرة ضربت الفيشة ..

عاودنا الطعام والشراب .. فانطفأت اللمبات مرة أخرى فحدث هرج ومرج مرة أخرى .. فأمسكت بواحد فى الظلام وسألته :

- هذه المرة كونتاك أم فيشة ..؟

- فقال :

- لا هذا ولا ذاك .. هذه المرة انقطع التيار ..

- إلى متى سيستمر ؟

- غير معلوم .. أحيانا يطول الانقطاع .. وأحيانا يصلحونه على مدى ساعة أو ساعتين ...

- "بارك الله فيهم .. فلأنهم يحسبون لكل أمر حسابه .. فقد أحضرت لمبات الجاز فورا ولكن ليس فى اللمبات كيروسين .. فأحضروا الشمعدانات .. وبينما هم يهمون بإشعال الشمع . عاد التيار ..

٦ مارس ١٩

طوال هذه الليلة أقاموا العروض الفنية المختلفة ، عزفت الرباب وغنيت الأغانى .. فى الحقيقة .. لهونا .. وسعدنا جدا .

١١ مارس ١٩

أمس طفنا بكل المتاحف .. وزرنا كل الأماكن التاريخية والتذكارية واليوم طوفوا بنا فى كل المصانع المنفتحة حديثا .. وغداً سنتجول فى المدينة وللآن لم تذكر كلمة تجارة .. ونحن بدورنا لم

نتحدث فى أى شئ لعدم الإحراج .. فلابد أن لديهم برامج ..

١٦ مارس ١٩

حتى هذه اللحظة لم أستطع التوصل إلى القرار المناسب .. هل من اللائق أن أذكرهم أننا قد حضرنا إلى بلدهم من أجل الاتفاقية التجارية أم لا ، وأنا فى انتظار أوامركم بهذا الصدد.. فقد أقيمت مساء الأمس وليمة فاخرة على شرفنا .. استمرت حتى الصباح .. واليوم سيزورنا جميع المدارس وفى المساء سنكون فى وليمة أخرى...

١٩ مارس ١٩

بعد منتصف ليلة الأمس أحضرونا إلى المكان المسمى ب "صولوكولة" بست وعشرين سيارة فاخرة ... لهونا حتى الصباح وها أنا ذا أكتب إليكم هذا التقرير وأنا أغالب النوم ..

٢٠ مارس ١٩

ظننت أنهم بهذه الدرجة من البهرجة .. والتسلية .. والاحتفالات والولائم .. والخمور يودون أن يدفعوا بنا إلى موائد المفاوضات ونحن ثملى ومنهكوين حتى يسيطروا علينا فى المباحثات .. ولكن خاب ظنى .. وأخطأت فنحن هنا منذ ثلاثة اسابيع .. ولم ينطق أى منهم كلمة المفاوضات قط..

٢٥ مارس ١٩

اليوم .. سألت مدير أو .. عن موعد عقد الاتفاقية .. فاندهش قائلا :

– أى اتفاقية ..؟

– فقلت :

– الاتفاقية التجارية ..

ولما زادت حيرته ودهشته فأوضحت له الأمر .. عند ذلك تسائل :

– يا .. هل أنتم الوفد التجارى ... ؟ لقد اختلط علينا الأمر .. وخلطنا بينكم وبين وفد المعونة من بلد آخر ..

فى المساء أيضا .. كانت هناك وليمة على شرفنا ..

١ ابريل ١٩

هذه الليلة .. ازداد الثمل والسكر بثلاثة أشخاص من وفدنا ونحن بدورنا كنا قد تعلمنا ألعابهم الشعبية .. فأخذنا ... نقفز .. ونرقص فى الولائم والعزائم ... وذات مرة تذكرت مرة آخرى الموضوع التجارى وذكرتهم به ... فقالوا :

– أمر سهل يا عزيزى .. نبيع لكم السردين ، الدخان ، القطن والبندق وأنتم تبيعون لنا البن ..

فقلنا لهم :

– نحن لا نزرع البن..

فقالوا :

– إذا .. بيعوا لنا القمح

فقلنا :

– نحن اشترينا منكم قمحا قبل ستة اشهر ...

فقالوا :

– بيعوا لنا ما يزيد عن حاجتكم ..

يالهم من أناس مرحين ..

اليوم التالى .. تصدرت صورنا كل الصحف وكتب تحتها ما يلى :" .. عقد اتفاق تجارى مع بلد مجاور صديق .. ومرة أخرى قد فتحوا اعتمادا بمبلغ خمسمائة مليون دولار .. وسوف يصدرون إلينا احتياجاتنا الضرورية من أحمر الشفاه .. ومسامير الحدوات .. وبلى الأطفال .. وكاوتشوك المحراث .."

٢٠ ابريل ١٩

تلقينا أوامركم العالية بالعودة .. ولكن وفدنا التجارى قد تعود على أجواء هذا البلد لدرجة أنه أضحى من المستحيل عودتنا .. فنحن نأكل ونشرب ، نلهو ونلعب .. ولهذا قررنا بشكل جماعى تغيير الجنسية والبقاء فى هذا البلد الجميل .. للعرض مع خالص احترامنا ...!

٢١- أنا أشتبه

?üpheleniyorum

كان إسماعيل بك "وازنه دارى " صرافاً فى إحدى الشركات خلال السنوات الأولى للحرب العالمية الثانية ... وهل كان من السهل آنذاك إعاشة أسرة مكونة من خمسة أفراد هو وزوجته وثلاثة أطفال..؟

وخاصة فى سنوات الضيق تلك .. ولهذا السبب .. مر به حدث ليس لطيفاً متعلقاً بالصرافة .. اكتشف صاحب العمل الأمر .. فاستدعى إسماعيل بك .. ولما كان صاحب العمل رجلاً عبوساً .. وشديداً فقد أسقط فى يد إسماعيل بك ، وظن أنه سيستدعى البوليس والنيابة ، ولكن لم تسر الأمور كما ظن ... فها هو صاحب العمل الذى يعمل بجانبه منذ تسع سنوات يراه لين الجانب ، ضحوك الوجه :

– تفضل بالجلوس يا إسماعيل بك ...

انزوى إسماعيل بك داخل الكرسى المواجه لصاحب العمل .. وكان صاحب العمل يتكلم بتأنٍ .....

– صنعت لك الخير الذى فى استطاعتى يا إسماعيل بك .. منذ تسع سنوات وأنت تأكل من خيرى ، وأسرتك ... وأطفالك يعيشون من هذا الخير .. دخلت المؤسسة وراتبك خمس وسبعون ليرة .. فزدت راتبك .. جعلته تسعين ليرة .. ماذا أفعل غير ذلك ..؟

كيف طاوعتك يدك ، وقمت بهذا الأمر .. ؟

فهل هذا جزاء رجل مثلى ..؟

انخدع إسماعيل بك بكلمات صاحب العمل اللينة .. وداعبه الأمل ، محدثاً نفسه بأنه ربما يغفر له سرقته .. ركز ناظريه على حذائه الممزق ، وقد انكمش تماماً وهو على كرسيه، وقال:

– معك حق يا سيدى .. أنا خالفت ضميرى .. كنت فى ضائقة شديدة .. فأخذت خمسين ليرة من الخزانة على أن أقتطعها من مرتبى . يمكنك أن تخصمها من أول مرتب يا سيدى ...كشر صاحب العمل فجأة عن أنيابه ... وصاح قائلاً :

لا .. لن أغمض عينى .. لا يمكن أن يكون ... لا يمكن أن أغمض عينى يا إسماعيل ، أفق إلى نفسك يا إسماعيل بك .. لقد حدث لى نفس الشىء فى وقت ما .. كنت أعمل كاتبا بأربعين ليرة مع واحد عديم الشرف .. الرجل الوضيع كان من الممكن أن يدفع للجرسون خمسين ليرة بقشيشاً .. وأدخلنى السجن من أجل عشر ليرات...

ستنال عقابك ..!!

نال إسماعيل بك عقابه .. وتم حبسه سنه لإساءة الثقة الممنوحة له .. وكانت ابنته وزوجته خلال وجوده فى السجن يكسبان لقمة العيش من تركيب أكمام الفانلات ورتق الجوارب ..

عندما خرج إسماعيل بك من السجن ، استلقط ماكينة جوارب مستعملة فى إحدى غرف منزله المكون من غرفتين .. ثم أصبحت الماكينة اثنتين .. ثم ثلاثاً .. ثم من بعدها أسس ورشة عمل .. وبدأ فى تشغيل زوجته وبناته معه ... ورويداً رويداً كبر العمل وأصبح صاحب ورشة فى طوب قابى بها خمس ماكينات ...

فى الوقت الذى وصلت فيه الحرب العالمية الثانية إلى نهايتها كانت ورشة عمل إسماعيل بك قد تحولت إلى مصنع نسيج يعمل به مائة وأربعون عاملاً .

ذات صباح ، ما أن وصل الموظفون إلى قسم الإدارة فى الطابق الثالث حتى أصابتهم الدهشة .. فالخزانة مفتوحة ... ولكن النقود كما هى .

كان إسماعيل بك فى بنايته الكائنة فى جيها نغير ، ولم يكن قد خرج بعد من بين أحضان زوجته الثانية التى تزوجها حديثاً ... فأخبروه فى الهاتف ... فى الوقت الذى وصل فيه إسماعيل بك إلى المصنع بسيارته الكاديلاك الصفراء التى يماثل لونها لون طائر الكناريا كان رجال البوليس قد بدأوا بحثهم وتحرياتهم واستجواباتهم ..

قدم مدير المصنع تقريره إلى إسماعيل بك...

– وكان فى الخزانة مئة وثمان وسبعون ألف ليرة .. عد المحاسب النقود فى الصباح ، فوجد أن هناك عجزاً مقداره ثلاثمائة وخمسون ليرة .. وبقية النقود و الكمبيالات والسندات فى مكانها ، والخزانة مفتوحة .

لم يعثر البوليس على أى أثر وقبيل المساء ، وجه رجل البوليس المدنى الذى يتولى عملية التحقيق من اسماعيل بك ، وخاطبه قائلاً :

– سيدى .. لم نتمكن حتى الآن من الوصول إلى الطريقة التى تمت بها السرقة ، ولكن من الممكن أن يكون الحارس الليلى هو...

فقاطع اسماعيل بك كلام المحقق قائلاً :

– هذا لا يسرق لأنه من ناحية أعزب، ينام ويقوم فى المصنع ، احتياجاته قليلة ... وقد جاء من قريته حديثاً لم تفتح عيناه بعد ...

– فى هذه الحالة ربما البواب ...

– لا هذا أيضاً لا يسرق، لأننى أعطيته راتباً مقداره مائة وخمسين ليره شهرياً ... ثم أننى أعرف أنه يسرق قصاصات ورق ويبيعها مما يوصل مرتبه إلى أربعمائة ليرة .,فهو لا يسرق هذا ...

– هناك فيما بين عمالكم واحد من أصحاب السوابق .,فيا ترى هو ...؟

– ليس هو ... لو كان هو الذى سرق... لما سرق ثلاثمائة وخمسين ليرة فقط ..بل لسرق كل النقود...

وضع المحقق كل المشبوهين واحداً واحداً على مائدة النقاش ،

وكان إسماعيل بك يدافع عن كل واحد منهم بحقائقه ... ثم سأله المحقق :

– فيمن تشتبه أنت يا سيدى ..؟

فكر اسماعيل بك .. واستغرق فى التفكير .. ثم قال :

– تمام .. تمام .. وجدته، وجدت سارق النقود . وجدت اللص .. لابد أنه هو الذى سرقها

– من يا سيدى ..؟

– هناك كاتب يعمل فى الحسابات .. ذكى .. لابد أنه هو..!!

– ولكن .. أنا يا سيدى تحريت .. إنه شاب شريف جداً .. وهو مجتهد جداً ..حذار..

– لا .. هو اللص ...، لا تخطئ..

– لا .. لا يمكن .. هو الذى أخذها ...

– ولكن

– أقول لك .. هو الذى أخذ النقود . أنا اشتبه فيه ...

– ما هو سبب الشك ..؟

– لأن .. نعم .. نعم .. هو الذى سرق .. من المؤكد أنه اللص ..

– هل فى يدك أدلة ..؟

– يوجد و قوية جداً .. لأقصها عليك واحداً .. واحدا .. أولاً هذا الرجل يشتغل عشر ساعات يومياً، تطلع روحه .. كل ما يصل إلى يديه مائة وثمانون ليرة .. فى هذه الأيام حتى الحمال يكسب خمسمائة ليرة شهرياً .. هذا الرجل ماذا يفعل إذا لم يسرق...؟

– ولكن يا سيدى ..

– لا .. لا .. أنا اشتبه فيه .. أمه .. زوجته وثلاثة أطفال وهو .. ستة أفراد بالتمام والكمال ولا يمكن أن يأكل خبزاً جافاً فقط بهذا المبلغ البالغ مائة وثمانين ليرة ... فإذا لم يسرق .. فكيف يعيش ..؟

– ربما ...

– إن جميع شكوكى وشبهاتى تدور حوله .. إيجار البيت، مصاريف الطريق ، ملابس وخلافه .. فهل تكفى هذه المائة والثمانون ليرة فقط..؟

من الطبيعى أنه هو الذى سرق ..

– ولكن .

– تمر فى يديه يومياً آلاف الليرات ..ثم أن راتبه مائة وثمانون ليرة .. لا شك قط فى أنه هو الذى سرق ..وإذا لم يسرق ..فأى خطأ ارتكب ..؟

– كان المحقق يدافع عن الكاتب أمام شبهات صاحب العمل التى لا تقبل الشك .. استدعى اسماعيل بك كاتبه ... دخل الكاتب وهو مطأطئ الرأس...

– تفضل يا ذكى بك ...

تكوم الشاب فى كرسيه وقد بدت عليه علامات الصفرة والنحافة البادية

وبدأ صاحب العمل باللين ... وبشاشة الوجه يعدد واحدة ...واحدة ...قائلاً :

– ذكى بك .. لقد قدمت لك كل ما فى استطاعتى من خير .. تأكل من خبزى منذ ست سنوات دخلت مصنعى بمائة وعشرين ليرة ، أوصلت مرتبك الشهرى إلى مائة وثمانين ليرة .. ماذا يمكن أن أفعل غير ذلك ..؟

كيف لم يتملكك الخجل .. أو يلبسك العار وأنت تسرق ثلاثمائة وخمسين ليرة من خزينتى ؟

ألم يتحرك ضميرك ..؟

أغرورقت عينا ذكى بك .. وقال :

معك حق يا سيدى .. أنا ارتكبت عاراً، كنت فى ضيق مطبق .. فأخذت ثلاثمائة وخمسين ليرة من الخزانة ظاناً أنها لن تعرف ..يمكنك اقتطاعها من مرتبى فى أول شهرين قادمين .قطب اسماعيل بك جبينه فجأة .. وصاح قائلاً :

– لا .. لا يمكن .. أفق إلى نفسك يا ذكى بك ... فى زمن ما كنت أعمل مع حقير ، وعديم شرف بتسعين ليرة فقط.. بينما كان يترك أربعين ألف ليرة على مائدة القمار .. أدخلنى إلى السجن دون أن تهتز فيه شعرة من أجل خمسين ليرة ... لابد أن يلقى اللصوص عقابهم يا ذكى بك...

– ولما كان ذكى بك قد اعترف بجرمه أمام المحقق المدنى .. لا بد أن يلقى اللصوص عقابهم يا ذكى بك ..

– وباعتراف ذكى بك اعترف بجرمه أمام المحقق المدنى ..فقد أرسل إلى النيابة فى حراسة اثنين من البوليس ...

كان إسماعيل بك من شدة غضبه يصيح ويجول فى غرفته يساراً ويميناً ..حاول المحقق أن يهدئ من غضب إسماعيل بك ..فقال: – يا سيدى ..لماذا كل هذا الغضب ..؟

– إنه لم يأخذ مبلغا ضخماً .. وما شاء الله وضعكم جيد جداً ...بالإضافة إلى أنه اعترف بجرمه . لابد أنه سينال عقابه .

فقال إسماعيل بك :

أنا لست مهتماً بالثلاثمائة وخمسين ليرة .. فقد أنتجنا رجلاً آخر ..أعرف أن هذا قد مر بى ، أنا أيضاً تربيت بعد أن مررت بهذا الطريق .. فبعد سنة واحدة سيولد مليونيرا جديدا فى السوق وسيكون منافساً لنا وهذا ما يجعلنى غاضبا وإنى أتساءل لماذا يهبط أمثاله لارتكاب مثل هذه الأفعال المتدنية فليتهم يعملون بشرف.

٢٢- مدفأة الكيروسين
Gaz Sobasl

أنا لا أفهم هذا أو ذاك ... الناس يشتغلون .. يعملون بدون توقف وكلما زاد عملهم زادت مكاسبهم ... ولو قيل إن النقود لا تكسب بالعمل ... هذا كلام فارغ ... يدخل من أذنى ويخرج من الأخرى .. فيجب العمل من أجل النجاح فى الحياة ..

أصغوا إلىّ فلأحكى لكم قصة حياة أناس مجتهدين وخذوا مثالا ... ونموذجا ... لأقص عليكم قصة واحدة فقط ... وأنتم أحسبوا الباقى ... سأقص عليكم حكاية عائلة باديتو .. فحكاية هذه العائلة .. هى نموذج جيد لكيفية نجاح الذين يعملون .. وكيف أنهم ينجحون فى كل أعمالهم .. مما لا شك فيه أن هناك فى هذه الدنيا من هم أكثر اجتهادا من عائلة باديتو ... ولكن لما كنت أنا أعرف عائلة باديتو فلسوف أقص عليكم نجاحاتهم ..

عائلة باديتو .. عائلة كبيرة .. فلتشرة .. سالامون باديتو بن جوزيف باديتو .. جوزيف باديتو ابن شقيق ماركو باديتو .. ماركو هو عم يانكو .. يانكو هو الأخ الأصغر لموردخاى .. موردخاى باديتو هو صهر ميشل باديتو .. وميشل باديتو أيضا هو صهر حمر مويز .. ومويز باديتو أيضا ... تمهلوا تمهلوا ... سيختلط الأمر عليكم ... من الأفضل أن أقص عليكم حياة هذه العائلة ونجاحاتها عن طريق مدفأة كيروسينيه .. فمدفأة الكيروسين سهلة الفهم عليكم وتسهل مهمة القص والحكاية على، نحن الآن فى شارع الاستقلال ... وها انتم ترون دفايات الجاز المعروضة فى نافذة العرض فى المتاجر الكبيرة ... أحجام مختلفة . وأنواع متعددة ... بأيهم أعجبتم ..؟ حسنا .. نعم جميلة جدا .. ولكن .. انظروا جيدا إلى السعر المعلق ... ٢١٢٠ ليرة ألفين ومائة وعشرين ليرة .. الأفضل لنا أن ننظر إلى تلك المدفأة الكيروسينية والمكتوب عليها سعرها المعلن وهو ٧٥٠ ليرة سبعمائة وخمسون ليرة،و ثلاثة وستون قرشا .. هذه المدفأة وحدها كافيه لتبين لكم أن عائلة باديتو عائلة مجتهدة .. جادة.. وتستحق عن جدارة المبالغ التى تكسبها نتيجة عملها واجتهادها ..

يوجد لأيزاق باديتو أرض فضاء تقع بين سوق الخميس وجامع عرب .. ولابد أنكم رأيتم أناس يجمعون الغرق والورق ... والعلب والصفائح ومخلفات الحرائق و الزجاج المكسر وقط الحديد من الشوارع والأزقة والأسواق والأماكن المحترقة ... نعم ... هؤلاء جميعا يأتون إلى أرضية ايزاق باديتو ... تتجمع ... وتفصل حسب

أنواعها .. وبفضل ايزاق باديتو يكسب مئات من مثل هؤلاء الناس نقودا كثيرة .كما أن لايزاق باديتو منافع جمة يقدمها للدولة .. إنه يدفع ضرائب .. فيغير الدولة ..ولكن نحن كنا سنقص حكاية الدفاية الكيروسينية ... هل ترون جبال الصفيح والزنك والحديد المتراكم .. إن ايزاق باديتو يبيعها لابن اخيه مويز باديتو سعر الكيلو ١٢ قرشا .. ولما كانت عملية البيع تتم فى المكتب فكلاهما لم ير تلك الخردة .. فلا صاحبها ايزاق ولا صاحبها الجديد مويز قد رآها.

يطلب مويز باديتو صهره فردى باديتو بالهاتف ويبيع خردة التنك والصفيح والحديد للمُصدر فردى باديتو سعر الكيلو ١٥ قرشا ويبيع المصدر الفردى باديتو الذى لم ير وجه الخردة إلى جاك باديتو المقيم فى انجلترا بسعر الكيلو ١٧ قرشا .. وتذهب الخردة بالسفينة إلى ميناء انجليزى

العمل شئ جيد جدا ...فبسبب مويز وفردى يعمل كثير من الناس كتبة .. سكرتارية .. محاسبون .. خفر .. حراس ... الكل يكسب نقود .. بل ويجلبون للبلاد عملة صعبة .. بالإضافة إلى إنهم يدفعون الضرائب .. يبيع جاك باديتو الخردة التى اشتراها إلى عمه داوير باديتو بسعر الكيلو عشرين قرشا .. يقوم داوير باديتو بتحويل هذه الخردة إلى ألواح وأسلاك وأسياخ فى مصنعه ويبيعها داوير بالاشتراك مع آدم باديتو بسعر الكيلو مائتين قرشا .. لآدم باديتو مصنع تصنع مدافئ الجاز .. وفى المصنع يتم صنع المدفأة من حوالى خمسة كيلو جرامات من التنك والزنك والحديد ثم تدهن

وتجلى وتلمع ..

إن شركة "آدم باديتو اند برازرس" ترسل كاتلوجا لصور المدفأة التى يصنعها مصنعه مع عرض أسعار إلى جوزيف باديتو ممثلها ووكيلها فى استانبول .. إن أسعار المدفأة التى تراها معروضة فى نافذة العرض كما هو وارد فى الكاتلوج خمس وثمانين ليرة تركية ويقوم جوزيف باديتو وكيل المصنع فى استانبول ببيع حق استيراد هذه المدافئ لأخيه المستورد أورام باديتو بنسبة تمثيل تجارى ٢٠٪ وبسعر ١٠٢ ليرة تركية .ويبيع اورام باديتو الإذن بالاستيراد لهذه المدافئ بنسبة ٢٠ ٪ إلى حاييم باديتو فيصبح السعر مئة واثنين وعشرين ليرة وأربعين قرشا ..

ولكى يضمن حاييم باديتو تسيير أموره وأعماله بسهولة أكبر فقد أسس شركة مشتركة مع أحمد ثورك أوغلو .. هذه الشركة تملك ثلث رأس المال "بنك نريان" يقترض حاييم باديتو من بنكه الخاص بفائدة ٨٪ .. بهذا يصبح سعر المدفأة التى سوف يستوردها مائة وأربع وثلاثين ليرة وأربع وأربعين قرشا فيقوم أحمد تورك اوغلو بأخذ موافقة الاستيرادية باسم الشركة .

وبالتالى يقوم حاييم باديتو ببيع هذه الشهادة بمكسب قانونى ٨ ٪ أى أنه يبيع المدفأة لباديتو بمائة وخمس وأربعين ليرة وعشرين قرشا ويقدم ميخائيل باديتو العملية بثمرة ٢٠ ٪ مكسبا للشمار باديتو .. العمل شئ عظيم .. والاجتهاد أعظم .. وبسبب هذا الاجتهاد يرتفع سعر المدفأة التى بقيت فى المخازن فى انجلترا إلى

١٧٤ ليرة وأربع وعشرين قرشا ..

يترك الشمار ميشون باديتو العملية إلى صالامون باديتو صاحب شركة النقل . وبإضافة قيمة الشحن والنقل يصبح سعر المدفأة ٢٠٣ ليرة وأربع وتسعين قرشا . ويؤمن ميشون باديتو صاحب شركة النقل على بضاعته عند خاله يساف باديتو صاحب شركة التأمين ٦٪ وتصل المدافئ إلى دائرة الجمارك وقد أصبح سعرها ٢٢١ ليرة وثمان وأربعين قرشا ..

العمل شئ طيب وبسبب عائلة باديتو المجتهدة يكسب العديد من البشر حياتهم .. وعدا ما سبق يتم دفع الجمارك على المدفأة مبلغا وقدره ٣٢٪ فى دائرة الجمارك تنفتح ميزانيتنا ... ويصير ثمن المدفأة الجاز بالجمارك ٢٩٢ ليرة وست وثلاثين قرشا ... وليس فى الأمر أى شئ يثير الدهشة ... فلكل صاحب حق حقه ولا ظلم على الإطلاق .. فالحسابات تتم بالقرش وبالتمام

ويحول ياسف باديتو المدافئ التى وصلت إلى الجمارك إلى زوج ابنته ميشال باديتو بإضافة ٢٠ ٪ على السعر ليصبح سعر المدفأة ٣٥٠ ليرة وأربع وثمانين قرشا

ولما كان ميشال باديتو قد ترك المدافئ التى وصلت فى الصيف فى مخازن هيئة الجمارك فقد دفع عليها أرضية تساوى ٦ ٪ مما أوصل سعر المدفأة إلى ٤٤٦ ليرة و ثلاثة وثمانين قرشا ..

لا آدم ولا حاييم ولاميخائيل ولا ميشون ..لاياسف ولاميشال يعنى أى من آل باديتو كلهم لم ير أى منهم شكل هذه المدافئ ولو

لمرة واحدة ... إنها مجموعة من الأوراق والمستندات تجئ وتروح بين المكاتب، ومجموعة من التوقيعات توضع فوق مجموعة من الطوابع التى تلصق فوق الأوراق ... هذا هو كل الشغل .. كما أنهم فى كل هذه العمليات الشرائية لا يتسلمون نقودا فى أياديهم ... ولا يعدون أى مبالغ ... ولكنهم بسبب اجتهادهم وعملهم لا يتوقفون عن تحقيق المكاسب والأرباح ..

إن موردخاى باديتو يبيع هذه المدافئ التى لم ير شكلها بمكسب ٢٠٪ كمكسب استيراد وبسعر الجملة إلى فدون باديتو بائع الجملة .. ويبيع فدون باديتو هذه المدافئ التى لم يرها إلى ابن أخته بمكسب ٢٠٪ فيصبح سعر المدفأة الجازية ٦٢٥ ليرة واثنين وخمسين قرشا .. ويقوم بائع الجملة فدون باديتو ببيع المدفأة الكيروسينية بمكسب ٢٠٪ أى بمبلغ ٧٥٠ ليرة وثلاث وستين قرشا فى محلات زوج أخته ايزاق باديتو

هكذا ... هذه المدفأة هى المدفأة التى نراها فى المتاجر تباع نقدا بمبلغ ٧٥٠ ليرة وثلاث وستين قرشا وبالتقسيط بمبلغ ٨٩٠ ليرة وأربع وثمانين قرشا ولكن هذا أيضا بالأكرام

إن من يملكون نقودا يشترون هذه المدفأة ... ويصيبها العطب بعد أربع أو خمس سنوات ... ولم تعد صالحة للاستخدام ... فيلقون بها فى المهملات ... فيأخذها شخص ما من المزابل ويبيعها على أرضية ايزاق باديتو بسعر الكيلو خمس ليرات ... ومن هذا الباديتو إلى باديتو آخر ... إن هذه الماكينة الدائرة والدوارة ليست من

اختراع جون أحمد، بل من اختراع عائلة باديتو ... لقد قرأتم فى الفيزياء إن كل شى فى الطبيعة لابد له من وجود وها هو إثبات ذلك واضح للعيان ..

أنا لا أفهم هذا أو ذاك إن العمل شئ جيد ... إن اجتهاد آل باديتو كان سببا فى أن يكسب الآلاف من البشر أسباب معيشتهم ويدفعون الضرائب للدولة باللآلاف ... بسبب سعيهم تصبح المدفأة التى سعرها ٢٧ ليرة بمبلغ وقدره ٨٩٠ ليرة

أيواه ... ما أجمل الشغل ... وكم هو شئ طيب أن صديق لى قد اشترى مدفأة الجاز هذه بالتقسيط وبسبب كسل هذا الصديق لم يكن يدفع أقساطه يالا للعار ....! فهل هناك فى العالم ما هو اسوأ من أن لا يدفع المرأ دينه ...؟ ولكن آل باديتو ساقوه إلى المحكمة .. وتم إجراء الحجز على دولابه والراديو الذى يملكه ... وأخذوا مالهم عدا ونقدا ولم ير من آل باديتو وجه صديقى أو شكل المدفأة

هل تعلمون لماذا قصصت عليكم فائدة اجتهاد آل باديتو والذى جعلهم مضرب المثل ..؟ لأننى كسلان جدا ... منذ أربع سنوات وأنا أتمنى أن أشترى مدفأة كيروسينية .. ولم أتمكن من الشراء بأى وسيلة .. فأنا كلما مررت من هذا الطريق ... أقف أمام هذه الفاترينات ... وأنظر إلى المدافئ التى بالداخل ... فإن عائلة باديتو .. فى كل سنة ... ما أن ينضم إليها صهر جديد . أو يتحول أحد صبيانهم إلى رجل أعمال أو صاحب عمل حتى يرتفع سعر المدفأة ففى هذه السنة ... ولأن نسيم باديتو قد أصبح عريسا فأن سعر المدفأة قد ارتفع بنسبة ٢٠ ٪

زيادة عن كل عام إن الكسل شئ سيئ ... فلم أتمكن من شراء هذه الدفاية بأى شكل من الأشكال فإنا بالكاد أستطيع أن أجد واجتهد ثمان عشر ساعة يوميا فقط ... ولو أمكننى أن أعمل الأربع وعشرين ساعة فلربما أستطيع أن أشتريها ... ولكن الكسل صفة سيئة .. فمن أجل النجاح فى الحياة يجب العمل كثيرا جدا .. وها هى عائلة باديتو خير مثال على ذلك فى الساحة..

٢٣- معرض أپونا

Apona Fuarl

اعتدنا طوال تاريخنا أن ننسب كل ما هو سيئ، وقبيح وخطأ ومضحك من أمورنا إلى المراحل التاريخية القديمة... وأصبح ذلك عادة.. ولما كنَّا لا نود أن نفسد هذا المعتاد لدينا.. فنحن نصرح بأن الأحداث التى حدثت فى هذه الحكاية قد وقعت فى الزمن الماضى..

إن المعرض الدولى لمدينة آپونا سيكون هو الأضخم بين كل المعارض التى تمت حتى الآن.. ولم يكن فى الإمكان أن تكون هناك فرصة للدعاية أحسن من هذا.. وقد أُرسلت الرسائل إلى كل الملحقين التجاريين تطلب الرد على حجز الأماكن التى يريدونها فى مدة أقصاها شهرين..

وأعلن كل من تسلم خطابه رغبته فى الاشتراك بالمعرض مع الشكر على الدعوة، ولكن من مكان ما لم يرد الرد بالإيجاب أو

الرفض.. وخلال تلك الأثناء كانت ستُعقد الاتفاقيات التجارية فيما بين الهيئات التجارية للبلد التى ستفتتح المعرض والبلد التى لم ترد على الدعوة..

وخلال الوليمة قال رئيس الهيئة التجارية لوزير التجارة:

– لو كنت قد انضممتم إلى معرض آپونا لكان فى ذلك دعاية كبيرة لبلدكم.

فسأل الوزير بدهشة:

– آپونا .. ؟ معرض .. ؟ هل سيفتتح معرض فى آپونا.. ؟

فقال رئيس الوفد التجارى:

– منذ سنتين وكل البلاد تستعد لهذا المعرض، وكل الشركات، والوكالات لم تتوقف عن الإعلان عن معرض آپونا سواء فى الصحف أو الإذاعات.

فى اليوم التالى؛ استدعى وزير التجارة مستشاره على الفور وسأله:

– لماذا لم تُحدثنى عن معرض آپونا .. ؟ ولماذا لم تَعرض علىَّ الخطاب القادم بهذا الصدد.. ؟

فقال المستشار بحسن نيَّة كبيرة وأكيدة أنه لو كانت هناك مدن فى كل قارة أوروبا تُسمى آپونا، فإنه لا يذكر أن معرضاً سيفتتح هنالك، كما أنه لا يتذكر أى شيئ عن هذه الدعوة، وأنه ليس لديه أية أخبار عن هذا الخطاب المرسل للاشتراك..

انقلبت الوزارة رأساً على عقب.. وأمر الوزير بحدة بضرورة

إيجاد هذا الخطاب.. فدخلت دوائر الوزارة وشعبها فى بعضها البعض.. وتداخلت الأمور فى بعضها البعض لدرجة أن بذلت مساعى لتصدير قطن إلى مصر، وقمح إلى كندا وبترول إلى العراق وساعات إلى سويسرا وطلبت هذه الدوائر استيراد بندق وفستق من انجلترا، وقنبلة ذرية من إيران وطائرات نفَّاثة من الحبشة.

لم يكن الحصول على هذا الخطاب بأى شكل .. ليس هذا فقط بل كانت الرسائل الموجودة تُفقد خلال البحث عن غير الموجود. فتم الاستفسار من الملحقية التجارية عن خطاب الدعوة لمعرض آپونا..

وعلى الرغم من أن المحلقية لم يكن لديها أى أخبار عن افتتاح معرض فى آپونا إلاَّ أنها ما أن سمعت بهذه الأخبار حتى أعلنت وأبلغت معروضاتها على الفور..

وبعد الكثير من البحث والتقصى؛ اتضح من السجلات فى قلم الأوراق بالوزارة أن الخطاب الرسمى المرسل من الملحقية التجارية فى آپونا قد وصل منذ عشرة أشهر مضت، بناءا على تلقى الملحقية الدعوة قبل عشر أشهر أيضاً.. وأعلنت الملحقية ذلك برفع القيد وتاريخه.. وكذلك تم العثور على بداية الخيط.. وأصبحت المشكلة الآن هى معرفة إلى أين تم تحويل هذا الخطاب.. وأين توقف أخيراً.. ومَنْ الذى ألقى به.. وفى أى سلة للمهملات قد أُلقى.. وتم تكليف أكثر موظفى الوزارة خبرة، ودراية، وذكاءا ونشاطاً بالبحث عن هذا الخطاب الرسمى.

صدرت الأوامر بترقية موظف الأرشيف الذى اكتشف بعد فحص

دفاتر الوارد والصادر أن الخطاب قد تم إرساله إلى قسم التجارة الخارجية إلى درجتين أعلى مكافأة على ذلك.

وعندما تم الاستفسار عن خطاب معرض آپونا لدى مدير إدارة التجارة الخارجية قال:

– آپونا.. ؟ وأغمض عينيه، واستغرق فى الماضى لمدة ما.. ثم قلَّب بأنامله فى شعر رأسه، وكأنه يستخرج شيئاً من الذاكرة وأردف:

– آ آ آ.. أيوووو اه ... أتذكر خطاباً مثل هذا...

وبعد بحث طويل، لم يتمكن من إيجاد الخطاب.. ولكن وجد قيده وسجله.. فقد تم تحويله إلى الشعبة الثالثة.. فقال مدير الشعبة الثالثة:

– هـ ... ! لابد أن يكون هناك شيئ كهذا.. لابد أن أُرسل إلى القسم الثانى لأنها "الجهة المختصة"...

وضع رئيس القسم الثانى رأسه بين يديه .. وبعد أن طال تفكيره وكأنه اكتشف قانون أرشميد للمرة الثانية.. قال صائحاً:

– وجدته.. وجدته.. آپونا.. أليس كذلك.. ؟ تمام.. لحظة.. حتى انظر إلى هذا السجل.. !

وفقاً للسجل؛ فإن الخطاب الوارد من الملحق التجارى قد سلُّم للمستشار.. ركز المستشار عينيه نحن الأفق، وكأنه ربان سفينة يحاول أن يكتشف شيئا خلف الضباب. وأخذ يردد:

– آپونا.. آپونا.. آپونا..

وبعد أن كرر هذه المقولة لخمس دقائق قال صائحاً:

– تذكرت الآن... قل يا أخى أنه الخطاب الوارد من أجل معرض آپونا.. أنا قد عرضت هذا الخطاب على الوزير..

ولكى يُذَكِّر المستشارُ الوزيرَ قال:

– سيدى الوزير.. كان ذلك فى الصيف الماضى.. ذات مساء لطيف.. كنا نودِّع معاليكم فى محطة القطار.. كان ذاتكم العالى متوجهاً إلى فلوريا لمناقشة أمر هام.. وعبدكم خلال تلك الأثناء.. وعلى العجلة عرضت على جنابكم الخطاب الوارد من أجل معرض آپونا..

فقطع الوزيرُ كلام المستشار متذكراً:

– أيوااااه .. لو قلت أنه الخطاب المرسل من أجل معرض آپونا.. !! تذكرت الآن..

فتش الوزير فى أدراج المكتب.. وأرفف الدولاب.. وقال:

– طالما أنه ليس هنا.. لابد أنه فى جيوبى..

فتش الوزيرُ فى جيوبه.. فلم يجده.. فالتفت إلى المستشار وسأل

– فى ذلك اليوم كنت أرتدى أى بدلة... ؟

عصر المستشار الذى ركز ناظريه نحو السقف جبينه.. ثم طرقع أصابعه من الضيق.. وبعد أن تصبب عرقاً كثيراً قال:

– جاءت أمام عينى وكأنها اليوم يا سيدى.. سيدى.. إنكم كنتم ترتدون الجاكيت البيج الرياضى فى ذلك اليوم.. وكان تحتها بنطلوناً فاتحاً بيج أيضاً.. أتذكر تماماً أنكم كنتم ترتدون بنطلوناً.. وحتى

كنت ترتدى حذاءاً فى لون الشكولاته بالحليب.. حانت أمام عينى يا سيدى عياناً.. بياناً.. وحتى جوربكم كان بنياً فاتحاً ومن النيلون.. كنت أنيقاً جداً يا سيدى فى ذلك اليوم.. جداً..

تحدث الوزير فوراً بالهاتف إلى منزله قائلاً:

– فتشوا جيوب كل الجواكت الأسبور ذات اللون البيج.. ! ففيها أوراق فى غاية الأهمية.

بعد قليل جاء الرد فى التليفون.. وما أن سمع الوزير الرد حتى قطب جبينه وتعصَّب. وقال:

– اللَّعنة.. لقد أرسلوا الجاكيت إلى التنظيف..

– أُحضرت الجاكيت من التنظيف فوراً .. فتشوا الجيوب.. تمام.. شكراً يا الله..

فقد خرج من الجيب الداخلى أربع أوراق.. إحداها مكتوب على رأسها المطبوع "ملحقية آپونا التجارية".. ولكن لا وجود للكتابة.. فإن المنظف قد قام بعناية فائقة بتنظيف الجواكت بالبخار الجاف.. لدرجة أن خطوط الخطاب قد مُحَت تماماً مع البقع والأوساخ..

ومع أنه لم يكن معروفاً بالضبط ما هو المكتوب فى خطاب الدعوة، إلاَّ أنه مهما كان الأمر.. فقد تم إبلاغ الملحقية التجارية باشتراكنا فى المعرض.. ولكن جاء الرد، لَّما كان ردكم على خطاب الدعوة قد وصل متأخراً جداً.. فإن جميع الأماكن فى المعرض قد تم حجزها، وأُغلق باب الحجز تماماً لعدم وجود أى أماكن خالية.

ولكن.. كان لابد من الاشتراك فى هذا المعرض الذى سيمثل

فرصة لعمل دعاية كبيرة من أجل التعريف بالبلاد. فعلى الفور تم بذل المساعى الدبلوماسية.. وللروابط القوية والصداقة المتينة التى تربط بين البلدين طوال التاريخ وباستخدام الوساطة الممكنة أمكن توفير مكان فى المعرض المزمع إقامته فى آپونا.. ولكن هذا المكان.. كان صغيراً، إلى جانب أنه كان منزوياً فى ركن بعيد.. وعلى الرغم من أنه كانت هناك ثمان دول من المشتركين فى المعرض الدولى أقسامهم أصغر وأضيق مما هو مخصص لنا.. إلاَّ أنه يجب أن يكون مكاناً أفضل..

ومن أجل الدعاية، والتاريخ، استخدم التليفون.. والتلغراف.. والشفرة، وتم الاعتماد على الصداقة والأخوة والمراسلات، والرجاء، والنقود والواسطة وبعد صعوبات جمة تم تأمين استئجار أوسع مكان فى المعرض..

إلى أن تم تخصيص المكان.. كانت الدول الأخرى قد أعدَّت أقسامها بالديكور والمعروضات والزخارف والزينات.

تم اختيار هيئة ممن يقولون أنهم يفهمون فى هذه المسائل، وغيرها من الأمور الأخرى جيداً

كان رئيس الهيئة أو الوفد مِمَنْ قدَّموا خدمات جليلة للحزب حتى وهو مازال فى حزب المعارضة ولم ينتقل إلى حزب السلطة. وكان يجب مكافأته، وكان يود إجراء عملية تجميل لإزالة السواد والتضخم الذى ظهر تحت جفون عينى زوجته التى تجاوزت الخمسين من عمرها.. ومن أجل هذه العملية الحياتية فإن رئاسته للوفد المتجه

لمعرض آيونا فرصة لا تُعوض.

أما نائب رئيس الوفد.. الرئيس الثانى.. فإنه عندما لم يتم انتخابه فى الهيئة الإدارية لحزب المعارضة قبل إسبوع، فقد استقال من الحزب على اعتبار أن هذه مسألة مبادئ.. وانضم إلى الحزب الحاكم كعضو مستقل.. خبير.. مجرب من أولاد الوطن الذين بلغوا السبعين من عمرهم..

واحد من أعضاء الوفد موظف قدير.. وكان قد قام بقطع التيار الكهربائى للمدينة عندما كان زعيم الحزب المعارض يخطب فى اجتماع حاشد.. وكان سبباً فى أن يُصبح صوت الزعيم وكأنه طنين ذباب بدون ميكروفون.. ولما كان يجب تلطيف ومكافأة هذا الموظف المجد منذ أمد بعيد ولم تحن الفرصة.. فها هى الفرصة قد حانت وتم مكافأته بضمه إلى الوفد المتجه إلى معرض آيونا كنوع من النزهة. العضو الآخر، متزوج حديثاً، وبدعوى الذهاب إلى المعرض توجه إلى آيونا لقضاء شهر العسل. أما العضو الخامس وهو منقطع عن العمل منذ ثلاث سنوات بحجة أجازة.. وعلى أى حال لما كان يلزم لهذا الوفد رجل فقد تم ترشيحه وأما العضو السادس فهو ذاتاً لا يصلح لأى عمل.. فتسيب.. ولما كان صديقاً مقرباً لواحد من السياسيين الكبار، فإنه لا يجد وقتاً أصلاً للعمل.. ولا فرق بين بقاءه هنا أو ذهابه إلى المعرض.. بمعنى أنه لا مانع من إرساله هو الآخر ضمن وفد المعرض. أما العضو السابع فهو صهر لرجل لا تُرد كلمته..

وباختصار فإن أى مِنْ هذا الوفد لم يتم اختياره بدون وجه حق أو أنه لم يدقق فى اختياره.. فلكل منهم مسببات اختياره عضواً فى الوفد، ولكن كان لابد أن يكون بين هؤلاء واحد يفهم فى هذه الأمور بشكل حقيقى. لهذا تم ضم أحد الخبراء إلى هذا الوفد..

عند وصول الوفد إلى مدينة آيونا كانت كل الأجنحة قد أُعدِّت. وقد بدأت البضائع التى ستُعرض فى الوصول.

بقى فى المعرض من بين أعضاء الوفد مَنْ هو خبير فقط. وتفرق الباقون من أجل إجراء مصالحهم الخاصة. أعلن الخبيرُ الوزارة بضرورة عمل مخطط للجناح على وجه السرعة. على الفور وُضِعت خطة رسم الجناح فى مسابقة. ومُنِح صاحب المخطط الأول عشرة آلاف ليرة، ولصاحب المخطط الثانى خمسة آلاف، ومُنِح المتسابق الثالث ألفى ليرة.. ولكن الوزير لم يُعجبه أى من هذه المخططات أو الرسومات.. فما كان منه إلاَّ أن وضع مخططاً للجناح على ظهر علبة السجائر فى ظرف ثلاث دقائق، والآن مطلوب لتنفيذ هذا المخطط مهندس ديكور، ومهندس معمارى. وفى الوقت الذى توجه فيه الفنيون والفنانون لتنفيذ المخطط فى مدينة آيونا، كانت الأجنحة الأخرى قد أقيمت، ووضعت المعروضات جميعها فى أماكنها.. ولم يبق على افتتاح المعرض سوى عشرة أيام.

من ناحية كان إقامة الجناح على قدم وساق، ومن ناحية أخرى كانت قد تشكلت هيئة أو لجنة لمعرض آيونا.. وفى أول اجتماع لهذه اللجنة سوف تقرر اختيار البضائع التى سوف يتم عرضها.. أحصى

أحد أعضاء اللجنة وهو عضو الغرفة التجارية البضائع التى ستُرسل إلى المعرض:

دخان. لوز.. جوز.. تين.. عنب.. قطن.. بنجر.. سمك پلاموط، أما عضو الغرفة الصناعية، وعضو اللجنة فقد انبرى قائلاً:

– إن هذه الأشياء التى اعددتها تُنتج فى هذه البلاد منذ ما قبل الميلاد. نحن يجب أن نُرسل بمنتجاتنا الصناعية.

– حسناً.. حسناً

– ماذا نُرْسِل... ؟

– كبريت... ملح

– مناسب..

– أطعمة محفوظة.. ملبَّن.. سُكَّر معقود..

– غيره.. ؟

– أقمشة.. جوارب..

– جميل جداً..

– زجاجيات.. ورق

إلاَّ أن المؤرخ وأحد أعضاء اللَّجنة اعترض قائلاً:

– كل هذه البضائع التى أحصيتموها.. نحن نستوردها من الخارج، فإذا ما عرضناها فى المعرض.. ماذا نفعل لو اعترض أًصحابها.. ؟ أو لو قال أحدهم لماذا تشترون منا هذه البضائع طالما أنكم تصنعونها..

المؤرخ على حق.. وتابع:

– نحن... فقط علينا أن نعرض فى هذا المعرض أعمالنا التاريخية.. يجب أن نعرض أنفسنا عن طريق التاريخ..

– معك حق..

– نُرسل طاقم الموسيقى الهمايونية.. ليَعزف أمام جناحنا قطعنا الموسيقية من مارشات.. وصاجات..

– غيره.. ؟

– نُرسل قفطان السلطان محمود المطرز باللآلئ.. وليشاهدوا القفطان نعرض سيف ياووز وعمامة السلطان سليم..

– ألا يلزم أن نعرض فنوننا المعاصرة.. ؟

– نعم.. فريق من عازفى الرباب.. ومطربين.. وثلاث راقصات.

تم تحديد البضائع التى ستُرسل إلى معرض آپونا..

تم افتتاح معرض مدينة آپونا الدولى.. ولكن جناحاً ما لما لم يكتمل استعداداته.. فقد تم إحاطته بسياج من الخشب.. وكُتب على القماش المشدود على واجهة الجناح إعلان عن "قرب افتتاح جناح هنا.. ". لم يكن هناك من وفد معرض مدينة آپونا سوى شخص واحد. فقد ذهب البعض للعلاج والبعض لقضاء شهر العسل والبعض الآخر للتنزه..

فى اليوم العاشر من مدة المعرض، وصلت البضائع التى ستُعرض.. فتحت الصناديق.. كان التين الذى استخرج من أحد الصناديق قد دوَّد.. وفسد الزبيب والبندق.. وتتابعت البرقيات وتبادلت بين وزارة التجارة وممثلها فى معرض آپونا..

إلى وزارة التجارة:

"إن التين المرسل إلى معرض آيونا مدَوِّد. والعنب فاسد، والبندق أصابه العطب.. "

إلى الممثل التجارى فى معرض آيونا..

– اتضح أن البضائع التى كانت ستصدر إلى بلد آخر، قد أرسلت إلى المعرض.. وقد أُرسلت مواد "تَكَلْ" مواد القطاع العام، وهى فى الطريق للعرض فى المعرض..

إلى وزارة التجارة:

لم يعد هناك سوى خمسة عشر يوماً عن انتهاء المعرض، ولقد تحطمت زجاجات الشراب والكحوليات الخاصة بـ "تكل" ولم تسلم سوى زجاجة واحدة من الشراب وزجاجة واحدة من الكحوليات.. والأمر معروض على مقامكم العالى نحو افتتاح الجناح من عدمه..؟

؟ ؟ ؟ ؟

إلى الممثليِّة التجارية:

بمجرد أن تتسلموا الآثار التاريخية التى أُرسلت وهى فى الطريق إليكم، وهى عبارة عن سيف السلطان مراد، وحزام السلطان سليمان، ومجموعة من ملابسنا القومية، وملابس الانكشارية فالمرجو هو افتتاح الجناح فوراً بدون أدنى تأخير..

كان يوم إغلاق المعرض يتصادف مع افتتاح جناحنا.. وأُقيمت وليمة انتهاء أعمال المعرض مع افتتاح الجناح، ولما كان الشعب قد تملكته الدهشة أمام افتتاح الجناح فى اليوم الأخير من المعرض

الذى استمر طوال شهرين، لذا فقد تجمع فى حشود مدهشة؛ وكان يسمع حتى قبل أن يلج من الباب إلى الغناء من اسطوانة "لاقوقراچَّه" La Kukaraçça . فلما كانت الفرقة الموسيقية والفنانون المصاحبون لم يصلوا بعد، فإن الممثل التجارى؛ وفقاً لذوقه هو، ولما توفر هناك من الاسطوأنات قد أدار اسطوانة "لاقوقراچه" هذه.. ولما كانت هذه المعزوفة قد عُزِفت ليلة حفل زفاف الممثل التجارى، فقد فضَّلها على غيرها، لأنها تحمل ذكرى مهمة بالنسبة له.

على الجدار الذى كان يبلغ ارتفاعه ستة أمتار، وعرضة ثلاثة عشر متراً عُلِّقت لوحات جرافيكية تبين زراعة البندق وجمعه.. وكُتبت عليها بعض اللوحات حول التغذية بالبندق وفوائده مثل: كل بندق وكن كالبندق وكانت تحت كل هذه اللوحات، والأرقام، والرسومات فقط حفنة من البندق. فلم يستطع الممثل التجارى اختيار بندقاً سليما من بين تلك الكميات التى فسدت سوى هذا القدر.

لم تصل السجائر أو الدخان قط.. بينما كان هناك صالوناً كاملاً مزخرف بلوحات زراعة الدخان، وحصاده وتصنيعه، وجداول الإنتاج على مدار سنوات سابقة فقط كانت هناك علبة واحدة من "السيجارة الأولى" وقد وضعت تحت الأضواء والألوان والبويات والأقوال المنشورة.. فقد قام الممثل التجارى بعرض السيجارة التى أحضرها لنفسه عند حضوره.

وهناك فى صالون آخر فخيم وعظيم قد عُرِضت زجاجة واحدة

من الشراب وزجاجة واحدة من الكحول... ولكن كان هناك فى صالون آخر وهو حقاً الذى لفت أنظار الزائرين.. فقد كانت هناك فترينات زجاجية أنيقة قد عُرِضت فيها عمامة وقفطان، ومشلح وسيف واحد فقط.

فى مساء يوم افتتاح الجناح تم إغلاق المعرض.. وقامت القيامة ولم تخمد عند إعادة الآثار التاريخية؛ فقفطان السلطان محمود قد تحول إلى قضية، فقد سُرِقت كل اللآلئ التى كانت عليه، والأحجار الكريمة التى كانت على مقبض السيف التاريخى قد نُزِعت.. والقشيب الذهبى الذى كان فوق العمامة لم يعد له وجود.. والصحافة تولول.. والمعارضة وكما هو دأبها دائماً حوَّلت الحبَّة قُبَّة، أو البرغوث جملاً:

– إن تاريخنا قد نُهِب.. فماذا علينا أن نفعل نحن الآن.. ؟

ولكن بارك الله فى معالى الوزير حيث أدلى بالتصريح بالتالى :

إلى الصحافة والإعلام "إن الألماظ واللؤلؤ والبرلنته التى فُقِدت لم تكن هى الحقيقية، بل كانت خرزات لا قيمة لها.." .. وبهذا التصريح أُغلقت هذه القضية عند هذا الحد..

٢٤- ألا لهذا الغلاء من نهاية .. ؟!

كان لى جاران لا يحب أحدهما الآخر.. أرادا أن يصبحا غنيين عن طريق العمل بالتجارة، فأرادا توظيف المال الذى حصلوا عليه كتعويضٍ تقاعدى.. ولأن معرفتهما بالتجارة وأمورها كانت ضحلة فقد اتجه كل واحد منهما لمن يعينه، فاستشار جارى الأول خبيراً فى الشؤون المالية، فأشار عليه هذا الأخير أن يشترى بكل النقود التى بحوزته ذهباً، لأن أسعار الذهب سترتفع إلى الضعف بعد فترة وستحقق له أرباحاً طائلة.

أما جارى الثانى فقد استشار خبيراً فى الاقتصاد، فأشار عليه بأن يشترى بكل أمواله حديداً للبناء، لأن أسعار الحديد سترتفع بعد فترة وجيزة إلى النصف وتحقق له أرباحاً هائلة.

وقد فعل كلا الجارين بما أوصاهما به الخبيران، فاشترى الأول

ذهباً بماله، واشترى الثانى حديداً.

واستشار الأول خبيره المالى بما يفعله بالذهب فأشار عليه بأن يبيعه، ولما فعل حصد أرباحاً مضاعفة، عندها أشار عليه الخبير أن يشترى بها كلها ذهباً من جديد، لأن أسعاره ستعاود الارتفاع، وفعل، ولكنه هذه المرة رأى أن كمية ما يقدر على شرائه من الذهب قد أضحت نصف المقدار الذى اشتراه سابقاً، لأن الأسعار قد تضاعفت...

أما جارى الثانى فقد باع الحديد الذى اشتراه وحصد الأرباح واشترى حديداً من جديد.. والكمية نصف كمية الحديد الذى اشتراه أول مرة. لأن أسعار الحديد قد تضاعفت كثيراً.

ومن جديد باع صاحب الذهب ذهبه واشترى بالأموال التى جناها ذهباً بكمية أقل وأقل، فالأسعار ترتفع بجنون، وكذلك صاحبى بائع الحديد باع بضاعته واشترى بالأموال حديداً، أقل مما اشتراه سابقاً...

وتزايدت أرباح كلا الرجلين، وخاصة صاحبنا بائع الذهب الذى قال فى نفسه: لو أننى مارست هذا العمل منذ أيام شبابى لكنت الآن "مليارديراً" .. وهكذا استمر فى تجارته وأرباحه.

ولكن فى أحد الأيام وجد تاجر الحديد مشنوقاً بواسطة حبل معلّق بمسمار حديدى غليظ مثبت بأحد جدران المنزل. ووجدوا بجانبه وصية كتب فيها:

(إن كل النقود التى جمعتها لم تستطع أن تشترى لى إلا هذا

المسمار الحديدى الذى علقت به مشنقتى.. لا يوجد أى شخص مسؤول عن حادثة شنقى... أما هذا المسمار وهو كل ثروتى فأوصى أن يوضع بشكل عمودى فى أسفل قبرى).

لقد شارك بائع الذهب فى جنازة جارنا بائع الحديد وحزن كثيراً وقال لى ودموعه تزرف بغزارة:

– إن جارى محظوظ لأنه على الأقل استطاع أن يشترى مسماراً يعلّق به مشنقته بما جمعه من أموال طيلة حياته، أما أنا فماذا أفعل ؟!! لقد اشتريت بكل المال الذى بحوزتى ذهباً وفى كل مرة كانت الكمية تقل إلى النصف وتصغر إلى أن اشتريت فى آخر مرة بكل المال كمية لا أتذكر أين وضعتها لصغر حجمها... يبدو أن زوجتى نثرتها مع الغبار عندما كنت تكنس البيت والنوافذ مفتوحة. لقد اختلطت أموالى مع الغبار وطارت فى الهواء.

لا أدرى ماذا حصل لأموالى "فص ملح وذاب".

٢٥- الماشى .. ماشى والراكب .. راكب

ركبت وأحد الأصدقاء سيارة أجرة من الكاضى كوى، أشار السائق الذى يتصبب عرقاً إلى أحد المشاة الذين يمرون أمام السيارة وقال:

– انظر إلى هؤلاء الناس.. يا أخى إلى الآن لم يتعلموا السير فى الطريق.

أيدته قائلاً:

السير الصحيح فى الطريق .. يا سيدى الكريم هو جوهر المدنية، والمعنى الحقيقى لها... بعد قليل نزل أحد الأشخاص من أحد الباصات من دون وعى فأوشك أن يقع تحت السيارة مما أدى إلى ضغط السائق على الفرامل.. نهضنا جميعاً واندفعنا إلى الأمام كمن يستقبل أحد الناس المهمين فقال صديقى مخاطباً الرجل الذى كاد

أن يقع تحت عجلات السيارة:

– انظر أمامك.

وقال السائق:

– هش.

أخذت سيارتنا طريقها...

– ماذا باستطاعتك أن تفعله لهؤلاء الناس الذين لم يتعلموا إلى الآن السير فى الطريق ؟!

وأكملت الحديث:

– لا خير يرجى لهذا البلد من هؤلاء الناس.

وقفت امرأة تمسك طفلاً على الطريق وقفة رومانسية مستعرضة جسدها كمن يريد أن يلتقط صورة تذكارية، هذه الوقفة أدت بالمرأة إلى (نطح) السيارة برأسها.

تابع السائق قيادته قائلاً لصديقى:

– لا خير يرجى لا من الرجال ولا من النساء، يا أخى لقد خصصوا طريقاً وأسموه طريق المشاة، وخصصوا آخر للسيارات، فما معنى وقفة هذه المرأة أمام السيارات.. لِمَ لا تذهب فى طريق المشاة ؟!!.

أردت أن أقول فكرتى:

– قبل كل شئ.. يجب أن نتعلم السير فى الطريق، أين نحن من الديمقراطية، مازالت بعيدة عن بلدنا كثيراً.

قال أحد الركاب:

– يسلم فمك يا سيدى.. أين نحن من الديمقراطية، ولم نتعلم السير فى الطريق ؟!

وقبل أن يكمل الرجل كلامه، اصطدمنا ببعضنا البعض من جراء ضغط السائق على الفرامل فجأة، وذلك كى لا يدهس أحد العابرين للشارع. كان رجلاً أعرج يمسك فخذيه بيديه.. مددنا رؤوسنا من النوافذ وبدأنا بالصراخ (يا حيوان)... (انظر أمامك يا حمار). كدنا ننفجر من الصراخ على هذا الأحمق الذى لم يتعلم عبور الشارع إلى الآن.

قال صديقى:

– هناك حل واحد لمشكلة السير.. ألا وهو أن لا يعاقب السائق الذى يدهس الناس.. وبعد أن يدهس خمسة أو عشرة أشخاص دون أن يعاقب، ستجد كيف سيتعلم الناس السير فى الطريق.

وقال راكب آخر:

– يا سلا ا ا م.. فكرة رائعة، خاصة وأن المدينة تغص بالناس. عندما يدهس قسم منهم ستصبح هادئة وأقل ازدحاماً.

دخلت إلى الموضوع:

يا سيدى ... كيف ستعطى الحرية لرجل إلى الآن لم يتعلم أصول السير فى الطريق.. من يتكلم صح، ومن يتكلم خطأ ؟!.

إذا كنت تركب سيارة سيكون كلامك صحيحاً، ويكون عندئذ كلام الذين يسيرون على الأقدام هو الخطأ.. أما إذا كنت تسير على الأقدام فأنت على حق والذين يركبون السيارة على خطأ. إن الذين

يركبون السيارة يمثلون السلطة، والأحزاب المعارضة تسير على الأقدام وكلاهما على حق.. هم على حق لدرجة أنهم يغضبون من الذين يركبون السيارة عندما يكونون فى المعارضة، والذين فى السلطة يغضبون من الذين يسيرون على الأقدام.

وهذا هو السبب الكامن وراء الصراخ القائم بين الرجل القادم من السلطة مع المعارضة. وعندما يصبح من المعارضة يبدأ صراعه مع السلطة.

يقول الشعب فى سياق حديثه عن رجال السلطة:

– لم يفوا بوعودهم.

– ولكن كيف لهم أن يفوا بوعودهم وقد ركبوا السيارة.

ويقول الشعب لرجال الأحزاب المعارضة:

– إنهم يتكلمون عكس ما كانوا بالأمس.

– كيف لا وقد أصبحوا ممن يسيرون على الأقدام.

٢٦- كان سيبنى بيتا

Ev YaptIracktI

لما كان يدرك ما معنى أن يسكن فى بيت بالإيجار ومدى المعاناة من ذلك ... فقد تمنى أن يكون صاحب بيت يأويه مهما كانت الظروف ... فأكبر معاناته .. وأصعب ذكريات طفولته هى لحظات الرحيل من منزل إلى منزل بالإيجار ... ففى كل انتقاله كان لابد أن يتعارك والده مع والدته، كانا يتشاجران .. يتخاصمان ... كانت الأشياء التى يمكن كسرها، والأطباق، والأوانى الخزفية توضع بين الشلت وفى الأماكن المليئة. وكانت تُعمل فى شكل بالات. وكانت أمه تلف فى ورق الجرائد من الحامل حتى أنبوب المجمرة.. وتدسها فى الأماكن التى يمكن الحفاظ عليها فيها ..

ثم تحمل الأشياء فوق عربة مزدوجة الخيل ... وما زالت أمه تسعى إلى وضع الأصص والمزهريات فى الأماكن التى تضمن

سلامتها فيها ... فهاهنا القرنفل وهنا الفل وهنا نباتات التى تتدلى من صفائح وعلب الأغذية المحفوظة .. لم ينس أيام طفولته .. ولا عربات الخيول التى تحمل العفش ... ولم ينس الأزيار أو دواليب المطبخ المربطة بالحبال

وما أن يصل العفش إلى المنزل الجديد حتى يكتشفوا تكسر بعض الأكواب والأطباق واللمبات واختلاط الزيتون بالخل .. أو برطمانات السمن على عش الغراب الذى أعدته أمه أو تساقط الزيت من الزجاجات على الملاءات والملابس ... لم ينس قوله والده وهو يسب ويلعن صائحا "الفقر مذلة" كان دائما هذا هو سبب المعارك الكلامية والشجار الذى ينشب بين أمه وأبيه ...

والاستقرار فى البيت الجديد هو أيضا عذاب آخر .. فما أن يستقر بهم المقام ويصيبوا شيئا من الراحة والاستقرار .. فإما أنهم لا يستطيعون دفع الايجار فيتم الحجز والجرجرة إلى المحاكم ويلقى العفش فى الشارع بعد البهدلة فى المخافر أو المراكز أو الأقسام .. أو أن صاحب البيت "أنا سأسكنه .." أو أننى سأرمم البيت .. وما شابه ذلك من الأعذار التى تستوجب الطرد من المنزل . لقد سكنوا تقريبا فى كل أحياء مدينة استانبول .. بداية الطفولة فى قاسم باشا ثم انتقلوا إلى اسكدار .. بدأ الدراسة الابتدائية فى السليمانية

أما الصف الثالث فقد قضاه فى آقسراى وجراح باشا وشهره مينى .. درس فى ثلاث مدارس مختلفة فى سنة واحدة ...

أينما اتجه فى مدينة استانبول وأى محلة ذهب إليها .. وإذا ما

ذهب إلى أى حى من أحيائها فلابد أنه سيجد فى كل بيت من بيوتها ذكرى من ذكرياته .. وكان والده يضع هذه المقولة حلقة فى أذنيه.

"فى الدنيا مكان .. وفى الآخرة إيمان..!"

سنة ١٩٣٠ عندما أنهى الثانوية وانطلق إلى الحياة العملية، لم تكن والدته ولم يكن والده على قيد الحياة .. ولما كان يعرف مذلة الإيجار فقد قرر ألا يتزوج إلا بعد أن يصبح صاحب بيت .. واكتفى ببدلة واحدة طوال خمس سنين .. ولم يعتد السيجارة أو العرقى .. لم يدخل السينما أو يذهب إلى مسرح لم يتنزه أو يتفسح بل عاش كالراهب أو كفقير هندى ..

وفى العام الخامس بعد أن كز على أسنانه .. وأمسك على نفسه استطاع أن يدخر ألفى ليرة بالكاد .. بالنسبة لمن هم فى مثل حالته فالألفى ليرة يعتبر مبلغا كبيرا .. بقدر مبلغه، بل بألف ليرة فقط يمكنه أن يجد بيتا ملكا فهناك بيوت بألف ليرة ولكن ليس ما يريده . فهذه بيوت مهدمة ومستهلكة..

كان يحدث نفسه قائلاً "أشترى أرض فضاء وأبنى عليها البيت الذى أريده .."

إنه يريد بيتا على ساحل البحر ، ذا حديقة واسعة ومنظر جميل .. ويطل على شارع فسيح كان لابد .. فيجب أن يكون هكذا .. وفى المكان الذى يريده بحث وبحث ... حتى وجد قطعتين من الأرض الفضاء فى المكان الذى يروقه والمواصفات التى يبحث عنها .. كان أصحاب الأولى يطلبون ثلاثة آلاف والثانية ثلاثة آلاف وخمسمائة

ليرة . ولكن كانت هناك أراض واسعة وبألف ليرة فقط ولكن لا تناسب متطلباته..

كان عليه أن يدخر نقودا أخرى لبعض الوقت ..

فى سنة ١٩٣٧ وضع الأربعة آلاف التى جمعها فى جيبه وبدأ فى البحث وهو على ثقة أنه سيجد الأرض الفضاء التى يتمناها بل أجمل مما يتمنى ..

توجه إلى الأرض التى يطلبون فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة ليرة ثمنا لها فوجد أن نصفها قد بيع .. وقد شيد فوقها فيلا .. ويطلبون فى النصف المتبقى خمسة آلاف ليرة

فتوجه إلى القطعة التى كانوا يريدون فيها ثلاثة آلاف ... فوجدهم يطلبون ستة آلاف ثمنا لها

وحتى تلك التى لم تكن تعجبه فى الماضى وكان ثمنها ألفا فقط من الليرات إنهم يقولون فيها أربعة آلاف وخمسمائة ليرة

أودع نقوده بالبنك ... وأصبح ممسكا أكثر من ذى قبل ولبس ملابس مرقعة ، رقعة فوق رقعة .. وأحذية نعلاً على نعل .. وها هو الآن قد صرف نظره عن الأراضى التى تطل على البحر .. إنه يبحث عن أرض فضاء فى مكان مميز فى المدينة سيشترى أرضا وسيقيم منزلا، ويشترى جهازا سيتزوج ويصبح صاحب أسرة وعيال ..

استطاع سنة ١٩٤٣ أن يجمع بالكاد خمسة آلاف ليرة ... فمهما أمسك على نفسه وقبض راحته لم يستطع أن يدخر أكثر من ذلك بسبب الغلاء

لقد تم بناء أربعة منازل فوق القطعة التى كانوا يطلبون فيها أربعة آلالف ليرة .. وبقى منها قطعة خالية . وكانوا يطلبون فى تلك القطعة التى بقيت ستة آلاف

لقد أنهى كل شئ منذ أمد بعيد وهو قد صرف النظر عن البحث عن أرض فضاء فى وسط المدينة إنه الآن موافق على تلك التى توجد فى ضواحى المدينة ولكن أين ..؟

الآن لم يعد ممسكا فقط ... بل أضحى واحداً من البخلاء الأشحاء .. لا يأكل ولا يشرب ... كل همه أن يجمع نقودا .. تمت ترقيته .. وتم رفع راتبه الشهرى .. وها هى النقود أكثر من الماضى .. تجرى بين يديه .. ولكن حتى .. سنة ١٩٥٠ استطاع أن يجمع بالكاد سبعة آلاف ليرة لكى تستقر بين يديه ..

هل هناك أرض فضاء بسبعة آلاف ليرة ..؟ إنهم يضحكون فبهذا المبلغ لا يمكن أن تجد أرضا لمنزل ليس فى ضواحى المدينة فقط ، بل لا يمكن أن تجد أرضا تتسع لكوخ صغير بهذا المبلغ وحتى قطعة الأرض التى كانت تباع بألفى ليرة والتى كان قد أطلع عليها فى الماضى، كانت ١/٢٠ منها خالية ومعروضة للبيع، وكانوا يريدون فيها أربعين ألفاً ..

لم يكن هنالك من سبيل لكى يشترى المكان سوى يجمع المزيد من الأموال. فبدأ فى جمع المزيد من الأموال بسرعة جديدة. وحتى قام بعمل نموذج لبيت. كان سيجعل فيه حماماً آلاتوركا وآخر آلافرانجه وفيه أيضا حجرة نوم، وغرفة للضيوف، وغرفة للطعام، وصالون

وحجرة أيضاً للأطفال الذين سيولدون.. كان يريد خمس حجرات. وفى الماضى عندما كان يرغب فى أن يكون بيته من طابقين، فإنه الآن قد غير من خطته. فالآن كان قد كبر، وكان يرغب فى منزل لا سلم له.

فى عام ١٩٥٤ أصبح لديه عشرة آلاف ليرة. وبحث عن تلك الأرض التى هى كبشة أذان (مغرفة غلاية) استانبول. ولكن هذا القدر (الكم) من النقود كان يمكن أن يوجد مكانا خلف "چكمجه" أو "قارتال".

فما كان منى إلا أن أضغط على أسنانى وأشدَ الحزام على بطنى أكثر وأن أعاود كنز النقود بهمة أكبر.

ليته يتمكن من ايجاد أى أرض فضاء ليقيم عليها أى بيت .. لقد صرف النظر عن الخمس حجرات .. وصرف نظر أيضا عن المرحاض الأفرنجى وحتى عن المرحاض المصنوع على الطريقة التركية أيضا .. إنه يتمنى غرفة واحدة .. يكفيه أن تتسع لكى يتوارى فيها .. إن أول ما سيفعله بعد أن يبنى بيته أنه سوف يتزوج ..شهد عام ١٩٥٦ خروجه على المعاش .. ومن معاشه مهما قلل من طعامه أو من شرابه فلن يستطيع أن يدخر منه شيئا .. فطوال المدة التى قضاها فى العمل والتى بلغت ستا وعشرين سنة لم تتجاوز مدخراته اثنى عشر ألف ليرة هذه هى نتيجة كل المساعى التى بذلها

بهذا المبلغ لن يجد أرضا لافى داخل المدينة ولا فى خارجها ..لا على الساحل البحر ولا على قمة أى جبل. إن البحث عن أرض فضاء

جعله وكأنه زاد عمره عشرين سنة أخرى وكانت كلمات والده مازالت تطن فى أذنيه:

"مكان فى الدنيا .. وإيمان فى آخره "

لم يبق له مكان فى هذه الدنيا وعليه أن ينظر إلى العالم الآخر.

ذات مساء وهو عائد مرهق ومكدود من البحث عن أرض فضاء رأى جبانة تطل على الطريق فدخلها كم كان المكان جميلا هناك .. فها هى حديقة غناء كتلك التى تمناها فى خياله كحديقة لمنزله ... الورود .. الزهور .. الأشجار .. الخضرة .. الأعشاب .. النظافة ... الخضرة .. والأزهار مختلفة الألوان وما أن رأى المدافن الرخامية فيما بين الورود حتى تبادر إلى ذهنه

– يخيل للمرء وكأنه سيدخل إلى هذه المدافن الجميلة فورا ..!!

على أية حال .. ألسنا سنموت ..؟.. علينا أن نشترى مكانا لمدفن ونحن أحياء .. يجب على المرء أن يبنى المدفن الذى يتمناه وهو على قيد الحياة ..

كانت الجبانة على قمة جبل .. فى مواجهة البحر .. إن الرقاد فى نوم أبدى تحت ظلال أشجار السرو الظليلة لهو أفضل من هذه المعيشة ..

فى اليوم التالى مباشرة هرع إلى مديرية إدارة المدافن .. فلسوف يشترى لنفسه مكانا لمدفن ..قالوا له:

– لايوجد مكان خال فى الجبانة التى تريدها ..

ولكن لو أردت فى جبانة أخرى يمكنك أن تشترى مكان مقبرة

جميلة المنظر بعشرين ألف ليرة ..
فقلت وقد تملكنى الخجل
– أرخص من ذلك .. ألا يوجد مكان يتناسب معى ..؟
قال :
– يوجد .. يوجد بخمسة عشر ألف واثنى عشر ألفا وبأحد عشر ألفا فكر.. ولأن تجربة مع الأرض الفضاء .. فأسعار المدافن أيضا ربما تنطلق وبهذا المبلغ ... يمكن ألا يجد به مدفنا ... وعلى الفور .. فى ذلك اليوم استكمل الأوراق ... واشترى مدفنه دون أن يراه ..

ثم ذهب ورأه .. كان مكانا مغلقا .. بلا منظر أو هيئة .. مكانا يقع بين حطام وأطلال مشاهد القبور القديمة ولكن تملكته الفرحة .. ووسط لمعان بؤبؤ عينيه أطلق زفيره فرحة وهو يقول:
– اوووه .. هذا ملكى ... ملكى أنا ..

الآن .. كل يوم .. وكما كان يفعل عند ذهابه إلى عمله . كان يستيقظ مبكرا ويأتى إلى الجبانة .. ويجلس هنا وسط بهجة وفرحة كونه أصبح أخيرا صاحب أرض وتراب .. كان يخلع النباتات الطفيلية الغريبة ..ويغرس الزهور التى أحضرها .. وينتظر بشوق اليوم الذى سيتم فيه الوصال مع مكانه ...

٢٧- صاحب البناية التى نقطنها

Bizim Apart?man?n Sah?b?

أنا أسكن فى عمارة مكونة من سبعة طوابق، خمسة طوابق من طوابق البناية فوق سطح الأرض . وطابقين منها تقع تحت سطح الأرض مثل المراقد المعدنية ويوجد تحت هذين الطابقين أيضاً نصف طابق آخر .. وعلى الأقل، هناك لغز يقول "رأس والدى تحت الأرض" .... وأنا هكذا، تحت الأرض كرأس والدى، حيث أننى أقطن نصف الطابق الذى تحت الأرض. كانت أسقف طابقنا منخفضة لدرجة أننى لم أستطع الوصول لأى نوع من القرارات على مدى عامين فيما إذا كان صاحب المبنى أكثر (انخفاضاً) أم هى الأسقف ؟ ..

ولتقولوا علىَّ ذكى، حيث أنه برغم أننى ظللت قصير القامة من أجل أن لا أصدم رأسى بسقف الباب؛ إلا أن السقف كانت تصدم رأسى مرة بعد أخرى مثل سيف "ديموقليس" مرتين أو ثلاث فى

اليوم وكأنما كانت تنصحنى قائلة " اعرف نفسك، لا توجد استانبول غير تلك"

منذ هذه المدة وأنا لم أصل إلى هذا القرار هل السقف أم صاحب العمارة أيهما أكثر انحطاطا..! وبالرغم من أننى قد ظللت قصير القامة حتى لا يرتطم رأسى بهذه الأسقف واصفين اياى بالذكاء .. إلا أنه لا يمضى يوم إلا وأن الأسقف وكأنها سيف ديموكلس ترطم رأسى مرتين أو ثلاث يوميا .. وكأنها تنبهنى قائلة "أفق إلى نفسك" ألا يوجد فى استنابول منزل آخر غير هذا ...!

أنا مسرور جدا من هذا المنزل لأنه طالما لا يوجد فيه ما يمكن أن نطلق عليه منظر أو ما شابه ذلك فإن ذلك يقضى على شهية من فى المنزل يوما بعد يوم وهكذا فنحن على قدر ما نكسبه نعيش داخل منزلنا وفى نطاق شرفنا مرتاحين البال

ولما كان منزلنا لا يطاله الهواء أيضا فلهذا السبب ليس لدينا مشكلة التعرض للهواء ، أو نزلات البرد ، أو أدوار الزكام خاصة وأن الشمس أيضا لا تعرف طريقه وهذه من أجمل خصائص وصفات منزلنا حيث أن الشمس لا تعرف عنواننا ولا تستطيع أن تجده لذا فإنها لا تدخله .. ولكن منزلنا الذى لا تعرف الشمس عنوانه ولا يمكنها الاستدلال عليه فإن موظفى تنفيذ الأحكام ... والمخبرين يعرفونه وكأنهم هم الذين وضعوا أساساته بأيديهم .. ولما كانت الشمس لا تدخله فإن ستائرنا لا تبهت ... ولا نحن أيضا وهناك حسنة أخرى بالمنزل .. فلما كان المنزل أكثر انخفاضاً عن

مستوى سطح الأرض فإن علماء الأشعة يعجزون بأشعتهم اختراق.. فلكى يعرفون ما بداخله فإنهم فى حاجة لدوربينات كتلك التى تستخدمها الغواصات .. كما أنه لم يحدث فى منزلنا من سنتين ما يستحق الفرجة والمشاهدة فحمدا لله .. ولو أراد المتلصصون أن يتفرجوا علينا .. فمما لا شك فيه أن الخجل سيتملكنا

إن محاسن منزلنا لا تحصى ولا تعد .. فمنزلنا لا يعرف على الإطلاق كارثة انقطاع المياه .. فلو انقطعت مياه كل استانبول .. ولو احترقت استانبول من العطش أو انقلت . فنحن لا نبقى بدون مياه .. فالمياه تخر من جدرانه شتاءا وصيفا .. تناول أى صنبور فى يدك دق صنبور فى أى مكان يصادفك فى الجدار ثم أدر الصنبور، فلسوف تتدفق المياه وتخر خريرا متواليا .. جميل .. ولا تبذل فيه أى مشقة .. وفى المطبخ أيضا بعض المنخفضات وما عليك إلا أن تغمس الكوز أو الطاسات فتمتلئ بالماء

المستأجر الذى كان قبلنا .. وقحاً .. لم يتحمل معاناة أهل استانبول من العطش وانقطاع المياه فدق صنابير فى جدران المنزل وملأ الزجاجات من المياه المتدفقة من الجدران وطرح هذه الزجاجات فى الأسواق على أنها مياه جدران معدنية .. وهكذا تحول منزلنا سويقة واصطف السقاءون فى طوابير أمام منزلنا .. كما أن مياه الجدران المعدنية هذه أصبحت ذات تأثير عظيم ..! فمن شرب منها زجاجتين .. تنظف داخله من كل الشوائب والحصوات ..ومن يشرب منها عشر زجاجات أو أكثر فلا يبقى داخله رمل أو حصى أو صخر

بل حتى كليتيه والمثانة والمصارين فإنها تتساقط .. لقد أصبحت مياه الجدار المعدنية تباع بالروشتة ومن يشربون مياه الجدران المعدنية هذه عشرة أيام متصلة فإن كل أعضاء جسمه الداخلية تتصلب من الجير الذى ألم بها .. والذين يشربون أكثر من ذلك يتحولون إلى هياكل كتلك التى تصنع من الأسمنت.

إن المستأجر الذى كان قبلنا كان وفياً .. وما إن أصبح استانبوليا حتى زاد حرصه وطمعه .. فإن صاحب منزلنا طالبه بترك المنزل بحجة أنه سوف يزوج ابنه ولعله بهذه الحجة يخرجه من المنزل إلا أن المستأجر الماكر – طلب كشف الطب الشرعى على صاحب البيت واستخرج من الطب الشرعى تقريرا بعجز صاحب البيت على الإنجاب وليس فى مقدوره إنجاب .. ولكن صاحب البيت فى مقابل ذلك نجح فى استخراج تقرير من البلدية ومن الشؤون الصحية بعدم صلاحية المكان للحياة الآدمية، وتمكن من إخراج المستأجر .

وها نحن قد استأجرنا منزلنا هذا من بعده .. ولكن فى عقد الإيجار مادة لا تسمح لنا ببيع مياه الجدران .. ولم يتوافر لنا ذلك خاصة وأن صاحب العمارة قد حول مياه الجدران إلى عمارته الأخرى المجاورة ولم يتبق من المياه إلا ما يكفينا بالكاد . ولم تعد فى الجدران مياه يمكن بيعها ..

وهناك شئ آخر هام جدا .. فى دور عمارتنا فإن جدران الكريدور = الدهليز قد غطتها مادة القصدير من الرطوبة .. لدرجة أننا نجمع فى كل يوم كيلو جراما من هذا القصدير من على

الجدران . فكما تعلمون إن القصدير مادة كيميائة غالية الثمن ونحن نبيع ما نجمعه إلى مشترى القصدير، كنا نرتعد خوفا من أن يشعر بذلك صاحب منزلنا فلو سمع أننا نكسب نقودا من تجار القصدير فإنه سيطردنا من المنزل.

إن محاسن منزلنا لا تحصى ولا تعد .. ولأقل لكم حسنة أخرى من حسناناته فإن منزلنا لا يزوره أى ضيف فلو كان لنا منزل مشمس له فسحة ، متجدد الهواء .. مفرح لما استطعنا أن نحك رؤوسنا من كثرة الضيوف أننا نعرف أوائل الشهر من طلة صاحب منزلنا ولو طلبنا أمهالنا يوما أو يومين لتدبير الايجار .. لتأوه .. وتوجع .. وبكى .. لدرجة تدفعك أن تستدين بالربا ليس لتدفع الإيجار فقط ولكن لكى تمد له يد المساعدة أيضا .. فعلى المسكين أن يدفع شهريا عدة آلاف من الليرات سدادا لكمبيالات مستحقة .. وكثيرا ما يحضر هذه الكمبيالات معه ويظهرها قائلا :

– إذا لم تكن تصدقنى أنظر ..

ولمنزلنا حسنة أخرى أنه يحتوى على كل ما نعرف أو لا نعرف من الهوام والزواحف والحشرات .. فمن النمل والبعوض والذباب والصراصير إلى السحالف والعقارب والسحالى والأبراص والزواحف وأم أربع وأربعين كل ما يخطر على البال من هذه المخلوقات له فى بيتنا مكان .. إن أستاذا المانيا من أوئل الذين تولوا التدريس فى جامعة استانبول كان قد اتخذ من عمارتنا هذه عند بداية إنشائها مركزا لأبحاثه على الحيوانات والحشرات وقد اكتشف

وهو يعمل هنا ثلاثة أجناس من الحشرات غير المعروفة وتمكن أن يجمع من عمارتنا أكبر مجموعة حشرية وقد سجلها باسمه ونال عليها شهرة واسعة. إن صاحب بيتنا هو الذى حكى لنا ذلك وهو يؤجر هذا الدور حيث قال :

– قال هذا البروفسور الألمانى .. يا ألف خسارة عليكم .. قال .. أنتم لا تعرفون قيمة أى شئ .. قال .. لو أن مكانا مثل هذا فى بلدنا ألمانيا لحولناه فورا إلى متحف حشرى .. ولما أصبحت هناك أية دواعى للذهاب إلى الكليات لدراسة علم الحشرات فإن الطالب يرى هنا كل الأنواع الحيوانات والحشرات يفحصها ويدرسها ويتعلمها .. ولهذا فأنا لن أخفض الإيجار قط . لهذا السبب لم أستطع أن أخفض الإيجار عشرة قروش.

إن صاحب منزلى كان بوابا سابقا لإحدى البنايات فى البداية امتلك البوابة ... ثم أصبح صاحب بيت كبير متعدد المنازل والطبقات.

كنت لم أتمكن من دفع إيجار شهر ما .. فحضر صاحب عمارتى إلى إدارة المجلة التى أعمل بها .. ولما كان قد عمل كبواب لمديرى فى العمل قبل عشرين سنة فقد عرفه مديرى على الفور .. فسأله قائلا :

– خيرا إن شاء الله يا على أفندى ..؟

– جئت لتسلم الإيجار

– أى إيجار ..؟

– إن حسن بك مستأجر فى عمارتى ..

– كيف ..؟ هل لديك عمارة ..؟

فاستغرب صاحب عمارتى من كلام مديرى هذا ... وقال :

– العدل والرحمة يا سيدى المحترم .. منذ عشرين سنة وأنا فى استانبول كنت أدوس أرصفة استانبول .. أبعد كل هذا لا يكون لدى عمارة فى استانبول ..؟

– فأنا من مواليد استانبول .. وكبرت بها .. وأنا فيها ليس من اثنين وعشرين سنة بل من اثنين واربعين سنة وتملكنى الخجل من ذلك وأحنيت رأسى فى انكسار .. ومن ذلك التاريخ إذا ما سألنى أى شخص قائلا :

– من أين أنت :

فأرد عليه قائلا

– أنا من سيواس ولم يمض على وصولى إلى استانبول سوى ستة أشهر

إن صاحب عمارتى يمتلك غيرها .. فله سواها عمارة أخرى . وله بيت فى نيشان طاس وله عدة قطع أراضى فضاء فى أماكن مختلفة وله دكان أيضا كان كلما جاء لتسلم الإيجار كل شهر وإذا ما تكلم عن ديونه وإذا ما أخرج الكمبيالات المدين بها كنت أسأله قائلا :

– بالله عليك يا على افندى ... متى جمعت وكونت كل هذه الأموال والممتلكات

وكان دائما ما يكون رده أيضا :

– إذا لم أفعل ذلك كان ذلك عيبا يا حسن افندى فنحن هنا منذ

اثنين وعشرين سنة ندوس أرصفة استانبول.

يوم أمس حلت مصيبة كبيرة على رأس صاحب عمارتى .. فقد قبض المخبرون على الرجل المسكين وهو يتاجر فى السوق السوداء وزج به وكيل النيابة إلى السجن وقلت لنفسى إن الإنسانية لم تمت بعد. فأخذت أربع علب من السجائر العادية وذهبت لزيارته .. كان المسكين يبكى خلف أسلاك السجن ولكى أسرى على صاحب البيت المسكين قلت مسريا:

لا تحزن يا على أفندى فمنذ اثنين وعشرين سنة وأنت فى استانبول ألا يجب أن تدخل سجنها أيضا ..؟ هون على نفسك .. ستدخل وتخرج كثير وكثيرا .. ستتعود يا أخى .. لا تحزن .. هون على نفسك ..

٢٨- منزلنا

Bizim ev

حتى صاحب هذا البيت الممتد فوق أرض واسعة لا يعرف كم غرفة يحوى هذا البيت الموروث عن الآباء والآجداد منذ زمن موغل فى القدم . هذا البيت المؤلف من غرف واسعة وصالات وشرف واسعة ، كان الذى يدخله يخاف كمن يدخل إلى مغارة مخيفة كتلك التى نسمع عنها فى الحكايات . وكان صاحب هذا البيت يسكن مع زوجته الجميلة وأبنائه وبناته الرائعين. مع أن هذا البيت كان يتهدم شيئا فشيئا فقد كان صاحب هذا البيت يفتخر قائلا :

– بيتنا إرث عن آبائى وأجداى . وكان كلما تذكر هذا البيت يصل طرفا فمه إلى أذنيه ويضرب على صدره بافتخار.

وعندما بدأ الطابق العلوى من البيت ينهار رحل أصحاب البيت إلى الطابق الأوسط . وعندما تهدمت نوافذ وجدران البيت المطلة على

الحديقة نقل أصحاب البيت أمتعتهم وأقاموا فى الصالون الداخلى والغرف المجاورة له. ولكثرة غرف هذا البيت كانوا كلما تخربت جدران بعض الغرف ينتقلون إلى غرف أخرى أكثر أمانا تحميهم من العواصف والمطر والبرد.

تعلق آمالهم فى هذا نابع من كونه واسعا ، لأنهم يستطيعون أن يبدلوا غرفا طيلة حياتهم ... وباختصار كان صاحب هذا البيت محقا عندما يفتخر قائلا : هذا بيتنا .

وفى أحد الأيام دق باب هذا البيت الكبير وكان القادم جارا يسكن على يمين البيت. ولأن احترام الضيف من الميزات التى تربى عليها صاحب هذا البيت فقد دعاه للجلوس ودارت بينهما الأحاديث :

– إن بيتنا ناقص ...

فقال الجار :

– بيتكم جميل جدا . وكبير . ومنظره رائع جدا.

فقال صاحب البيت الذى أسعده هذا الكلام :

– لا يوجد ما يقال على منظر بيتنا.

وبناءا على هذا الكلام يسأل الجار :

– إن بيتنا لا يتسع لنا لأن عائلتنا كبيرة وأنا اتساءل :

– أنستطيع أن نجد عندكم غرفة فارغة للإيجار ؟..

فكر صاحب البيت بعرض جاره ، لم يجده سيئا أبدا ... إذ بإمكانه أن يؤجر إحدى الخرب الخاوية المتهدمة وبنقود الإيجار يمكن أن يصلح الدرج ويرمم الأبواب ، خاصة أن أغلب الغرف فارغة ...

قال لجاره

– ممكن ، اختاروا الغرفة الفارغة وأقيموا فيها .

استأجر الجار إحدى الغرف وبدأ صاحب البيت يفتخر أمام معارفه ويقول :

– لقد أجرنا غرفة من غرف بيتنا . وبعد مدة جاء مستأجر آخر ، وقال لصاحب البيت لقد سمعنا أنك تؤجر غرف بيتك ، هل تؤجرنا غرفة فيه ؟.. قبل صاحب البيت ، وأعطاه غرفة من بيته وبعد أن انقضت مدة من الزمن جاءه جار آخر وقال له :

– حديقة بيتكم واسعة جدا وأنتم لا تزرعون بها شيئا ، فلم لا تؤجرنى عدة دونمات منها؟..

فقال صاحب البيت

– ممكن ...

وبعد مدة قال له أحد الجيران :

– إننا بأزمة ونحتاج إلى الماء خاصة أن مياه بئرنا قليلة جدا .. هل نستطيع الاستفادة من بئركم ؟..

فكر صاحب البيت قليلا ثم قال :

– لم لا تحفرون بئرا فى حديقتكم ؟..

فقال الجار :

– حفرنا ، ولكن أسرتنا كبيرة جدا ولهذا لا يكفينا ماؤه كما أننى سأعطيك ثمن الماء الذى سأخذه من بئركم .

– لم ير صاحب البيت أى مانع من إعطاء الماء لجاره ..

– قال أحد المستأجرين :

– أريد طريقا يمر من حديقتكم إلى بيتنا لأننا كيف سنسكن فى بيتنا وفى غرفتك من دون أن يكون هناك طريق يصل بينهما .

قال صاحب البيت

– الحق معك يا سيدى ..

– وشق طريقا فى حديقته

– أصبح الآن يفتخر أكثر بالبيت الذى ورثه عن أجداده وكانت عيناه تغرورقان بالدموع من الفرح عندما يقول ... بيتنا .

قال سكان البيت

– لا تكفى لكل منا غرفة واحدة ولهذا نريد أن نستأجر لكل منا غرفة جلوس فى بيتك .

– ولم لا ... يوجد فى البيت غرف كثيرة عل كل حال

وبعد مدة طلب المستأجرون طلبا أخر :

– نريد غرف نوم ...

قال صاحب البيت :

– هذا حقكم اختاروا الغرف التى تعجبكم .

– نريد مطبخا .

– تستطيعون استعمال المطبخ

– لقد أصبح غنيا بعد أن سالت النقود بين يديه ، حتى أن زوجته وبناته كن يرقصن ويغنين من شدة فرحتهن . وكان باستطاعة الأولاد أن يتسلوا ويمرحوا كما يريدون كما أصبح باستطاعته احتساء

الخمر فى المساء

وكان يزيد افتخاره كلما قال :

– بيتنا .

قالوا

– إذا لم ترمم البئر سنبقى بلا ماء

فقال صاحب البيت

– أنا لا أملك النقود الكافية

– نحن لا نفهم هذا الشئ إننا ندفع لك الإيجار بشكل منتظم . ولهذا عليك ترميم البئر ولكن من الممكن أن نقرضك نقودا بالفائدة

قال صاحب البيت :

– شكرا لكم . لن أنسى جميلكم هذا ما حييت

– رمم البئر الذى كادت جدرانه أن تتهدم وبمناسبة ذلك أقام حفلة غداء ودعا المستأجرين إليها وبهذه المناسبة ألقيت كلمات الترحيب من كلا الجانبين ومع مرور الزمن ازدحم البيت أكثر ولم تعد مياه البئر تكفى.

قالوا :

– افتح بئرا آخر..

– معكم حق ، ولكن لا يوجد لدى نقود تكفى .

– سنقرضك بالفائدة كما أننا لا نرى أى حرج من ذلك .. فكر صاحب البيت سيصبح البئر ملكه الخاص وستحيا حديقته عندما يزدادا الماء ، قام بحفر الآبار فى الحديقة على الفور . وكان المشروع

ينص على حفر ثلاثة آبار . ولكن لم يستطع حفر أكثر من بئرين وحفرة ، لأنه أعطى قسما من النقود التى اقترضها لزوجته وبناته ، وفى الحقيقة إنه لم يعطهم النقود بل أجبر على إعطائهم إياها ، لأن زوجته وبناته عندما رأوا نساء وبنات المستأجرين ، أحبوا أن يقلدوهن فقال صاحب البيت لهم :

– إنهم أغنياء جدا ويملكون البيوت والحدائق ومع ذلك استأجروا فى بيتنا لأن بيوتهم لا تتسع لهم لكثرتهم

– ولكن كل ما قاله لم يجد نفعا فأعطى قسما من نقود الإيجار إلى زوجته وبناته وأبنائه . المرأة والبنات اشترين بالنقود حمرة الخدود وظل الجفون والمسكرة والألبسة الداخلية والأحذية وأشياء تقليدية وذهبن إلى مصفف الشعر لصبغ شعرهن .

بعد مدة قال أحد المستأجرين :

– الطريق غير صالحة ، ولذلك نريدك أن ترصفها لنا

قال صاحب البيت :

– لا أستطيع رصفها.

فقال المستأجر :

– أنت مجبر على ذلك لأننا ندفع الإيجار لك بشكل منتظم

– لا أملك النقود

نعطيك قرضا إن أردت

فرح صاحب البيت بذلك وقال

– اعطونى النقود

– نحن لا نحب الإسراف وأنت كنت قد أعطيت نقود القرض الماضى إلى زوجتك وأولادك لكى يشتروا بها أشياء سخيفة ولهذا قررنا أن نراقب كيف تصرف هذه النقود.

– ليكن ... فالطريق الذى سيشق هو طريقه والبيت بيته ولهذا فقد كانت عيونه تلمع من شدة الفرح وطرفا فمه يصلان إلى أذنيه وهو يقول : بيتنا .

قال المستأجر :

– إن السقف يرشح لم نعد قادرين على الجلوس تحته

فكر صاحب البيت وقال :

– لا يوجد لدينا نقود

– أعطنا غرفة أخرى وبنقودها رمم السقف

وبدا صاحب البيت يقول لجيرانه المستأجرين :

– الله يرضى عنكم ، لولا وجودكم ما استطعت ترميم السقف أبدا

قال المستأجرون :

– إن الدرج يهتز أجر لنا ثلاث غرف أخرى وبنقودها رمم قاعدة الدرج.

قال صاحب البيت :

– بيتنا أصبح سليما متينا.

قال المستأجر :

– ثقبت مواسير الصرف الصحى.

– لم يبق فى البيت أى غرفة للإيجار فنقل أصحاب البيت أمتعتهم إلى الطابق السفلى . وعندما أجروا هذا الطابق أيضا صرفوا النقود التى استلموها على ترميم مواسير الصرف الصحى.

– طلاء البيت لم يعد مناسبا .

– طلب نقودا من أجل الطلاء . لم يجد فالنقود التى يأخذها كانت تصرف على ترميم البيت ، ومصاريف زوجته وأولاده التى ازدادت بازدياد طلباتهم

– بدأ موسم الصيف وبنى صاحب البيت كوخا فى حديقة البيت وأقام فيه بعد أن أجر كافة غرف البيت وطلى البيت فأصبحت جدرانه كالمرآة.

– الآن فقط أصبح بيتنا يشبه البيوت الرائعة

قال المستأجر:

– يحتاج البيت إلى ورق الجدران

– لا أستطيع أن أعمل أى شئ

– إن البيت بيتك

صحيح إنه بيته ولكن لا يوجد معه نقود وإذا لم يضع ورق الجدران فإن المستأجرين سيخرجون من البيت ويطالبون بديونهم الكثيرة .

– بدأ المستأجرون بالمطالبة

– إذا كنت لا تريد أن تجمل جدران البيت سنخرج منه. أما صاحب البيت الذى نسى تربيته القديمة وعاداته الأصيلة فقد قابل

وقاحة المستأجرين التى بدأت تزداد بقوله أرجوكم أن تبقوا فى بيتى .- زوجة صاحب البيت بدأت تعمل طباخة عند المستأجرين وأيضا بناته وأبنائه ... كلهم أصبحوا عمال مأجورين عند المستأجرين

– واشتروا ورق الجدران بالنقود التى حصلوا عليها لقاء ذلك.

– لقد أصبح البيت القديم جديدا ورائعا وكعادته القديمة كان صاحب البيت فخورا ببيته عندما يدفع ضرائبه كان فخورا جدا بنفسه وهو يراقب بيته من بعيد.

– كان المستأجرون لطيفين إلى درجة أنهم أنبوا صاحب البيت قائلين

– انت لا تعتنى بزوجتك أبدا ، اشتر لها حذاء جديدا واشتر لبناتك جوارب جديدة بدلا من جواربهم الممزقة فنحن لا نريد أن نرى هذه المناظر القبيحة أمامنا

– قال صاحب البيت معكم حق ولكننى لا أملك النقود

– هى الزوجة ، زوجتك والبنات بناتك عيب عليك ، ومع ذلك سنقدم لك المساعدة ... شكرهم صاحب البيت

– وفى يوم من أيام الشتاء عندما كان صاحب البيت يجلس مع أحد ابنائه فى الكوخ .. بينما زوجته وبناته وباقى أبنائه يلبون طلبات المستأجرين فى البيت نظر الرجل من نافذه كوخه إلى بيته الذى تنبعث الأضواء من نوافذه وقال لولده الجالس بجانبه :

– فى الحقيقة لقد أصبح بيتنا جميلا جدا . أنا فخور به

فسأله ولده:

– أى بيت ؟!! ..

– وكم بيتا نملك .. بيتنا الذى أمامك

فقال ولده :

– على ما يبدوا يا أبى إن هذا البيت لم يعد بيتنا

– وفجأة غضب الرجل وصرخ

– ماذا تقول ؟!.. ليس بيتنا ؟!.. وكيف طاوعك لسانك على قول ذلك ؟!.. فقال الشاب

– لدى أحساس بأن هذا البيت لم يعد لنا .. لا نجلس فيه ولا نتنزه بحديقته ولا نتمشى بطريقه ولا نشرب من مائه

– صرخ الرجل ولكنه بيتنا

– وأخرج من جيبه ورقة مطبوعة وبدأ يلوح بها ويصرخ :

– أنظر ... ها هو العقد إنه باسمى أنا . وأنا من يدفع ضريبته ... أخرج من هنا أيها الولد الخائن . إننى برئ منك إلى يوم القيامة

– وأثناء خروج الشاب مطأطئ الرأس من الكوخ راح والده يصرخ وهو يطوى الورقة ليضعها فى جيبه:

– أيها الابن العاق أنتَ لستَ ولدى إنى برئ منك فهذا منزلنا وهذا هو عقد ملكيته.

– عرفتم هذا البيت الذى نعيش فيه كُلنا ، أظن هذا البيت قد ورثناه عن أجدادنا.

٢٩- تقبل الله

Allah Kabul etsin

كعادته فى كل يوم يدق صاحب بناية السعادة حمزه بيك نافذة إحدى الغرفتين المتقابلتين حيث يقيم البواب أمين أفندى ويصرخ :

– أمين أفندى .. أمين أفندى .

وبعد ذلك يبدأ سعاله.

لم يكن أمين أفندى بوابا للبناية وحسب بل كان ومنذ أربعة عشر عاما مساعدا لحمزه بيك وصديقا حميما وشريكا لهمومه ومديرا لأعماله ... وكل شئ.

– أمين أفندى ... أمين أفندى.

ويصاحب هذا النداء سعال جاف من القصبة الهوائية

– إنى قادم .. قادم ...

بناية السعادة مؤلفة من ستة طوابق فى كل طابق شقتان أحدهما

على اليمين والآخر على اليسار ، وفى الطابق الأرضى دكانان إحدهما على اليمين والآخر على اليسار يوجد دكان على اليمين ودكان على اليسار .

فى الأولى تاجر أقمشة والثانية بائع حلويات .

تقع غرفة أمين أفندى تحت هذين الدكانين وملاصقة من غرفة التدفئة.

– أمين أفندى، أقمت صلاة الصبح منذ قليل .

– تقبل الله يا بيك ..

– هل تعرف ما الذى خطر ببالى عندما كنت أصلى ؟ .. كنت أصلى وفجأة خطر ببالى سكان الشقة الرابعة . هل أخذت منهم إيجار هذا الشهر ؟ ..

– أخذناه يا بيك ... وأعطيته لك البارحة.

– نعم أعطيتنى إياه ليس هذا ما قصدته هل مازالوا يدفعون الإيجار كما كانوا يدفعون قديما يا أمين أفندى .. عندما كنت أصلى فجأة بدأ الدم يغلى فى عروقى .

– لا حول ... اذهب ... اذهب مباشرة إلى المحامى وقل له الله ... الله .. هل هؤلاء الناس مصيبة وقعت فوق رأسنا ؟! ... التوبة يا ربى، لا يتركوننى بحالى حتى وأنا فى حضرة المولى جل جلاله، قل للمحامى : ليخرج سكان الشقة الرابعة . هل فهمت يا أمين أفندى ؟...

– فى التو اذهب إليه وليرفع دعوى عليهم وإياه أن يعطيهم

إيصالا عندما يقبض النقود منهم .. أليس كذلك ؟! ... ليقل بأنهم لم يدفعوا الإيجار، لا حول ولا ... لا نرتاح ونحن نصلى، هيا يا أمين أفندى هيا لاتقف ...

– فى هذه الساعة لا يمكن أن نجد المحامى فى مكتبه .

– كيف لا نجده ... فالمسلم الحقيقى هو الذى يستيقظ حالما تشرق الشمس ويقول بسم الله ... اذهب وانتظر على باب مكتبه .

– لم لا تتصل به هاتفيا ؟..

– غير ممكن لا يمكننا التحدث بمثل هذه المسائل الجدية بواسطة الهاتف .

– اذهب ... لا تتكاسل، قل له ما قلته لك . ألم يبق أيه رحمة فى هذا البلد ؟ .. ألم يعد للإيمان وللدين أى مكان فى قلوبهم ؟.. لا إله إلا الله .. توبة ... توبة .... توبة ... يا سلام ما أحلاك تعال واحتل شقة مكيفة ثمانمئة ليرة .

– يدرك أمين أفندى تماما بأن حمزة بيك لن يتصل هاتفيا لأن الاتصال يكلف ٢٥ قرش.

– ألا يؤله دفع ذلك ؟ ولكن أمين أفندى سيدفع أجرة الانتقال إلى المحامى من جيبه ... آه ... والبيك لا يفكر بذلك أبدا . يوجد عند حمزه بيك معمل يديره ولده . كما أنه شريك فى مصرفين، حصته فى الأول مليونان ليره وفى الثانى ثلاث ملايين ونصف ويوجد لديه أيضا معمل صابون يديره صهره وعنده بنايات كثيرة . كما أنه قد بنى العام الماضى بناية، فى الحقيقة ليست بناية فقط بل حى بأكمله، إذ

إنها تتألف من ثمان وعشرين شقة . ويوجد تحتها سوق كبيرة ! ... عندما كان يتناول أمين أفندى طعام الغداء دق زجاج نافذته:

– أمين افندى ... أمين أفندى .

– فتح الباب ..

– تفضل يا بيك ...

– كنت أصلى صلاة الظهر ..

– تقبل الله ...

– هل تعرف ماذا خطر ببالى عندما كنت أتهيأ للسجود ؟.. فى الصباح مررت ببائع الحلويات نيجو، تعرفه ... أليس كذلك ؟.. إنه الرجل الذى يسكن عندنا . أه يا أمين أفندى كان الدكان مزدحما جدا بالزبائن . حتى أن الجرسون لم يعد قادرا على تلبية طلبات الجميع .

– وزوجته تجلس وراء الصندوق وتكدس أوراق النقود فوق بعضها ... ولك هل أنا المغفل الوحيد فى هذه الدنيا ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله الـ ...

– استغفر الله العظيم... سأرفع قيمة الإيجار . ألا يعرف هؤلاء الناس شيئا اسمه الحق ؟ ... اذهب ... وقل لهذا الكافر اعتبارا من هذا الشهر سيدفع ألفين وخمسمائة ليرة .. أفهمت ؟ .. قل له بأنى نبهته فلا يلومن إلا نفسه إذا استدعيته إلى المحكمة .. أقسم بالله بأن هذا الكافر سيكون سببا فى إفساد صلاتى

– استنادا إلى هويته الشخصية فإن حمزة بيك فى الثانية

والسبعين من عمره لكنه يحب أن يظهر نفسه بأنه عجوز أكثر من ذلك إذ أنه يقول أن عمره بلغ الخامسة والسبعين وقد اعتاد منذ أن كان فى الخمسين من عمره يردد عبارة "رجل على حافة القبر" فهو يعرف بأن إظهار نفسه بهذا السن سيعطيه بعض الوقار والاحترام فى الوسط الذى سيعيش فيه.

– حمزه بيك الذى يسكن الشقة السادسة نادى من نافذة شقته التى فى الأعلى

– أمين أفندى ... أمين افندى.

– فى الحقيقة، يوجد جرس للبواب ولكن حمزة بيك لا يحب استعماله إذ أن الجرس سيستهلك كهرباء فى حال استعماله.

– خرج أمين أفندى إلى النافذة وقال:

– تفضل يا بيك ...

– تعال يا أمين أفندى تعال ... إصعد إلى شقتى حالا

– كان حمزة بيك ينتظر عند الباب ...

– يا أمين أفندى منذ قليل كنت أصلى العصر ..

– تقبل الله ...

– أتعلم ما خطر ببالى وقتها ؟..

– آه ومن أين لى أن أعرف ؟..

– الله ... الله ... ألم اقل لك يا أخى ... ألهمنى الصبر يا إلهى، حتى وأنا فى حضرة الإله لا أستطيع أن أرتاح، ماذا قلت لك ؟ لقد تعطلت كهرباء الدُرج وعليك أن تأخذ خمس ليرات من كل شقة ...

– الحمد لله لقد تذكرت، هل أخذت منهم ؟ أعرف بأنك نسيت ..هيا اركض ودق أبوابهم .. إما أن يصلحها من عطلها أو ليدفع كل واحد منهم خمس عشر ليرة . ألا يكفى أنهم يجلسون فى بناية كبيرة كهذه مجانا ويريدوننى أن أصلح أعطالهم ؟ والله شئ رائع ... ما هذا يا ؟...

– لنضع أيضا المصروف الذى يحتاجونه فى جيوبهم .. التوبة يا ربى ... أنت أدرى بحالى ...

– قل لهم بأن الكهرباء لن تصلح إلا بعد دفع النقود ... إن الله مع الصابرين ..

– كان أمين أفندى يحلق لحيته وقد أسند مرآة صغيرة إلى النافذة حين أتت إليه خادمة حمزة بيك وقالت :

– البيك يريدك ...

وذهب أمين أفندى .

– تفضل يا بيك ...

– ولك يا أمين أفندى، تقبل الله منا ومنكم، عندما كنت أصلى المغرب أتعلم ما خطر ببالى وقتها ؟.. بعد الظهر قلت سأزور متجر كامل الذى يسكن عندنا فسألته " ما هى أحوال عملك كامل بيك" .. فقال لى " ركود يا سيدى" لا يوجد بيع ولا شراء ...

– يا أخى هل يظنون أن جميع الناس مغفلين، كلما سألته يرد نفس العبارة، ألم يبق عند الناس شئ اسمه الضمير ؟.. يا أمين أفندى إن متجره ملئ بجميع الأصناف، ومازال الرجل يشكو من

البطالة لماذا يتظاهر بذلك يا أمين أفندى ؟.. يظن بأنه إذا قال لا يوجد عمل أو لا يوجد بيع ولا شراء فإننى سأغض الطرف عن حقوقى التى عنده . إنه يقيم فى دكان بألفى ليرة ألا يكفيه ذلك ... أفهمت ؟.. وكلما دخلت إلى دكانه يدعو الله أن لا يأتى أى زبون كى لا أراه، إن صبيه ينتظر على الباب ولا يسمح لزبائنه بالدخول . وأنا أعانده فيأتى زبون ويسأله "أيوجد كذا ؟ فيقول لا .. لا يوجد" ويأتى زبون غيره ويسأله " أيوجد كذا ؟ فيقول انتهى" كل هذا كى لا أراه يبيع كى لا أزيد أجرة الدكان .. يريد أن يجلس فى دكان كبير كهذا مجانا .. أقول لك يا أمين افندى لم يبق عند الناس ذرة ضمير لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.. أقسم بأن قلبى سيقف .. لقد ارتفع ضغطى .. ما هذه المصيبة التى أعيش فيها مع هؤلاء المستأجرين الذين يريدون قتلى. يا أمين أفندى سيقتلوننى .. إنهم قتله ... كل هذا خطر فى بالى عندما كنت أصلى العشاء .. أذهب إلى التاجر كامل عديم الشرف وقل له ما أقول لك .. بما أنه لايوجد زبائن وبما أن تجارتك راكدة وبما أنه يتضرر كثيرا من جراء ذلك، فلماذا لا يخرج من دكانى ؟.. أليس من الأفضل له أن يخرج .. أنا لا أريد الضرر لأحد .. ليخرج منها .. إن بقائه عندنا ظلم لنفسه، أليس كذلك ؟...

– قل له ما أفهمتك إياه .. فأنا رجل مسلم وعلى حافة قبرى .. إشرح لعديم الشرف هذا بأنه يوجد من يدفع خمسين ألف ليرة مقابل دكانى هذا ويوجد من يعطينى فى الشهر خمسة آلاف ويدفع

عن سنة مقدما .. إشرح له ذلك .. إما أن يدفع ثلاثة آلاف ليره أو يخرج.

– وازداد هيجان حمزة بيك فبدأ بالصراخ:

– سيقتلونني إنهم جلادون إنهم قتلة .. إنني رجل عجوز وقد تسارعت دقات قلبي هل سيدفعون لي مصاريف الدكتور وثمن الأدوية إذا مرضت ؟..

– وعندما ذهب أمين أفندي إلى سريره لينام دق الجرس وصاحب البناية لا يدق الجرس إلاّ في الليل . صعد البواب إلى الطابق الأعلى بعد أن ارتدى ثيابه...

– أمين أفندي ..

– تفضل يا بيك ..

– تقبل الله منا ومنكم .. اتعلم ما خطر ببالي وأنا أصلي العشاء؟..

– غدا سيكون الجو حارا إن شاء الله ... ما شاء الله يا أخي .. وكأننا في منتصف أيام الصيف .. يجب أن لا نشغل المدفأة .. فلقد نظرت اليوم إلى التقويم .. فتبين لي أن السنونو سيأتي غدا ... يريدوننا أن نشغل المدفأة في أيام الصيف ... والله هذا حرام .. لأن الله سيسألنا غدا في الآخرة "أنا بعثت السنونو إليك لأعلمك بأن الجو أصبح حارا وأنت ما زلت تشغل المدفأة، فلم كل هذا الهدر؟.." غدا لا يوجد شوفاج، لن يشغل .. قل للمستأجرين لقد انتهى الشتاء . عندما كنت أصلي العشاء سمعت المذياع يقول سيكون الجو غائما

جزئيا وستكون الليلة رطبة وستكون درجة الحرارة فوق الخمس درجات إنهم يعطونني مئتي ليرة ويريدونني أن أشغل المدفأة اثني عشر شهرا ,يا إلهي أعطني الصبر ... أخ .. واعتبارا من يوم غد لا يوجد مياه ساخنة، وليخرجوا إذا لم يعجبهم هذا النظام .. نحن لن نسكن أحدا قسرا في بنايتنا ومن لا يعجبه هذا ليخرج بالحسنى.

وكما يحدث كل يوم دق باب البواب منذ الفجر ..

– أمين أفندي .. أمين أفندي ..

– ويتبعها ندائه بسعال جاف ..

– يخرج أمين أفندي وهو يجر طرفي سرواله تحت رجليه .

– تفضل يا بيك ...

– تقبل الله منا ومنكم كنت أصلي الفجر وفجأة قلت لنفسي ما دام هؤلاء المستأجرون ليسوا مرتاحين .. وماداموا يجلسون في بنايتي مجانا . هاهاااا ؟ وأنا أصلي خطر بذهني خاطر، تقبل الله عندما كنت أصلي الفجر .. لم لا أعلن عن بيع هذه البناية .. علما بأنني لن ابيعها إنها مجرد خدعة وبعد ذلك سيأتي الذين يريدون شراءها إلى هنا أليس كذلك ؟.. وبعد ذلك سيصعدون إلى كل شقة ويتجولون فيها .. سيتجول الرجل بنفسه، وستتجول زوجته وأطفاله ولأنني سأعلن عن بيع البناية بسعر رخيص جدا فسيأتي أشخاص كثيرون على الأقل سيأتي في اليوم ثلاثون شخصا، في هذه الحالة سيفتح المستأجرون الباب ثلاثين مرة، وسيدخل إلى بيتهم ثلاثون رجلا، سيدخلون ويخرجون إلى غرف النوم والى الحمامات والى

المطابخ .. هل فهمت ؟ سأرهق روحهم من الضجر .. هؤلاء الحيوأنات .. وسيتجول الغرباء على مدار السنة فى بيوتهم، وهم لا يستطيعون أن يعترضوا على ذلك يا أمين أفندى.

– أليست البناية لى ومن حقى بيعها ؟.. ومن حقى ألا أبيعها لقد زهقونى من روحى أنا أريد أن يكرهوا أنفسهم حتى يخرجوا من بنايتى .. ما رأيك بهذه الخطة ؟.. إن قلبى نظيف يا أمين أفندى فقد اتت هذه الخطة إلى عقلى عندما كانت يداى متشابكتين .. بينما أصلى صلاة الفجر.

– كان حمزة بيك قادما من الشارع عندما التقى أمين أفندى وهو يمسح الدرج فبادره

– أمين أفندى اسمعنى جيدا .. إننى قادم الآن من صلاة الجمعة تقبل الله منا ومنكم عندما كنت أصلى صلاة الجمعة خطر ببالى سكان الشقة الثامنة ..

– البارحة مساء وطوال الليل كانت صنابير المياه عندهم مفتوحة لقد خربوا الصنابير يا أمين أفندى يا أخى إذا ستسقط البناية وأنا على حافة قبرى .. وبسببهم فسدت صلاة الجمعة .. هل فهمت يا أخى أن هذه البناية لم تبن بأموال كفار .. قل لهم أريد أن يدفعوا أجرة سنة مقدما .. فى هذه الأيام لا يوجد شقة فى بناية بسبعمائة ليرة .. والله هذا الذى يفعلونه بى لا يفعله جيش احتلال بأى بلد

إستيقظ أمين أفندى فى يوم العيد باكرا

– أمين أفندى ... أمين أفندى .

– إننى قادم من صلاة العيد – تقبل الله منا ومنكم – لقد خطر بذهنى .. تقبل الله منا ومنكم –و ماذا خطر بذهنى يا ربى ؟

– لقد نسيت من الجامع إلى هنا .. هؤلاء المستأجرون لا يتركون أى عقل فى الإنسان ... إنهم شئ مهم ... تماما وأنا أصلى .. عندما وصلت إلى الركوع .. خطر بذهنى .. ما هو هذا الشئ .. لم يتركوا عقلا فى رأسى.

– منذ مدة لم أكن أنسى شيئا .. فى الصلاة .. نعم ... عندما كنت أصلى تذكرت ما قاله لى سكان الشقة الثالثة .. قالوا بأنه لا يوجد عندهم أطفال، لقد خدعونى فأنا لا أعطى الشقة للذين عندهم أطفال وبعد أن سكنوا بثلاثة أشهر جاءهم مولود وفى كل سنة طفل، هذا غير معقول يا أمين أفندى ...

– لا يوجد كذب فى الدين الإسلامى، كل هذا خطر ببالى فى صلاة العيد . قل لهم : لديهم مهلة شهر وبعدها ليجدوا لأنفسهم مكانا آخر اقطع عنهم الماء والكهرباء .. ما هذا يا أخى .. كل سنة طفل .. هل فتحنا حضانة للأطفال ؟.. حتى فى صلاة العيد لا يمكننا أن نرتاح قليلا.

كان يوم أحد عندما صعد الدرج البواب الذى أمضى فى الخدمة أربعة عشر عاما . فى بناية السعادة، دق جرس الشقة السادسة .. فتحت له الخادمة ..

– أين البيك ..

– فقالت الخادمة :

– فى الصلاة ..

دخل إلى الردهة..

– عندما ينهى صلاته أخبريه بأننى انتظره هنا ..

– وبعد قليل جاء حمزه بيك ..

– الحمد لله أنك أتيت يا أمين أفندى كنت سأطلبك بعد قليل وأنا أصلى .. رفع أمين أفندى أصبعه إلى أعلى وكأنه يعطى إشارة بالسكوت ..

– أولا .. لقد أتى إلى عقلى شيء أريد أن أقوله يا حمزه بيك . فأنا منذ قليل – عفوا – ذهبت إلى دورة المياه، فخطر بذهنى سؤال وأنا فى دورة المياه، قلت : يا أخى مم يشكو هذا البيك، ما هذا الذى يقوم به يا سيدى ؟.. بع هذه البناية واسترح .. فى دورة المياه خطر بذهنى هذا الخاطر . لا تؤاخذنى .. إن الشيطان هو الذى أحضر إلى ذهنى هذه الفكرة فقلت لنفسى : هذا القواد لديه البنايات، وهذا الحيوان لديه الملايين وهذا عديم الشرف لديه المعامل . هل فهمت ؟.. وأنا فى دورة المياه خطرت بذهنى هذه الأشياء لقد أحضرها الشيطان إلى ذهنى، وهذا الرجل ليس على حافة قبره.. ما هى الصعوبات التى يعيشها . إنه لو نثر نقوده فى الهواء فلن تنتهى يا أخى ما هذا ؟.. لا أرتاح حتى وأنا فى دورة المياه ما هذا يا ؟..

تغير لون حمزة بيك وارتعشت يداه وسقط فوق كرسى وقال :

– الشيطان لا يؤتمن يا أمين أفندى إنه يلعب بعقل الانسان .

– كل ما قلته صحيح فلدى النقود ولدى كل شئ ولكن إذا بعت

هذه البناية فماذا سأفعل؟. إننى أموت وأنا بلا عمل . يا أمين أفندى إذا بعتها سأستريح ؟.. ماذا سأفعل إذا لم أقاتل هؤلاء الجيران ...

فى اليوم التالى كان البواب يجلس فى مقهى صغير على نفس الزقاق عندما آتى حمزه بيك ومعه شخص آخر إلى جانبه لقد تعجب بواب بناية السعادة لأن الوقت لم يكن وقت ما بعد الصلاة ولا تأتى الأفكار إلى حمزة بيك إلا وقت الصلاة وقال حمزة بيك:

– منذ ساعة وأنا أبحث عنك يا أمين أفندى . إنى متأثر جدا فعلا لقد كان يبدو مهموماً حزيناً . كانت ذقنه ترتجف وهو يتحدث بصوت بالٍ

– لقد دفنت الآن أعز صديق لى، لقد مات بصرى . إننى قادم الآن من جنازته . إنها ... هذه حال الدنيا كلنا على هذه الطريق مهما قصرت حياتنا أو طالت.

– هل تعرف ما خطر ببالى وأنا أقيم صلاة الجنازة يا أمين أفندى ؟.. يا أخى لا أرتاح حتى وأنا أصلى على الميت . التوبة يا ربى . لا حول ولا قوة (أن هذا الرجل سيعطينى ثلاثة آلاف ليرة نظير حراسته لبوابة العمارة وأنا لم آخذ منك أى نقود طيلة إقامتك على مدى أربعة عشر عاما وكل ما دفعته خمسمائة ليرة وبينما أنا أصلى فكرت فى أن الثلاثمائة ألف ليرة قليل أيضاً)

فقال أمين أفندى :

– حسنُ ... ليأت صديقك مساء إلى البيت ويجلس فيه ويصبح بوابا على هذه البناية وأنا سأذهب الآن أجمع متاعى كلها

– تعجب حمزة بيك وقال :

– كيف ... حالاً فى التو ؟..

– نعم الآن...

– هكذا إذا فى التو بلا عراك ولا خناق ؟ ألا تطالب بتعويض عملك ؟.. فأنت تعمل منذ أربعة عشر عاما .. بلا محام ولا محاكم ولا مخافر !! هل ستذهب بهذه السهولة ؟..

– لا أريد شيئا يا أخى سأذهب الآن وآخذ أغراضى

– فقال حمزة بيك :

– يا حرام لم يبق لهذه الدنيا أى طعم لا أحد يقدر هموم أحد

– هل حان وقت أذان العصر ؟... وأذهب وأصلى ...

٣٠- القطة السعيدة

Mutlu Kedi

كنا بالأمس فى معرض سيراميك لإحدى أشهر فناناتنا، وكان موعد افتتاح المعرض، وقدم جميع المعارف والأصدقاء إلى هناك وكان الطقس حارا للغاية وكانت الأحاديث تسمع من هنا وهناك وبينما يدور الحديث بانسجام بين الجميع . ظهرت إحدى فناناتنا الشهيرات أيضا وقالت :

– أيها الاولاد، لقد رأيت الليلة الماضية حلما .

فسألها شاعر :

– هل كان حلما مفزعا ؟

– لا أعرف، هل يوجد من بينكم من سيفسر الحلم ؟

وبدأت تروى حلمها :

– وأنا ذاهبة إلى مكان ما كنت فى أحد الشوارع التى تعرفونها

كنت هناك والزحام شديد والناس يروحون ويجيئون فى طريقهم إلى أعمالهم وفجأة صرخ أحد الأشخاص من الزحام وقال : أنا ! .. فالتفت كل واحد إلى مصدر الصوت فقال الرجل الذى صرخ قائلا "أنا" ليقف الآن كل شخص فى المكان الذى هو فيه ... فوقفنا جميعا

سأل أحد النحاتين ممن كانوا يسمعون حلم الفنانة قائلا : ولماذا وقفتم ؟

فقالت :من أين لى أن أعرف لقد وقفنا هكذا ! لقد وقف كل شخص وأنا وقفت أيضا، أليس هذا حلما يا عزيزى، لقد وقفت هكذا ثم بعد ذلك صرخ الرجل قائلا :

سيرسم كل واحد منكم دائرة بالطباشير حول نفسه فى المكان الذى يقف فيه .

وفجأة وفى التو أصبح فى يد كل شخص طباشير . ورسم كل شخص بالطباشير دائرة حوله . فقال بعضهم من بين الزحام لا نملك الطباشير فصاح الرجل قائلا :

من لا يملك طبشورة فليرسم حول نفسه دائرة بالقلم

فأخرج بعضُهم قلم رصاص وبعضهم الأخر قلم حبر وبدأوا يرسمون على حجارة الرصيف كل دائرة حول النقطة التى يوجد فيها، فتملكنى شعور بالخوف . وارتجفت كثيرا ومثلى كان آخرون ممن لا يمتلكون قلم . وهمس بعضهم قائلين :

ليس معنا أقلام . فصرخ ذلك الرجل قائلا : من ليس معه قلم

فليرسم بأصبعه دائرة فى الهواء فاستدرت على كعب حذائى ورسمت بيدى دائرة فى الهواء

وسأل أحد القصاصين ممن كانوا يستمعون لرؤية الفنانة، لماذا رسمتم دائرة ؟

فقالت الفنانة : إنه حلم، هل يمكن أن نقول لماذا عن الحلم ؟ إنه حلم ..

فقال أحد الممثلين : لا منطق للحلم !

وحول وجود منطق أو عدم وجود منطق للحلم، بدأ جدال بين الحاضرين، وفى النهاية أثبت أنه لا يمكن العثور على منطق للأحلام.

.. وواصلت الفنانة رواية حلمها :

– بعد أن رسم كل واحد دائرة حوله، صرخ الرجل "الآن سيبقى كل واحد فى الدائرة التى رسمها ولن يخرج أى منكم خارجها" وسارعنا جميعا إلى البقاء داخل دوائرنا . وهكذا انتظرنا فى المكان الذى كنا فيه.

فقال أحد الشعراء :

– ألا تستطيعون الخروج من الدائرة ؟

قالت الفنانة نحن لا نستطيع أن نخرج

– لماذا ؟

– ممنوع – كيف نخرج – ممنوع أن نتجاوز الدائرة – ممنوع، ألا تفهم ؟

فسأل قاص :

– لماذا ؟

– هـذا حلـم يا عـزيزى – هـل يوجـد سبب للـحـلم ؟ بـعد ذلك .. توقفنا داخل دوائرنا

– فقال قاص :

– حسنا ولكن لا يوجد عندك دائرة

– قالت الفنانة :

– لقد رسمت دائرة بإصبعى – الدائرة الموجودة فى الهواء

– الدائرة التى فى الهواء لا ترى والحدود ليست واضحة

– ليكن أعرف الدائرة التى رسمتها دون أن تظهر للعيان فكُلنا ننتظر كل فى دائرته، وبدأت أشعر بالضيق آه بدأت أفكر وأنا أقف فى الدائرة كيف أخرج ؟

– حسنا لماذا لم تخرجوا ؟

– لم يخرج أحد لكى أخرج أنا

– لماذا ؟

– أمان أقول لك : هذا حلم وهذا فى الحلم

– نعم ؟

– أه، إذا خـرجت من هـذه الـدائـرة أفـقد روحى . فكـرت فى أن أمحو الدائرة التى رسمتها فى الهواء باصبعى وأن أخرج منها . مددت يدى وعندما بدأت أمحو بكفى الدائرة التى فى الهواء ، صرخ ذاك الرجل ثـانـيـة : "لن يمـحـوا أحـد دائرته" وبـقـيت داخل الـدائـرة متسائلة – ما العمل ؟

فقال الممثل :

– لو لم ترسمى هذه الدائرة من البداية

– فقالت الفنانة : صحيح لو لم أرسم هذه الدائرة من البداية، لكن وجدتنى أرسمها وبقيت محصورة داخلها وأنا أنظر إلى ما يدور حولى إنهم مثلى منكمشون ومحتجزون فى الدائرة التى على يمينى إنسان مشلول . قال : أنا مشلول منذ عشرين سنة لم أتحرك منذ عشرين سنة من المكان الذى أسكن فيه لكننى الآن أحس فى داخلى برغبة لا حد لها فى الخروج من الدائرة. قلت للمشلول " لكن قدميك لا تحملانك فكيف ستسير ؟ أجاب، "امشى، بل حتى أركض هكذا أشعر أننى انعزلت فى الدائرة التى رسمتها لو لم يكن ممنوعا الخروج من الدائرة لكنت أظننى ركضت"

– أما الرجل الذى كان فى الدائرة على يسارى فكان يقول "آه، فلو صدر إذن لمحو هذه الدوائر لكنا قد تحررنا"

– خلفى كانت تنام امرأة نظرت إليها بدقة المرأة بلا حراك بلا روح ولكنها تتكلم . أليس ذلك حلما ؟ حتى الميت يتكلم : أه لو تمحى هذه الدوائر لكنا تنزهنا قليلا وتجولنا "

فسألتها " أنت ميتة فكيف تتنزهى ؟

– فأجابت " لم أحس أبداً برغبة فى التنزة منذ أن مت"

– وتابعت " ولكن منذ أن خططت هذه الدائرة منع علينا الخروج تجددت فى داخلى الرغبة فى التنزه والتجوال . لو لم أبق معزولا فى دائرة أظن أننى كنت مثلكم أنتم الأحياء ، أستطيع المشى"

– أمامى شاب كان المسكين مبتورا وأيضا يقول " آه لو يخرج أحد ويمحو هذه الخطوط ويحررنى من هذه الدائرة

– "أنت مبتور ولا تستطيع أن تحرك أصابعك حتى يمكنك أن ترسم دائرة حولك"

– أجاب : " نعم لم أرسم بيدى لكنى رسمت برأسى دائرة فى الهواء . الآن أنا محصور داخل الدائرة التى خططت لها ولا أستطيع أن أخرج "

– جميعنا بقينا فى الدوائر التى رسمناها أو أعددناها بأنفسنا ولا نستطيع الخروج منها . وهكذا كنا ننتظر ونردد " لو أحد يأتى ويمحو هذه الدوائر" ومع ازدياد هذه الأصوات بدأنا نصرخ " لو يخرج أحدهم ويحررنا" " لو يحررنا أحدهم ألا يوجد محرر ؟ لو يخرج من يمحو دوائرنا"

– كل واحد كان يردد الكلام نفسه، وأنا أيضا بدأت بالكلام مثلهم وإذ كنا نردد ذلك حل الظلام وأصبح الليل ازدادت شيئا فشيئا وحل الليل سأصبح مجنونة ولا أستطيع الخروج بأى شكل وكان العرق يتصبب من كل جسمى، لا يستطيع أحد الخروج من دائرته.

– بالضبط فى هذه اللحظة سمعنا صوتا " لو يخرج أحدهم لأخرج أنا ، لو يخرج أحدهم من دائرته لخرجت أنا كذلك

– صحيح لو يخرج أحدهم لأخرج أنا أيضا . قلت وبدأ كل واحد يقول " لو يخرج أحدهم أيا كان لأخرج أنا أيضا

– ثم بدات تتناهى أصوات لايوجد واحد واحد ؟

على الأقل واحد ؟ " هذا الواحد " فإنه لم يكن يستطيع القول أنه هذا الواحد

خيم ظلام حالك، كان يلقى بثقله فى المكان كل واحد منا محبوس فى الدوائر التى خططنا أو أعددناها نحن بأنفسنا

– فى هذه الأثناء تجولت إحدى القطط التى كانت عيناها تلمعان خلال العتمة تلمعان مثل قطرتين من الشهب كانت القطة تتنزه، تروح وتجئ دون أن يعترضها أحد، تتنزه خارج الدوائر وبينها

– نظرت إليها إنها قطة عادية – وتذهب إلى المكان الذى ترغب فيه فجأة توقفت وتلفتت، ثم من جديد تجولت . شعرت برغبة عميقة فى داخلى " آه . لو كنت قطة" – اية مخلوقات سعيدة هى القطط !

– الآخرون، اشتهوا لأنفسهم هذه الحرية وهذا التحرر وبدأوا يرددون " آه . لو كنا قططا، لو كنا قططا " أما القطة فكانت فى هذا الليل الخاوى، الخاوى تماما تتنزه وتتوقف كما لو أنها تتحدانا استيقظت مع هذا القلق وبقيت فى عرقى .

– بعد أن روت الفنانة حلمها سألت :

– الآن .. هل من يفسر هذا الحلم ؟

لم يحاول أحد من الحاضرين تفسيره . لكن أحد الكتاب قال : إذا لم يحسن الناس التصرف بطريقة إنسانية . فإنهم لا يحظون حتى بسعادة القطط

ثم خاطب الفنانة :

– سأكتب هذا الحلم .

فسألته:

– ولماذا تريد كتابته ؟

ربما يقرأ حلمك أحد القراء، ويلقى بنفسه خارج الدائرة وما أن يخرج هذا الواحد يخرج الآخرون من دوائرهم التى رسموها لأنفسهم .

٣١- هَذَا الَبيْتُ لا تدْخُلَه الجَرائِد

كان صديقاً مُقرباً إلىَّ جدا.. قد أمضيت ليلة عنده كضيف فى منزلهم فى أنقرة. كنا لم نلتق منذ عدة سنوات.

لو لم أقرأ الجريدة عقب استيقاظى فى الصباح، فلا أستطيع أن أقوم بأى عمل آخر... عادة من سنوات طويلة.. طلبت الجريدة من الخادمة.. فى المرة الأولى وكأنها لم تسمع.. وعند طلبى الجريدة للمرة الثانية.. انصرفت دون أن تُحَرِّك شفاهها.. ظننتها أنا أنها قد ذهبت لإحضار الجريدة.

بعد قليل جاءت زوجة صديقى إلى الصالون، قالت:

– صباح الخير..

– صباح النور..

– هل استرحت فى نومك ... ؟

– جداً .. جداً

– طلبت الجريدة ... ؟

– نعم ..

همست المرأة قائلة:

– الجريدة لا تدخل بيتنا...

وأنا بدورى لكى أُجاريها قُلت هامساً ومتسائلاً:

– لماذا ... ؟

تحدثت أيضاً بصوت هامس؛

– فى السابق كنا نشترى ثلاث جرائد.. الآن لا نشتريها منذ ستة أشهر والجريدة لا تدخل بيتنا..

همست أنا بدورى متسائلاً:

– لماذا .. هكذا تتحدثين بصوت هامس ؟

انحنت أكثر من السابق على أُذنى.. وقالت:

– حتى لا يسمع الأطفال...

انصرفت المرأة عندما نادى عليها الزوج من الداخل..

سألت صديقى على مائدة الإفطار قائلاً:

– الجريدة لا تدخل بيتكم.. أليس كذلك .. ؟

أشار بعينيه إلى الأطفال، ووضع إصبعه على شفتيه وقال: هُش ..

وما أن خرج الأطفال لكى يلعبوا فى الحديقة حتى قال صديقى:

– كيف أسمح بدخول الجرائد إلى بيتى.. ؟ ألم تسمع بما حدث

معنا .. ؟ ابنى مازال فى الصف الثانى.. والبنت فى الأول، وأصغرهم لم يذهب بعد إلى المدرسة.. ولكنه بدأ القراءة بنفسه فى البيت... ذات يوم أحد كنَّا جميعاً فى المنزل. نحن فى أيام الأحد نشترى خمس جرائد.. وفى الأيام الأخرى نشترى ثلاث... كانت أمى تقوم بكى الملابس، جاء الولد إليها؛ وسألها !

– جدتى... استربتيز يعنى إيه .. ؟

قال أمى وهى توبخ الولد:

– اخرس .. ما هذا الكلام.. سأضع الشطة فى فمك.. من أين تتعلم هذه الألفاظ قليلة الحياء..

أنا على قناعة تامة بضرورة الإجابة على كل أسئلة الأطفال مهما كانت... طبعاً بشكل يمكن أن يفهمونه.. خاصة وأن قتل الرغبة فى الأسئلة لدى الأطفال.. خطأ فادح..

رد الولد على سؤال والدتى قائلاً:

– لم أتعلم ذلك من أحد يا جدتى... الجريدة هل التى تكتب ... "نجمة الاستربتيز.. ".

أمى، صرخت فى الولد، وخطفت الجريدة من يده.. فقلت لها هامساً:

– هل ما عملتيه هذا هو الأَنْسَب.. الولد لديه حب استطلاع.. لابد من الإجابة على كل أسئلتهم.. إحكى له.!

قالت أمى:

– وماذا بعد هذا .. ؟ بعد سنى وعمرى هذا أحكى لولد بقدر

الأصبع عمَّا هو الاستربتيز.. ؟

يبدو أن الولد قد استشف حديثي مع أمي.. فتوجه إليَّ أنا في هذه المرة.. فسأل قائلاً:

– بابا... ما معنى استربتيز ... ؟

– أحضر هذه الجريدة إليَّ.. لنر... !

أحْضَر الولد الجريدة... صورة ضخمة.. أمرأة عارية.. ركعت على ركبتيها.. وألقت برأسها إلى الخلف.. وأمامها بالتمام تم وضع صورة مثلث.. والتقطوا الصورة من الأمام.. وأنا أحْكِي للولد.. جاء الصغيران الآخران إلى جانبي.. تابعت الحديث:

– هل ترون هذه الصورة.. يا .. لو أن السيدات خَلَعْن ملابسهن بهذا الشكل.. يُسَمُّون هذا "استربتيز" .. ها هي هذه السيدة التي في الصورة قد عملت استربتيز.. هكذا... فانبرت البنت في هذه المرة قائلة:

– ألا يقم الأولاد بعمل استربتيز ... ؟

– لا ... النساء فقط...

– لماذا ... ؟

ماذا أقول أنا في هذا الموقف... ؟ ... فقلت:

– الرجال لا يعملون ... هكذا.. فالنساء فقط هن اللائى يَعْمِلن استربتيز... الرجال لا يَعْمَلون .. هكذا...

وجهت البنت الحديث إلى جدتها قائلة:

– وأنا أيضاً سأعمل استربتيز يا جدتي ... ؟

فصاحت جدتها:

– وماذا بقى.... ؟

فقلتُ أنا:

– لن تعملين يا ابنتي ..

– لماذا.. ألست أنا فتاة... ؟

فانبرى الأصغر معطياً لها معلومة قائلاً:

– عبيطة... أنت لسَّه صغيرة.. عندما تكبرين ستعملين استبرتيز.... !!

فقالت البنت فجأة:

– جدتي هل أنت عملتي استربتيز ... ؟

فوجهت أمي الحديث إليَّ قائلة وهي تصرخ:

– عَلِّمْها.. قل لها .. حتى نرى..

بعد أن صرخت هكذا.. هزَّت رأسها واتجهت نحو المطبخ:

قال ابني موجهاً الحديث إليَّ:

– بابا... لماذا تخلع النساء ملابسهن هكذا.. ؟

– هذا شئ مثل الرقص .. هكذا...

– هل يَرْقُصن بدون رجال... ؟

– نعم...

– ولكن الآن الجو بارد..

– إنهن يخعلن ملابسهن في مكان مغلق ودافئ..

– هـ....ا .. فهمت الآن.. في الحمام...

قال الولد الأصغر:

– ماما ... ماما.. هل أنت تعملين استربتيز ...

– فصاحت زوجتى قائلة:

– أليس لديكم عمل آخر... هيَّا إلى الداخل... !

تفرق الجميع... ودون أن أدرى.. قالت الجدة للفتاة:

– النساء المحترمات لا يعملن استربتيز... هذا شئ معيب.. هكذا...

– وهل يُقال شئ كهذا لفتاة... ؟ سيدة مُسِنَّة هكذا.

خلال تلك الليلة.. كان سيأتينا ضيوف على العشاء..؛ مخرج سينمائى.. ومهندس ومدير عام والثلاثة أصدقاء قُدامى سيأتون هم وزوجاتهم... زوجة صديقى المخرج كانت راقصة سابقة.. كانت تتردد أقاويل ليست طيبة فى حق هذه السيدة. كثيرا ما تتعارك مع زوجها بسبب غيرتها الشديدة.

صديقى المدير العام كانوا قد قبضوا عليه فى جرم مع سيدة متزوجة.. زوج السيدة الذى أَصر على زواج صديقى من هذه السيدة حتى يُطلقها.. قُبض عليه هو الآخر فى فعل فاضح فى بيت آخر.. ولاكت الصحافة اسميهما...

أما زوجة المهندس الشاب.. فهى نجمة سينمائية مشهورة..

كما تعلم يا صديقى أَننى مغرم بالسينما ومتعلق بها منذ القِدم.. وكُنَّا نحن الأربعة سنكوِّن شركة سينمائية فيما بيننا كنت أنا سأكتب السيناريو.. وصديقىَ المدير العام والمهندس الشاب سيُقَدِّمان

رأسمال الفيلم.. وزوجة المهندس ستلعب الدور الرئيس، وصديقى المخرج سيخرج الفيلم.. وبهذا الشكل وبهذا التعاون كُنَّا سنقلل تكلفة الفيلم.. وكان الاجتماع الذى سيتم فى منزلنا على العشاء سنُنَاقش فيه هذا الموضوع...

وصل الضيوف.. لم نجلس بعد على المائدة.. كنا نتحدث فى الصالون.. ضَيْفاتنا كن يحببن أطفالنا جداً.. أخى.. هل تتصور ما حدث.. فابنى الكبير.. فاجأ زوجة صديقى المخرج قائلاً:

– طنط.. هل تعملين حضرتك استربتيز .. ؟

كما لو كُنَّا نحن الذين كنا قد لقَّنا الغلام.. غضبت المرأة التى كانت تحاول أَن تنسى ماضيها السابق.

حاولت أنا فوراً أن أتلافى الأمر؛ فقلت:

– هـ... لقد قرأها فى الجريدة اليوم

دخلت ابنتى أنا الأخرى فى الموضوع .. وقالت:

– عندما أكبر أنا أيضاً سأعمل استربتيز...

فصاح الابن الأصغر قائلاً:

– لا يمكن أن تَعْملى ذلك.. !!

– ليه يعنى.. ؟ أَعْمله مثل العسل .. هكذا...

– جدتى تقول لى.. السيدات السيئات هن اللائى يعملن استربتيز فقط...

(وسألت ابنتى نفس السيدة أيضاً)

– هل هذا صحيح يا طنط... ؟

أَوقعنا العيال فى حرج.. جزاهم الله..

قال الولد الكبير أيضاً:

– ولكن يا بابا... لم تقل لنا لماذا يخلعون... ؟

تدخل المدير العام لإنقاذ الوضع.. فقال؛

– يا بنى ... هذا فَنٌّ.. يا .. فن... ! الجميلات يخلعن والأخريات والآخرين يتفرجن..

– آ .. آ.. أليس عيباً... ؟

عند هذا.. تملكت الغيرة من زوجة المدير العام، وقالت ناظرة نحو الراقصة القديمة:

– طبعاً فن يا بنى... فَن.. وله أربابه أيضاً.. لا تستطيع كل سيدة أن تتعرى..

ألم تكن هذه الكلمة على الوجيعة... !!

وكأنها نكأت الجراح..

على أى حال يا سيدى.. غيَّرت أنا على الفور مجرى الحديث... وأخذت زوجتى بدورها الأطفال بعيداً بدأنا نتحدث عن الفيلم المقترح... بعد قليل جاءت ابنتى وهى تجرى نحو نجمة الشاشة، زوجة صديقى المهندس وقد أمسكت الجريدة فى يدها، وسألتها فى براءة:

– ما معنى فتاة للإيجار... ؟

– كسى الخجل والحمرة وجه السيدة.

قال الولد بدوره:

– أنا قرأت فى الجريدة.. أن فتاة للإيجار تكتب قصة حياتها... وأنا أعرف ماذا يعنى هذا... أنا..

– هيا.. بلاش كذب... إذا كنت أنا لا أفهم.. فكيف تفهم أنت يا.. ؟ .. بابا... ما معنى فتاة للإيجار... ؟

إذا أجبت فيه حَرَج.. وإذا لم أجب فهناك أيضاً حرج...

– هناك بعض الفتيات.. موجودات.. إنهن... يُستأجرن يعنى يأخذوهن بالإيجار... مثلاً كسكرتيرات... أو كاتبات على الآلة الكاتبة... مثلهن.. يؤخذن بالإيجار.. تعملن.. شغل..

– حسناً.. إذا كان كذلك.. لكى تُستأجر الفتاة.. فإلى أى سنة لابد أن تَدْرس... ؟ هل لابد أن تُنهى الثانوية ؟

بينما كُنت أُحاول أن أشرح للبنت.. فإذا بالولد يصيح متسائلاً:

– "وضع غير مناسب" ما معنى "وضع غير مناسب" يا أبى .. ؟

منذ برهة كانت زوجة المدير قد أَلْقت ببعض التلميحات التى تقصد بها الراقصة... فما كان من الراقصة هذه المرة إلاَّ وانبرت قائلة وهى تُشير نحو زوجة المدير العام:

– يا صغيرى.. إسأل طنط هذه هذا السؤال.. !

تحول الوضع إلى كتلة من البرودة والثلج..

فمجموعة الأطفال.. ما أن يحضر ضيف إلى البيت حتى يقومون بمظاهرة.. ويسيطر عليهم حب الاستطلاع.. ولكى تُحاول زوجتى تلافى هذا الجو البارد.. قالت:

– ألا نجلس إلى المائدة .. ؟

– "لست أدرى.. كما تشاءون.. أليس الوقت مازال مبكراً.. ؟"

كانت قالت ذلك هى زوجة المهندس..

أخذت والدتى الأطفال إلى الغرفة المجاورة.. فاسترحت قليلاً... كان صباح الأنباء يُسْمَع من الداخل... وبينما هذا الجو المشحون بالتوتر قد هدأ قليلاً؛ جاء الولد مسرعاً وفى يده جريدة... كان وكأننا نحن الذين لقَّناهم هذا.. واتجه نحو زوجة المخرج متسائلاً:

– تيزه.. طنط.. كيف يكون بيت الدعارة.. ؟ انظرى ها هى صورته..

فقلت أنا على الفور؛

– أَقْبِل هنا.. تعالى لأرى.. سوف أشرح أنا... بيت الد...

ولإنقاذ الموقف، توجهت بالحديث إلى الضيوف قائلاً:

– عِيال... حب الاستطلاع.. فُضُول.. يسألون عن كل ما يرونه أو يقرأونه فى الجرائد..

– احكى يا بابا.. قل... اتكلم يا والدى...

– بيت الدعارة.. بيت عادى.. مثل أى بيت.. ولكن هذا بيت عام..

– هل بيتنا .. بيت عام.. ؟

ضحك الضيوف.. ولكننى تابعت بجدية كاملة.. قائلاً:

– لا .. بيتنا.. بيت خاص...

– يعنى... لم أفهم... كيف يصير بيت عام..

– سأشرح غداً.. هيا.. الآن اذهب إلى اخوتك..

– ماذا يفعلون فى بيت الدعارة يا أبى... ؟

– ماذا سيفعلون يا حبيبى... يجلسون هكذا.. وينامون.. مثل أى بيت..

فى هذه اللحظة أيضاً؛ حضرت الابنة وفى يدها ملحق جريدة.. واتجهت نحو نجمة السينما.. وقالت:

– طنط.. !.. انظرى هذه الأَبْلَة.. تقول..

– أى أَبْلَة هذه.. ؟

وقرأت اسم نجمة سينمائية مشهورة فى الملحق...

– هذه الأبلة تقول: "إن طريق الشهرة يمد من فراش المخرج.. "..

فقالت زوجة المخرج بكل غيرتها المعهودة:

– طبعاً .. يا .. لا بد أن يمر من فراش المخرج..

– لماذا لابد أن يمر من فراش المخرج يا والدى... ؟

– بُنَيَّتى... ألا تنامين أنت أحياناً مع أُمِّك.. ؟

– أليس لنجمة السينما سرير حتى تنام فى فراش المخرج.. ؟

– لها .. لها يا بنيتى.. لها.. ولكن.. ليكن هكذا.. فأحياناً تتأخر.. مثلاً.. أو تمرض..

– يعنى ينامون سوياً..

– يا بنيتى .. لماذا لا ينامون.. ماذا فى ذلك.. ؟

– يعنى هل يبردون... ؟

– طبعاً.. تبرد...

تَهُب زوجة المهندس واقفة فجأة وقالت:

– عن إذنكم.. سننصرف نحن...

– آ.. آ.. كيف يصير.. ؟ الطعام..

– فعلَّقت زوجة المخرج قائلة:

– الهانم "اتقمصت" .. تملكها الخجل..

– لماذا يا عزيزتى... لماذا أخجل... الذى يجب أن يخجل هو أنت.. لماذا تغيِّر وجهك.. واصفر واحمر بمجرد أن سأل طفل طول الإصبع عن بيت الدعارة... البيت العام...؟

– نهضت أيضاً زوجة المدير العام واقفة.. وقالت:

– لنذهب .. ولننصرف نحن أيضاً.. كفى...

– أرجوك يا ست هانم.. اعتذر.. إذا كان..

انصرفوا جميعاً بفاصل زمنى ثلاث أو خمس دقائق، وبالطبع.. غاص مشروع الفيلم إلى أعماق النسيان.. وزعل الأصدقاء الثلاثة من بعضهم البعض.. غضبوا منَّا.. ومن بعضهم أيضاً..

حاولت زوجتى أن تضرب الأولاد.. خلَّصتهم من يدها بصعوبة.. فالضرب سيكون أَسْوأ... هكذا.. منذ ذلك اليوم.. وقد منعتُ دخول الجرائد إلى هذا البيت.. أنا أقرأ الجرائد والمجلات فى المكتب.. أحياناً.. أُحضرها سراً إلى المنزل.. وزوجتى أيضاً.. بعد أن ينام الأطفال تقرأها... فالجرائد لا تدخل هذا البيت يا سيدى.. ولن تدخل قط.

٣٢- مَلِكُ السّباخ

منذ أن بدأ عقلى يُدرك، وأنا أسمع أن لى عماً فى أمريكا... ومن حين لآخر كان العائدون من أمريكا يقولون أن عمر مليونيراً.. كان والدى وأعمامى الآخرون غاضبين عليه.. لقد ذهب إلى أمريكا وهو فى الثامنة عشر من عمره.. ومنذ ذلك الحين لا حس ولا خبر.. لا سلام ولا خطاب.. حقيقة الأمر.. أننا جميعاً.. وكل الأقارب كنا فقراء.. ولكن.. مترابطون.. متعاضدون.. ليس بيننا حقد أو حسد.. نكاد نكون الكل فى واحد.. ولما كنا جميعا مسالمين.. لا ينوى أحدنا خَوْزَمة الآخر.. فقد كنا نتقاسم كل شئ.. فلو انتهت أعلاف الشتاء عند حيوأنات عمى الكبير.. كان بقية أعمامى يقدِّمون له من عنابرهم ومخازنهم.

لو لم يبق قمح عند أحدهم.. أو لم يستطع أن يسد قرض البنك،

كنا جميعاً نهرع لمساعدته... وحتى هذه لم تكن دنياً، بل كانت اليوم لك.. وغدا لى..

قريتنا أربعة وعشرين منزلاً... كنا.. كل من فى القرية أقارب لم نكن حتى ندرى منذ متى بدأت هذه القرابة.. منذ أن وعينا جميعاً ونحن هكذا... وهكذا.. كان ذلك سبب غضبنا وزعلنا من عمى الذى فى أمريكا... نحن كنا نكتفى بما بين أيدينا.. زيتنا يكفى طعامنا... لم نكن نأمل منه نقود أو عقود أو أى مساعدة.. ولكن عدم سؤاله.. لا سلام.. ولا عتاب أو خطاب... هذا ما كان يُؤلمنا.. يُزْعجنا..

كان عَمِى مصطفى هو أكبر أهل القرية سنِّاً.. وكان دائماً ما يقول:

– هذا الرجل ليس من صلبنا.. أو نسلنا... لم يعد لى أخ اسمه حمدى..

أنا منذ كنت فى الثانية والثلاثين من عمرى وحتى بعد أن عاد عمى حمدى من أمريكا لم أر عمى الكبير مصطفى يحادثه قط. بل كان يوبخ أعمامى الآخرين لأنهم يحادثون ويخاطبون عمى حمدى..

شعبان؛ ابن عمى الصغير كان يذهب كل عام فى الشتاء إلى استانبول. كان يعمل حارسا لإحدى العمارات.. وزوج خالتى الصغيرة كان يبيع فيها المياه النقية على عربة.. يجرها حصان ويرفع صفائح الماء إلى كل الأدوار... وبينما كلاهما كانا يعودان من استانبول إلى القرية فجأة... كان عمى حمدى قد جاء هو الآخر من أمريكا إلى "غيراسون".. وهو فى غيراسون أرسل إليهما بشارة

مفادها أن عمَّكم قد عاد من أمريكا..

تناقل الخبر من هذا إلى ذاك فى غيراسون.. وكان السؤال هل هنا فى غيراسون أحدُ من قريتنا .. ؟

رأى المتساءلون ابن عمى.. وزوج خالتى... وقدَّموهما إليه بالطبع لم يعرفهما.. سألهم عمَنْ مات وعن الباقين..

ولما كانت السيارات أو حتى العربات لا تصل إلى قريتنا ولا تعمل عليها.. فقد جاء إلى "قره حصار".. ومن هناك ركب بغلاً.. كنا قد أحطنا بكل ضواحى القرية.. ولما كان بين عمى حمدى ووالدى سنة ونصف سنة فرق فى العمر فقط، فقد قضيا طفولتيهما معاً... ومن هنا كان والدى هو الوحيد فى القرية الذى أحسن استقباله.. ولم يكن غاضب منه.. ومن هنا بقى ضيفاً فى بيتنا..

ذات ليلة.. سأله والدى؛

– حمدى.. !.. أصبحت مليونيراً يا.. أهذا صحيح.. ؟

فقال عمى:

– صحيح... صرتُ مليونيراً..

– كيف صرت ... ؟

فبدأ يحكى قائلاً:

– أوْل ما ذهبت.. عانيت الأمرين... لم أكن أعرف الطريق.. ولم أعرف الراحة.. اللغة غريبة.. الدين غريب.. بلد غريب وعجيب... ذات يوم كنت جالساً فى حديقة.. تحدثت مع أرمنى هاجر من هنا هو الآخر... شكوت للرجل عدم العمل وقلة الرزق.. والإفلاس... فضحك

الأرمنى من سذاجتى. وقال:
– كم أنت عبيط... ! هل يجوع إنسان هنا... ؟
– ماذا أفعل .. ؟
– ماذا ستفعل ... هنا أمريكا.. ليس فى الدنيا كلها أمريكا أخرى.. هنا حتى الخَرَ.. يساوى فلوس.. دولارات..
– أصحيح هذا.. ؟ ... يَعْمل دولارات... ؟
– المهم أن تعرف كيف تبيعه.. أحسن تغليفه... يتخاطفونه..
والتجربة ليست بالنقود يا... استعرتُ خَيْمَة من بلدياتى .. نصبتها وسط الحديقة... دخلت الخيمة.. وفعلت كما قال الأرمنى.. ثم خرجت.. وأمام باب الخيمة وقفت منتظراً... فجاء بضع أشخاص.. سأل أحدهم قائلاً:
– ماذا يوجد فى الداخل.. ؟
– فقلت أنا بدورى الحقيقة كما هى؛
– فيه خَرَ..
يبدو أن الرجل لم يصدِّق..
– الدخول بكم فلس.. ؟
– عشر سنتات...
دفع العشر سنتات.. وَلج داخلاً.. دخوله وخروجه كان فى طرفة عين... فسأله المنتظرون عند الباب
– ماذا يوجد فى الداخل ... ؟
كان الرجل قد تملكه الغضب.. وأحمر وجهه وقطَّب جبينه.. وقال:

– يوجد خَرَ.... وانصرف مسرعاً.. فاشتد حب الاستطلاع بالموجودين وتملكتهم الرغبة فى المعرفة.. فسألوا:
– أصحيح هذا ... ؟
قلتُ:
– وماذا يُجبرنى على الكذب.. ؟ هذا صحيح ..
كان الداخل يدفع العشر سنتات... وكان الواقفون يسألون الخارجين... وكان هؤلاء بدورهم وفى غاية الغضب:
يزعقون وهم يقولون:
– يوجد خَرَ...
الجميع يتملكهم الشغف.. وحب الاستطلاع والمعرفة... تجمع حشد كبير أمام باب الخيمة.. لم أكن استطيع ملاحقتهم فى جمع السنتات.. فى هذا اليوم جمعتُ نقوداً حتى منتصف الليل... وإذا لم أَخْلع أعمدة الخيمة وأجمعها لظلوا هكذا حتى الصباح.. كسبت فى ذلك اليوم مائتين دولاراً... ثم قُمت بتوسعة الخيمة.. أقمت شادراً... وظَّفت مساعدين... كانت الأبواب الأربعة تعمل دون توقف. لم يمض عامان إلاَّ وكنت مليونيراً.
فقال والدى متسائلاً:
– ألم يقل أى أحد شيئاً ما .. ؟
فقال عمى:
– هناك لا يُشبه هنا فى شئ.. الكسب والمكسب حر.. هناك حرية.. المهم أنك لا تخدع أحداً.. خَوْزَقَة الزبون ممنوع قطعياً...

فمثلاً.. لو قلت سأعرض عصفوراً.. وعرضت فأراً.. هذا هو الممنوع... يوقعون الغرامة..

فتملكت الحيرة تماماً من والدى وأعاد السؤال:

– يعنى.. لا أحد يقول شيئاً.. ؟

– طالما أنك تدفع ضرائبه.. فليس من حق أحد أن يقول شيئاً.. توجد تذكرة.. كم تذكرة بيعت فى اليوم.. فى المتوسط... كل سنة.. كنت أدفع ثمانمائة ألف دولاراً ضرائب.. ماذا سيكون حالى لو لم أقم بهذا العمل.. ؟ إننى وجدت عملاً جديداً آخر.. وجدت مجالاً جديداً..

قاطعه والدى، ولم يتركه يكمل؛ قائلاً:

– لا أحد يعلم كم تَعبت وأرهقت .. !!

فقال عمى:

– لا يا عزيزى... فى البداية فقط.. ولكن فيما بعد لم أتعب قط.. إن للمليونيرات الأمريكان مكان أعمال مشهور هو "وال– ستريت" .. من مكتبى هناك أدرت كل أعمالى. فتحتُ فروعاً فى كل مكان.. يَعْمَل تحت إمرتى مئات من الرجال.

فقال والدى؛

– جميل.. أبعد أن رأوك هكذا.. ألم يقم آخرين بنفس العمل.. ؟

– هناك عُرْفُ .. يسمى شرف المهنة.. شرف التجارة... لو أن أحداً هو الذى خطط لعمل وتحمل مخاطرة.. هو الذى أَوْجَده سَجَّلَه.. فلا يستطيع أى شخص آخر أن يقوم بنفس العمل.. أنا تحملتُ

مخاطر هذا العمل وسجلته باسمى..

لم يُعجب ذلك أبى.. وقال مستنكراً:

– عمل من خَرَ... ؟ ألم تجد عملاً آخر.. ؟

فأجاب عمِّى قائلاً:

– هنالك مكان أعمال.. سَجِّلوا وثائق وحق كل أنوا ع الأعمال لم يكن هناك سوى هذا العمل، هو الذى لم يسجل.. ولم تصدر براءة إيجاده بعد..

– ألا زلت تقوم بهذا العمل.. ؟

– لا، الآن أصبحت ملكاً..

– ماذا .. ؟ ملك.. ؟ ملك أى مملكة .. ؟

– أمريكا.. ملك.. أمريكا..

– كنت أنا هذه المرة الذى لم يتحمل أو يَحتمل هذا القدر من الفشر.. فقلت معترضاً..

– ماذا قلت يا عمى... ؟ أمريكا ليست ملكية.. أمريكا جمهورية..

فقال:

– جمهورية.. ولكن.. الملوك هم الذين يديرون النظام الجمهورى فى أمريكا... فأنا ملك السباخ الآدمى تزوجت من إبنة ملك الرِّوس الحيوانى... وإننى الآن ملك سنانير السمك فى أمريكا.. أنا عندى الآن خمسة مصانع للسباخ الصناعى.

فعمى حمدى الذى هو ملك السباخ الآدمى الصناعى فى أمريكا.. قد جاء لكى يبيع لنا السباخ الصناعى فى بلدنا ولكنه لم يستطع أن

يبيعه.. وعندما كان يغادر قريتنا بعد عشرة أيام.. أراد أن يتصالح مع عمى مصطفى. ولكن عمى رده مغاضباً وهو يقول:

– ليغرب عن وجهى هذا الرجل الخَرَ... !!

بعد أن سافر عمى حمدى عائداً.. ظهر فى قريتنا كثير من الرجال الذين يودون أن يصبحوا مليونيرات بالذهاب إلى أمريكا.. ذهبوا.. فى الخطابات التى تأتى منهم يكتبون أنهم لم يستطيعوا أن يسجلوا براءة أى عمل بسبب عمى حمدى.. كانوا يكتبون أنه لم يعد هناك أى عمل فى ولايات أمريكا..

١٦٠.١٦٠

المحتوى

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
آفاق عالمية

76– الغجريـــة
تأليف : ثربانتس
ترجمة : د. على البمبى
77– وردة حمراء.. وردة بيضاء
مختارات من الشعر العالمى
ترجمة : يوسف عبد العزيز
78– دعوة للفلسفة (بروتريبتيقوس)
عرَّبه وقدم له وعلَّقَ عليه : د. عبد الغفار مكاوى
79– الْقَــرْيَةُ الصَّغيرةُ
تأليف : شارل فرديناند رامى
ترجمة : عاطف محمد عبد المجيد
80– رقص الطبول
ترجمة : محمد إبراهيم مبروك
تقديم : د. محمد أبو العطا
81– ملك الغرفة المظلمة
ترجمة : عبد الغنى داود – أحمد عبد الفتاح
82– أنا، أورهان والى
تأليف : أورهان والى
ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم